كاتب من جيل العمالقة



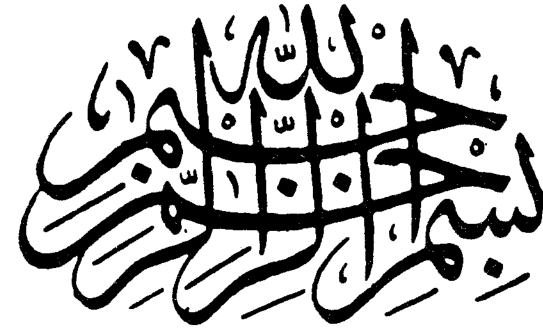
د. محمد لطفي جمعة

قراءة في فكره الإسلامي

د. إبراهيم عوض

د . محمد لطفى جمعة

قـراءة فـى فكـره الإسـلامـى



كاتب من جيل العمالقة

د. محمد لطفى جمعة

قراءة فى فكره الإسلامى

د. إبراهيم عوض

عالم الكتب

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

عالم الكتب
نشر ★ توزيع ★ طباعة

الإدارة :

١٦ شارع جواد حسنى
تليفون : ٣٩٢٤٦٢٦
فاكس : ٣٩٣٩٠٢٧

المكتبة :

٣٨ ش عبد الخالق ثروت
تليفون : ٣٩٢٦٤٠١
ص.ب : ٦٦ محمد فريد
الرمز البريدى : ١١٥١٨

رقم الإيداع
٩٩/٢٩١٨
الترقيم الدولى I.S.B.N.
977-232-174-2

مقدمة

الدكتور محمد لطفى جمعة (ت ١٩٥٣م) واحد من جيل الكتّاب العمالقة ، جيل العقاد والزيات وزكى مبارك والمازنى والحكيم وهيكل وطه حسين ومحمد عبد الله عنان . وهو رجل قانون ، إذ درس الحقوق وحصل على درجة الدكتورية من جامعة ليون بفرنسا فى أوائل هذا القرن ، واشتغل بالمحاماة [(1)]. ومع ذلك فقد كان كاتبا متعدد الاهتمامات كثير الإنتاج ، بل كان رائدا فى بعض مجالات التأليف كالقصة والمسرحية ودراسة الأدب الشعبى . وإن الإنسان ليتساءل : من أين كان له ، فى زحمة اشتغاله بالمحاماة وبالقضية الوطنية فى الداخل والخارج ، بالوقت والجهد اللذين يقتضيهما ذلك العدد الكبير من المؤلفات التى خلّفها وراءه مطبوعة ومخطوطة ؟

وهذه الدراسة التى بين يدى القارئ الكريم هى محاولة لإلقاء الضوء على جهود هذا الكاتب الكبير فى ميدان الدراسات الإسلامية ، إذ كان شديد التحمس لدينه منذ شبابه حتى وهو فى أوربا ، كما كانت له مواقف مبرورة ومشكورة فى سبيل الدفاع عن هذا الدين وكِتابه ونبيّه ضد المستشرقين والمبشّرين وأذيالهم من أصحاب الأسماء الإسلامية ، فضلاً عن إسهامه فى ميدان التفسير وكتابة السيرة النبوية التى ترك وراءه

---

(١) وبالمناسبة فقد كان جمعة أحد الذين ترافعوا عن أنور السادات ورفاقه فى قضية مقتل أمين عثمان .

كتابا من أمتع وأضخم ما أُلّف فيها فى جميع العصور . وقد تناولنا ذلك كله بالدراسة العلمية المفصلة فى هذا البحث ، ونرجو أن نكون قد وُفّقنا فيه .

وفى الختام لا يسعنى إلا أن أشكر الأستاذ المستشار رابح لطفى جمعة على تعاونه الجميل النبيل معى فى إخراج هذا البحث إلى الوجود حبًا ووفاءً منه لوالده وخدمةً لتراثه الفكرى والأدبى ، وهو أديب دمث لطيف المعشر. وفقه الله إلى إتمام رسالته نحو ذلك التراث المهم.

تحمس لطفى جمعة للإسلام ودفاعه عنه

ارتبط د. محمد لطفى جمعة بالإسلام ، غير ارتباط البيئة والنشأة ، منذ أول لحظة فى حياته ، إذ كانت ولادته ساعة أذان العشاء والمؤذن ينادى : « أشهد أن محمدا رسول الله »(١) فسُمِّىَ باسمه صلى الله عليه وسلم مع إضافة كلمة « لطفى » إلى الاسم الكريم على عادة بعض الناس فى تسمية أولادهم فى ذلك الزمان . وكان والده جمعة أبو الخير رجلاً متدينا يخالط المتصوفة ويتتلمذ عليهم ، كما كان ينتهى نسبه إلى الإمام علىّ كرم الله وجهه(٢) .

وكانت لكاتبنا جدة تحب الاستماع إلى من يقرأ لها الكتب ، وكانت تحفظ عددا منها عن ظهر قلب رغم أميتها . وقد قرأ لها حفيدها الصغير ، ضمن ما قرأ ، القرآن وصحيح البخارى وبعض الكتب الدينية دون أن يفهم من ذلك شيئا بطبيعة الحال . كما كانت هذه الجدة تروى له القصص الدينى كقصة سيدنا إبراهيم وزوجته سارة وقصة الصوفى المسلم الشهير إبراهيم بن أدهم . كذلك حضر لطفى جمعة بعض دروس العلم فى الجامع الأحمدى رغم أنه لم يكن طالبا فى الأزهر

---

(١) كان ذلك فى يوم الاثنين الثامن عشر من يناير ١٨٨٦م الموافق للعاشر من ربيع الثانى سنة ١٣٠٣هـ فى حىّ كوم الدكة بالإسكندرية .

(٢) انظر رابح لطفى جمعة / محمد لطفى جمعة / الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة الأعلام / العدد ٥) / ١٩٧٥م / ٧ ، ٩ ـ ١٠ .

بل فى المدارس الأميرية ، وكان ذلك عندما انتقل مع أسرته إلى العيش فى مدينة طنطا (١).

ومع ذلك نسمع كاتبنا يقول فى مذكراته عن مرحلة الصبا إنه لم تكن عنده فكرة خاصة عن الدين إلا من ثلاثة أشياء : رؤيته لأهله وهم يؤدون فرائض الإسلام ويحتفلون بأعياده ، وحِفْظه لبعض السور القرآنية الصغيرة ، وتردُّد قارئ على البيت يوميا يقرأ ما تيسر من القرآن فيه . أما فى المدرسة فلم يحاول أحد من الأساتذة تعليمه هو وزملائه الدين ، اللهم إلا ترديد اسم الرسول والصحابة ، وذلك خوفا من المفتشين الإنجليز والنظّار المنافقين والجواسيس ، إذ كان التعليم يجرى آنذاك على خطة دنلوپ فى محاولة الفصل بين التلاميذ وهُويّتهم الدينية والوطنية(٢) .

ولما انتقل إلى القاهرة كان من بين أساتذته المرحوم طنطاوى جوهرى، الذى شجعه وبث فيه روحا من عنده ووجهه إلى قراءة مؤلفات الغزالى والقُشيرى وكذلك مؤلفاته هو ، بل بلغت صلته به بعد ذلك أن كان يعينه فى تفسيره للقرآن الكريم من خلال نسخه لما يكتب(٣). والواقع أن للشيخ طنطاوى جوهرى على فكر لطفى جمعة واهتماماته العقلية والروحية واتجاهاته فى التأليف أثرًا بعيدا ، فقد كان جمعة يهتم

(١) المرجع السابق / ١٧ ـ ١٨. وقد تم هذا الانتقال إلى طنطا فى ١٨٩٦ عندما كان لطفى جمعة فى العاشرة من عمره .

(٢) السابق / ٢٠ ، ٢٤ ـ ٢٧ .

(٣) انظر المرجع السابق / ٢٥ ، ومذكرات لطفى جمعة المخطوطة بعنوان «شاهد على =

بالمباحث الروحية والصوفية كاهتمام أستاذه(١) ، وعمل بكل طاقته على خدمة الإسلام كما كان هذا الأستاذ يصنع ، فضلاً عن أنه قد وضع فيما بعد كتاباً فى تفسير القرآن شرح فيه كثيرا من نصوصه من وجهة نظر عصرية متريثا بوجه خاص عند الآيات المتعلقة بموضوعات علمية على غرار ما فعل الشيخ طنطاوى فى تفسيره الذائع الصيت «جواهر القرآن» مما سنقف عنده وندرسه تفصيلا فى الفصل الثانى من هذا الكتاب .

وممن اتصل بهم جمعة من زعماء الحركة الإسلامية ومفكريها وكان له أثر كبير على شخصيته وحياته الشيخ محمد عبده . وكان سبب اتصاله به إعجابه بالمقالات التى دبّجها الأستاذ الإمام فى تفنيد ما قاله فرح أنطون فى ما كتبه عن «ابن رشد وفلسفته» عام ١٩٠٣م ، ثم كتب إليه بعد ذلك يشرح له ما يشعر به من قلق روحى وشكوك دينية طالبا منه الإذن بمقابلته فأَذِن له ، وظل منذ ذلك الحين يزوره حتى

= العصر» ، وكذلك رابح لطفى جمعة / محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام / دار الوزّان للطباعة والنشر/ ١٩٩١م / ٩٥ ـ ٩٦ .

(١) يذكر لطفى جمعه فى مذكراته المخطوطة «شاهد على العصر» أنه فى بداية أمره كان ينفر من التصوف والمتصوفين ويمتعض من أغانيهم وأناشيدهم فى بداية أمره إلى أن اتصل بالشيخ طنطاوى جوهرى والإمام محمد عبده فجعلاه يحب المتصوفة ويقدِّر مجاهداتهم الروحية ويقرّ بها . وكان من أثر ذلك أنْ أصبح صدره يضيق بما تنشره مجلة «المقتطف» ترويجاً للفكر المادىّ وتكذيبا للظواهر الروحية حتى لقد وصفها أكثر من مرة بالمجلة الرجعية .

تُوُفِّيَ الشيخ (١) . وقد نشر الشيخ رشيد رضا نَصَّ رسالتين بعث بهما إلى الشيخ رحمه الله : وفى الأولى نراه يصف بؤسه النفسى وإحساسه بالوحشة والغربة بين الناس ، ثم يقول إنه نشأ مسلماً ، وإن كان لا يعرف من الإسلام إلا اسمه رغم حفظه بعض سور القرآن الكريم ، وإنه طالع كثيرا من الكتب وبخاصة الفلسفى منها فسببت له هذه القراءات شُبَهاً وإشكالات تتعلق بالخالق سبحانه وأصل الروح والموت والبعث والحساب والجنة والنار ، فضلاً عما يقاسيه من آلام نفسية عنيفة مَرْجِعها إلى تأخر أمته بالنسبة لغيرها من الأمم كاليابان مثلا ، التى ارتقت فى خمسين سنة ارتقاءً عظيما رغم وثنيتها ورغم إسلامنا . ولا تختلف الرسالة الثانية عن هذه كثيراً (٢) . وكان جمعة فى الثامنة عشرة من عمره عندما بعث بهاتين الرسالتين من طنطا (٣) . ومما أخذه كاتبنا عن الأستاذ الإمام تقديره للصوفية وجهادهم الروحى فى سبيل الوصول إلى كمال الروح والصفاء النفسى المنشود .

---

(١) انظر محمد لطفى جمعة / قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد / عالم الكتب / ١٩٩٨م / ٣١٣ وما بعدها ، ورابح لطفى جمعة / محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام / ١٧ وما بعدها .

(٢) يستطيع القارئ أن يجد هاتين الرسالتين فى « تاريخ الإمام الشيخ محمد عبده » للشيخ محمد رشيد رضا / مطبعة المنار / ١٩٣١م / ٧٩٢ ـ ٧٩٦ ، أما رد الشيخ محمد عبده على لطفى جمعة فنجده فى « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام » / ١٩ ـ ٢٠ .

(٣) ليعذرنى القارئ إذا أعربت له هنا عن سعادتى وأنا أقرأ فى أعلى الرسالة الأولى العنوان الذى كان يقيم به جمعة آنذاك، وهو اللوكندة الخديوية بشارع البورصة، =

وفى مذاكرت لطفى جمعة المخطوطة « شاهد على العصر » فصل بعنوان « دراستى فى الفلسفة » عرض فيه الشكوك العقلية التى كانت تنتابه وتنغص عليه حياته وفكره . وقد بلغت به الحال فى تلك الفترة أن اقتنع أن « أصل البلاء فى العالم انتشار الأديان ونموها ، فإنها (كما يقول) تؤدى إلى الجهل والفاقة وتولّد حكم الملوك واستبداد الحكومات » . وقد ظلت هذه الحال عنده بضع سنين إلى أن أخذ يطّلع على تاريخ الإسلام ونبيه فيما كتبه عدد من المستشرقين فأبصر عظمة محمد عليه السلام وتنبه إلى ما جرّه الفكر المادى على العالم وبلاد المسلمين من ويلات ومصائب تمثلت فى الاستعمار الأوربى الذى حكم بلاد الشرق بالحديد والنار .

ولما سافر لطفى جمعة إلى باريس لدراسة الحقوق فى ليون بعد فصله من مدرسة الحقوق الخديوية (لمشاركته فى تأبين الشهيد مصطفى كامل(١) بخطبة نارية أزعجت السلطات الإنجليزية والمستر دنلوب على

= إذ إننى قد تلقيت تعليمى الإعدادى والثانوى فى طنطا ، ولشارع البورصة فى نفوس أهل طنطا والغرباء المقيمين بها مكانة كبيرة ، فهو من شوارعها التجارية الشهيرة والأنيقة ، وكان يحلو لنا التسكع فيه والوقوف عند واجهات محلات الأحذية والمكتبات هناك . وكم صلينا بمسجد سيّدى عز ، الذى يقع فى آخره من جهة الشرق .

(١) تعود أسرة المرحوم مصطفى كامل بأصولها إلى قريتى « كتامة الغابة » بمحافظة الغربية ، فارتباط جمعة بمصطفى كامل والحزب الوطنى هو إذن سبب آخر من =

وجه الخصوص) كان ، إلى جانب طلبه للعلم ، يقوم بمساعدة أستاذه المسيو لامبير ، بإلقاء محاضرات بالفرنسية فى الشريعة الإسلامية على طلاب الكلية عنوانها « مقدمة أولية لدراسة الشريعة الإسلامية »[1]. وهذه المحاضرت لا تزال مخطوطة تنتظر أن ترى نور النشر كغيرها من البحوث والدراسات التى تُعَدّ بالعشرات . والأمل معقود بابنه الأستاذ رابح، الذى لا يضن بأى مال أو جهد فى سبيل التعريف بما خلّفه والده من روائع فى ميادين الفكر والأدب والنقد والذى لا يقصده باحث فى تراث هذا الوالد إلاّ ويرى منه تعاونا كريما نبيلا .

= أسباب حبّى له . والغريب أنى كنت فى بداية أمرى غير مدرك قيمة مصطفى كامل ولا أقدر جهاده فى سبيل الله والوطن حق قدره . وقد بدأ تحول أفكارى عنه إثر قراءتى ، وأنا بأكسفورد ، لرسائله الفرنسية إلى مدام جولييت آدم ثم كتاب فتحى رضوان عنه فى سلسلة « اقرأ » . كما ازدادت فى ذلك الوقت أيضاً معرفتى بفكر لطفى جمعة ، الذى لم أكن قد طالعت له قبلاً إلا « الشهاب الراصد » ، إلى جانب ما كنّا قد قرأناه عن دوره الرائد فى تأصيل الفن القصصى فى الأدب العربى ، فقرأت له فى أكسفورد أيضاً كتابه الفذ عن سيرة الرسول « ثورة الإسلام » ، كما قرأت ترجمة ابنه الأستاذ رابح لطفى جمعة له فى سلسلة « الأعلام » . وبالمناسبة فقد جاء ذكر لطفى جمعة فى عدة مواضع من رسالتى التى حصلتُ بها على درجة الدكتوراه فى الأدب العربى من جامعة أكسفورد بوصفه رائداً من رواد النقد القصصى .

(١) وهى المحاضرات التى خلّفه عليها الشيخ مصطفى عبد الرازق . انظر رابح لطفى جمعة / محمد لطفى جمعة / ٣٦ ، ٧٦ ، ومحمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام / ٦٩ .

ورغم جو الحرية الذى كانت تعيشه فرنسا فى ذلك الحين ولا تزال فقد حرص لطفى جمعة طوال إقامته فى تلك البلاد ، كما ذكر لنا ، على الابتعاد عن النساء والنبيذ والدخان بل واللحم والقهوة والشاى كذلك[1].

ومع هذا كله نفاجأ بالدكتور لطفى جمعة يختم خطبته على قبر فرح أنطون فى يوليه ١٩٢٢م مناجيا إياه قائلاً : « لقد قالوا لك فى الصلاة : اذهب إلى الجنة ونم فى أحضان السيد المسيح ، وأنا أقول لك كلمتى أيضا لأننى أقْرَب إليك وأحَبّ وأعْرَفُ بقلبك من هؤلاء الذين قالوا . أقول لك : اذهب إلى حيث ذهب قبلك أرسطو وأفلاطون وروسو ونيتشه ومحمد عبده . اذهب إلى المكان الذى يلتقى فيه الحكماء والمفكرون إن كانوا يلتقون بعد هذه الحياة . فإن كانت الجنة فاذهب إليها ، وإن كان هناك مكان آخر فهو أَحَبّ إليك وإلىّ من نعيم لا نجد فيه نفوس أحبابنا الذين عرفناهم وعشقناهم عشق الفكر الحر والعقل المشتعل »[2]. تُرى ألم يكن كاتبنا قد تخلص تماماً من شكوكه القديمة أم ماذا ؟ أم ترى الأمر لا يعدو أن يكون زلة لسان أدى إليها تحمسه فى ذلك الموقف التأبينى الذى تفور فيه عواطف الخطباء ؟

ومثل هذا قوله فى تأبين غاندى فى حفل عام فى ديسمبر ١٩٤٨م،

(١) رابح لطفى جمعة / محمد لطفى جمعة / ٤٠ .

(٢) انظر محمد لطفى جمعة / قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد / ٢٢١ ـ ٢٢٢ .

أى بعد ذلك بأكثر من ربع قرن ، إن « غاندى ليس من الرجال الذين قد يطوى الموتُ الجثمانى صحائفهم ، فإن كبار الزعماء الروحيين تبدأ حياتهم الثانية المجدية المثمرة بموتهم ، ويبدأ خلودهم الصحيح بغيبة أبدانهم عن الحياة الأرضية ، ولا يَعْرُو العاقلَ حزنٌ عليهم لأنهم لا يتألمون ولا يُفْجَعون ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون إذا دنا أجلهم أو أنذرتهم النذر بمفارقة هذا الكوكب الأرضى لأن الحياة الأبدية الباقية خير لهم وأبقى من الحياة الفانية ، وانتهاء رسالتهم على وجه الأرض فيه رَوْح وريحان وسعادة وهناء ، بل إنهم ليرجون حقا أن يتموا أعمالهم فى الجانب الآخر ويواصلوا جهودهم وجهادهم من وراء الحُجُب التى كانت تسترهم لأنهم خلصوا من أعباء المادة وتجرّدوا من أحمالها وكثافتها وانتقلوا إلى عالم الحق بعد أن غادروا عالم الأرض غير آسفين عليه ، فقد كانوا يُضْمِرون الحنين إلى النور الأسنى ، والبقاء الدائم فى الحسنى والصفاء والبهاء التى لا يشوبها سوأة ولا كدر ولا ظُلمة »[1]. ووجه الغرابة فى ذلك أنه يقطع بأن مصير غاندى فى الآخرة هو النجاة والرَّوْح والسعادة ، وهذا أمر لا يستطيع أحد أن يضمنه لمسلم ، فما بالك بغاندى الهندوكى ؟ [2] إن أقصى ما يمكن أن يقال فيه وفى أمثاله إن الله قد يخفف عنهم رغم عدم إسلامهم لأن ظروفا قهرية قد حالت بينهم وبين التعرف إلى محاسن الإسلام مثلاً ، أما القطع بنجاتهم ودخولهم الجنة

(١) رابح لطفى جمعة / محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام / ٥٤٧ .
(٢) فضلاً عن أن كلام د. جمعة يوحى بأن الجنة لن تكون دار راحة بل ستستمر أعمالنا وجهودنا هناك وكأننا لا نزال هنا على الأرض .

فكلاّ وألف كلاّ ، وبخاصة أن من الصعب جدا الظن بأن غاندى كان يجهل الإسلام وكتابه ورسوله أو أنه كان من أغمار الناس الذين لايستطيعون الاستقلال بآرائهم وضمائرهم عن معتقدات البيئة التى ينتسبون إليها وعن أفكارها .

أيا كان الأمر فلا شك أن مثل هذا الكلام يختلف تمام الاختلاف عن قوله فيما كتب من مذكرات فى أخريات حياته : « ليس معنى هذا أننى أؤيد مذهب داروين أو أنفيه ... غير أننى أصرح بأنه مهما كانت عقيدتى فى آراء داروين وأتباعه فلم يزعزع هذا عقيدتى الدينية ... لم أحب أن أتنازل عن الأصل الآدمى لأن آدم مخلوق على صورة الله وفيه عنصر روحانى لا شك فيه »[1] ، وكذلك قوله فى نفس هذه المذكرات عن أصل الإنسان ومصيره : « لقد كان لدىّ سؤالان لا ثالث لهما فى تلك الفترة : الأول : من أين جاء الإنسان ؟ والثانى : إلى أين يذهب الإنسان بعد موته الأرضى ؟ الأول تعبت فى تحصيل الجواب عليه ثم طويت كاغده ووضعته على أحد رفوف عقلى لشدة التناقض بين ما قاله العلماء وبين ما قاله الله ، وكلام الله عندى أصدق » . وفى إجابة السؤال الثانى نسمعه يقول : « نعم ، اطمأننت إلى عاقبة الإنسان، وهو الموت ، وإلى بقاء الروح بعد الموت على الصورة التى نقلها لنا النبى محمد ، ولم يخطر ببالى قط أننا خُلقْنا للفناء الأبدى »[2]. بل لقد بلغ به الحال أن كتب عند بلوغه الستين أنه أصبح يتكلم عن الموت كما يتكلم عن أمر واقع فى حياته حتى إن أهله وأصدقاءه كانوا يدهشون

(١) رابح لطفى جمعة / محمد لطفى جمعة / ١٧٤ ـ ١٧٥ .
(٢) المرجع السابق / ١٧٦ .

لذلك ويتوجعون له ، ثم يضيف قائلاً : « وترانى أرحب بالموت وأستبشر به لاعتقادى أنه شىء عجيب أشتاق إليه لأرى ما بعده »[1]. لكن هناك عبارة تلفت الانتباه وردت فى هذه المذكرت يقول فيها : «هل لى أن أُلْقى هذا السؤال بضعفى أمام قوته سبحانه وتعالى ؟ وإذا جاز لى أو أُذِن لى فماذا يكون الجواب ؟ لعلنى لست لهذا لزمان وحده ، بل لعلنى خُلِقْتُ فيما مضى وسأُخْلَق فيما هو آت حتى يصادفنى الزمان والمكان اللذين[2] تتوق روحى إليهما، وإلا فما معنى الخلود والأبد والأزل إذا لم تكن فرصة غير هذه الفرصة ؟ وإذا كان هذا هو القدر المعين فلا انطباق على الاستعداد والأهلية ، ويكون هذا الخلق عبثا ، حاشا لله أن يكون كذلك ، بل هى دورة من دورات الفلك ولفّة من لفّات الكون وصفحة من صفحات الوجود . فإن كان كذلك فما أنا إلا صورة واحدة فى إطارات لا عدد لها ، فإن لم يكن هذا الإطار منطبقا فلا بد من وجود الإطار الذى ينطبق ويلائم لأن الصورة هى الأصل ، والإطار تَبَع وحِلْية وسياج »[3]. وهى عبارة تلفت النظر بما تنم عليه من أن عقل صاحبها، رحمه الله ، لم يكُفَّ يوماً عن التساؤل والرغبة فى معرفة ما وراء حجب الغيب ، وكذلك بما تعكسه من أصداء بعيدة لفكرة التناسخ ، تلك الفكرة التى تقوم على العودة إلى الدنيا مرات ومرات ولكن فى صُوَرٍ من الخلق مختلفة ، وإن اتخذت العودة التى يتحدث

(١) السابق / ١٩٩ ـ ٢٠٠ .
(٢) هكذا وردت ، وصحتها « اللذان » ، ولعلها خطأ مطبعى .
(٣) السابق / ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

عنها جمعة الصورة البشرية دائماً كما هو واضح ، فضلاً عن أن الأمر هنا لا يخرج عن كونه سؤالا يتوجه به كاتبنا فى ضعف وخشوع إلى الله سبحانه راغباً فى أن يعرف الحق وأن يرسو على برّ اليقين قبل أن يصل إلى البر بنفسه بعد مغادرته بحر هذا العالم اللُّجِّىّ[1].

وقد ظل د. لطفى جمعة طوال حياته يخدم الإسلام ويدافع عنه وعن رسوله ويناصر قضايا المسلمين . ومن جهوده المبكرة فى هذه السبيل

(١) هذا الإحساس عند محمد لطفى قديم ، وقد خامره فى أكثر من مناسبة : ففى أول لقاء له بالسيدة أوجستادامانسكى فى لوزان بسويسرا سنة ١٩٠٨م مثلاً سألها: « لِمَ يشعر الإنسان أثناء التقائه بإنسان آخر لم يسبق بينهما معرفة أنه شديد الانجذاب إليه كأنهما اجتمعا فى حياة سابقة ؟ » (رابح لطفى جمعة / محمد لطفى جمعة / ٤٨ ـ ٤٩). وكانت إجابتها هى أيضاً وهى منفعلة بادية التأثر : « لقد شعرت هذا الشعور ومرّ بقلبى » . كما أنه كتب مقالاً بجريدة « الدستور » سنة ١٩٤٤م عنوانه «رجوع النفس الإنسانية إلى الماضى وإشرافها على المستقبل» (عدد الثلاثاء ٩ مايو ١٩٤٤م)، فضلا عن تناوله لهذا الموضوع فى روايتين له هما « الفتى العادل » ، التى نُشِرت فى جريدة « البلاغ » على حلقات سنة ١٩٣٠م ، و « عائدة » ، وقد نُشِرت أيضاً بذات الصحيفة ابتداء من ١٩٣٢م. وقد أتيحت لى قراءة المقالة الأولى وحلقات الرواية الأخيرة التى صوّرها لى مشكوراً الأستاذ رابح جمعة مع أوراقٍ أخرى كثيرة . وفى مقاله بـ « الدستور » يشير لطفى جمعة إلى لقائه بالسيدة الروسية وحواره معها ولكن على سبيل التلميح لا الإفصاح، إذ أشار إلى نفسه على أنه « صديق معاصر لى »، كما أشار إلى السيدة المذكورة بعبارات مثل « شخص آخر » و « صاحبه » (أى صاحب ذلك الصديق، الذى هو لطفى جمعة نفسه) . ومع ذلك كله فقد كتب لطفى جمعة فى مذكراته المخطوطة « شاهد على العصر » فى ٤ يونيه ١٩٤٢م أنه يبرأ إلى الله من كل عقيدة فى النسخ والمسخ والرسخ تخالف عقيدة الإسلام .

ذلك المقال الذى بعث به إلى جريدة « اللواء » من فرنسا سنة ١٩٠٨م يهنئ فيه طالبا جزائرياً اسمه ابن على فخار حصل على درجة الدكتوراه فى القانون من ليون وجاء فيه : « أن أهل الجزائر وسائر شمال إفريقيا عرب مثلنا ومسلمون يتطلعون إلى الحرية والاستقلال ، فمتى يأتى اليوم الذى يُضَمّ فيه شمل جميع العرب تحت لواء الحرية بعد خلع نِير الاستعمار والاستبداد؟ ... إننا نرى فى الأفق وميض برق ، وأتخيل السيد الأستاذ ابن على فخار من حَمَلَة الشعلة التى تضىء المستقبل » . وكان من نتيجة نشر هذا المقال أن استدعاه أستاذه إدوار لامبير ، الذى كان يعطف عليه ويشجعه على مقاومة الاحتلال الإنجليزى لمصر ، وقال له بوجه مصفرّ تبدو عليه علائم الغيظ الشديد إنه قد أساء إلى الطالب الجزائرى من حيث أراد النفع والإحسان تحت شعار الجامعة الدينية والقومية ، إذ إن المجلس البلدى فى ليون سوف يطرد ذلك الرجل من وظيفته ويقطع عيشه . ثم أردف قائلاً : « إنك تدعو إلى الثورة فى الجزائر وفى شمال إفريقيا . اعمل معروفا فينا واترك لنا جزائرنا وتونسنا ومراكشنا واصنع ما بدا لك فى الإنجليز دفاعا عن مصر » . وعبثا حاول جمعة استثارة نخوته والضرب على أوتار عواطف الأبوة والأستاذية فيه وتذكيره بوقوفه إلى جانب مصطفى كامل ، إذ كان جواب الأستاذ الفرنسى : « ولو! اصنع جميلا واترك لنا شمال إفريقيا واصنع بالإنجليز لأجل وطنك ما بدا لك . لقد أسأت إلىّ شخصيا » ، فقال له جمعة : « لم أعلم قبل اليوم أن تونس والجزائر وشمال إفريقيا ملك لكم، بل هى ملك لأصحابها . ثم إنك علمتنا التضحية والبذل فى سبيل الكرامة فاستقلْتَ من منصب نظارة مدرسة الحقوق الخديوية لأجل كرامتك ولم تخضع للإنجليزى دنْلوب ، فكيف تعيب علينا الدعوة إلى الحرية ؟ » [1]. ولا أظن أن لطفى جمعة قد فاته أن دين المستعمرين واحد وأنه إذا وقف بعض المسؤولين الفرنسيين فى هذه المناسبة أو تلك معنا فى مكافحة الاحتلال الإنجليزى لبلادنا فليس معنى ذلك أنهم يناصرون حريتنا واستقلالنا ، بل كل ما هنالك أنهم يحاولون إضعاف خصومهم الذين ينافسونهم على مصّ دماء الشعوب المستضعفة كى تخلو الساحة لهم فيمصوا هم هذه الدماء على راحتهم دون خوفٍ من أن يشاركهم فيها أحد! إلا أن ضرورات العمل السياسى تقتضى فى كثير من الأحيان الرضا بمثل هذه المعونة غير الشريفة رغبة فى درء شرّ عاجل بشرّ آجل قد يكون هناك أمل فى تجنبه فى الوقت المناسب ، وإن كانت التجارب قد علمتنا أن هذا هو بعينه « عشم إبليس فى الجنة » كما يقول المثل العامىّ !

وبعد نشر هذا المقال بعدة شهور فكر لطفى جمعة فى القيام بسياحة فى بلاد الأندلس ومراكش والجزائر وتونس وغيرها من بلاد العالم الإسلامى ليكتب عنها كتاباً من واقع التجربة الحية والتعامل المباشر ويخطب فى كل قطر يحلّ فيه مثيرا عزائم أبنائه وداعيا إياهم للنهوض

---

(١) انظر رابح لطفى جمعة / محمد لطفى جمعة / ٤٥ ـ ٤٦ ، ومحمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام / ٧٣ ـ ٧٥ .

من سُبَاتهم والثورة على ما يقاسونه من تخلف واستعمار . كذلك فكر فى دعوة أمم المغرب العربى للعمل على تأليف وحدة سياسية فيما بينها[1] . وقد ظهر فعلا لجمعة فى سنة ١٩٣٢م كتاب بعنوان « حياة الشرق » سوف نتكلم عنه فى أوانه بعد قليل .

وبعد أن حصل محمد لطفى جمعة على شهادة الليسانس فى القانون عزم على أن يستكمل دراساته العليا ، وبالفعل رجع إلى فرنسا بعد أن كان قد سافر إلى أرض الوطن لأداء امتحانِ معادلةٍ للشهادة التى حصل عليها من ليون ، وسجّل لدرجة الدكتوراه تحت إشراف أستاذه إدوار لامبير ، وكانت رسالته حول دستور المدينة فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام[2] . وقد لخص جمعة هذه الرسالة وأودع زُبْدَتها أحد فصول كتابه الذى ألفه بعد ذلك ببضع عشرات من السنين بعنوان « ثورة الإسلام وبطل الأنبياء » ، والذى ظهر منه الجزء الأول سنة ١٩٤٠م ثم ظهر كاملا فى طبعة ثانية عام ١٩٥٨م برعاية ابنه الأستاذ رابح . وسوف نتناول هذا الكتاب تناولا مستفيضا فى الفصل الأخير من هذه الدراسة بمشيئة الله . وقد أبرز كاتبنا فى هذه الرسالة الرحمة

(١) رابح لطفى جمعة / محمد لطفى جمعة / ٥١ ، ١١١ .

(٢) حصل جمعة على درجة الدكتوراه عام ١٩١٢م ، ومع ذلك فلم يحدث فى حدود علمى أن استعمل لقب « الدكتور » فى أى من مقالاته أو كتبه ولا ناداه أحد بهذا اللقب ، وإن كان ابنه الأستاذ رابح قد ذكر لى أن جرجي زيدان كان يلقبه فى رسائله إليه بلقب « الدكتور » . ولعلى أكون أول من يَذْكر هذا اللقب فى عنوان دراسة عنه .

والتسامح اللذين عامل بهما النبى الكريم طوائف اليهود عند هجرته إلى المدينة وتأسيس دولة للإسلام هناك وكيف أرسى عليه السلام المواطنة فى تلك الدولة على أساس متين من المساواة بين مواطنيها جميعا ، لا فرق بين أتباع دين وأتباع دين آخر ، وجعل التعاون على الخير وعلى الدفاع عن تلك الدولة رباطًا من شأنه أن يشد طوائفها المختلفة إلى بعضها البعض .

وفى سنة ١٩١٣م حصل منصور فهمى على درجة الدكتوراه التى وضعتها جامعة باريس للطلبة الأجانب برسالة عنونها " La condition de la femme dans la tradition et l' évolution de l' Islamisme " ، وهى الرسالة التى طعن فيها فى صدق النبى محمد واتهمه بأنه قد أتى بالقرآن من عنده وأنه يشرّع حسب ما يحلو له فيضع للناس أشياء ويستثنى نفسه منها ، كما فعل عندما أوجب على المسلمين أن يتوضأوا من جديد إذا ناموا ، على حين كان يقول عن نفسه فى مثل هذه الحالة إن عينه تنام ولا ينام قلبه أبدا ، ثم لا يتوضأ ، وكما فعل عندما حرّم على المسلمين الزواج بأكثر من أربع مع أن زوجاته كنّ أكثر من ذلك[1] ... إلى آخر الانتقادات الجامحة التى صوبها منصور فهمى إليه صلى الله عليه وسلم ، فضلا عن ادعائه أن وضع المرأة فى الإسلام لا

(١) عالج كاتب هذه السطور مسألة استثناء الرسول من تحديد الزواج بأربع معالجةً شاملة ومفصلة فى كتابه « مصدر القرآن ـ دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى » / مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م / ٦١ ـ ٧٠ .

يبلغ ما كانت عليه في الجاهلية ولا ما هي عليه في الدول الأوربية الحديثة (١).

---

(١) ومع كل هذا الكفر البواح الوقح يأتي الصحفي سامح كريّم بعد نحو ثلاثة أرباع القرن فيحاول أن يطمس على القضية من خلال التلاعب بالألفاظ اعتماداً على طول العهد وجهل الأجيال الجديدة بها قائلاً إن ما خطّه قلم منصور فهمي ليس إلا « عبارات ... تتنافى واحترام تقاليدنا » (انظر مقاله « منصور فهمي الفيلسوف المتصوف » / الأهرام / ١٤ سبتمبر ١٩٨٤م / ١٤).

ويتابع كريّم تضليله للقراء في مقال له آخر فيقول إن علماء الدين قد سكتوا فـ «لم ينهض أحد منهم للرد على ما جاء في هذه الرسالة » ، وذلك « لحكمة رأوها مؤداها أن الرد في مثل هذه الحالة يفتح باب الفتنة أمام المسلمين » ، واصفاً هذا الموقف بالصمت المتعقل، ولامزاً من طرْفٍ خفيٍّ محمد لطفي جمعة لانتقاده تلك الشطحات الكفرية ، مع التباكي على منصور فهمي ، الذي صوّره في صورة المضطهَد المسكين والعالم الفذّ الذي قتل طموحَه وأطفأ مصباح علمه مثلُ هذا الانتقاد (انظر مقاله « حالة المرأة في التقاليد الإسلامية للدكتور منصور فهمي » / الأهرام / ١٧ يونيه ١٩٨٥م / صفحة رمضان . وأرجو من القراء أن يلاحظوا كيف أن صفحة رمضان ، وهي صفحة تخصصها الجرائد للدفاع عن الدين ، قد تحولت على يد كريّم إلى الدفاع عن الإلحاد وإضفاء الهالات البراقة عليه) . وواضح للقارئ مدى التضليل في هذا الكلام ، فليس الذي كتبه منصور فهمي مجرد عبارات تتنافى وتقاليدنا ، بل هو رسالة علمية كاملة تتهم الرسول عليه السلام بالكذب والخداع (أليس قد اخترع الدين ونسبه إلى الله ؟) وبالاستبداد والأنانية (ألم يفرض على أتباعه تشريعات متعسفة واستثنى نفسه منها ؟) ... إلخ . كذلك فإن صمت علماء الدين (إن صحّ أنهم علموا وصمتوا) ليس محمْدة ، ومن ثم لا ينبغي أن يوصَف بالتعقل ، إذ ليس تعقلًا أن يرى الإنسان دينه ورسوله يتهمان بأبشع الاتهامات ويلوذ بالسكوت ، بل عين التعقل والحكمة هو ما صنعه لطفي جمعة وأضرابه ، وإلا تحول الأمر إلى فتنة ، =

ولما تُرْجِمَتْ بعض نصوص هذه الرسالة في مصر هبَّ بعض الغَيَارَى

= لأن الصمت في هذه الظروف لن يفسَّر إلا بأنه عجز عن الرد . وعلى أية حال فمنصور فهمي لم يكن ذلك العالم النحرير ولا الفيلسوف المتألق الفكر كما يدعي كريّم ، وإلا فأين إنتاجه ؟ أما ما خلفه من كتابات ضئيلة فحظه من القيمة الفكرية والأسلوبية ضئيل . وليس هذا هو رأينا وحدنا . ويمكن القارئ أن يستأنس في ذلك بما كتبه الأستاذ رجاء النقاش في مقال له بـ « المصوّر » تحت عنوان « هل كانوا زنادقة ؟ » (بتاريخ ٢٥ مايو ١٩٩٠م / ٣٦ ـ ٣٧ . وانظر له مقالا مشابها بعنوان « لماذا نصادر ولا نحاور ؟ » / المصور / ٢١ فبراير ١٩٩٢م / ٣٤ ـ ٣٥) .

والأستاذ النقاش لا يمكن اتهامه بالرجعية أو بمعاداة حرية الفكر أو بأن له مصلحة في انتقاد منصور فهمي ، ولذلك أحلت القارئ عليه . وفي المقال المذكور يصف رجاء النقاش الشبهات والتهم التي طنطن بها منصور فهمي بأنها « سخافات » و « مجموعة من الافتراءات ... لا تستحق من باحث جاد أن يذهب إلى باريس ليتعلمها ولا تستحق أن ينال صاحبها عليها الدكتوراه من السوربون » . كما قال عن ليفي بريل إنه « ليس له هذه السمعة العلمية التي تتميز بالنزاهة والصدق وانعدام الهوى والغرض » . كذلك أشار إلى أن منصور فهمي كان صغير السن آنذاك مما يجعله عرضة للوقوع في المصيدة التي تنصبها المؤسسات الغربية للإيقاع بشباب المثقفين العرب والمسلمين كي يكتبوا عن تاريخهم سخافات وافتراءات بعيدة عن العلم والمعرفة والبحث النزيه ولخلق شخصيات مشوهة تعادي مجتمعها وتاريخها وتنزع ثقة الإنسان بنفسه وتراثه دون مسوغ علمي سليم . ويمضي الأستاذ النقاش فيحكم على شخصية منصور فهمي بأنها « شخصية فكرية ضعيفة تسعى إلى تحقيق النجاح لنفسها دون أن تتمتع بفكر عميق أو ثقافة حقيقية أو موقف جدي من الحضارة والتاريخ والحياة » ، مؤكدا أنه « من أجل الحصول على درجة الدكتوراه عمل كل ما في وسعه لإرضاء أستاذه اليهودي المعادي للإسلام ، على حين أنه بعد عودته وتعرضه لغضب بني جلدته قد تنكر لما قاله في رسالته وانخرط في جمعية الشبان المسلمين وأصبح يدعو إلى الإسلام والعروبة في حماسة شديدة » . ثم يختتم الأستاذ النقاش رأيه في فهمي بأنه « كاتب محدود الفكر قليل الإنتاج سطحي في كل ما قدمه » .

على دينهم ورسولهم فردوا على صاحبها وفنّدوا دعاواه وكشفوا الغطاء عن الظروف الخفية التى كانت وراء كتابتها. وكان د. محمد لطفى جمعة فى مقدمة من استفزتهم مزاعم منصور فهمى وما فيها من حقد قبيح على الإسلام ونبيّه فكتب مقالا قويا فى الرد علـى منصـور فهمى فى جريدة « المؤيد » فى الثامن والعشرين من يناير سنة ١٩١٤م نجتزئ منه بالفقرات التالية :

« عاد منصور فهمى من أوربا بعد دراسة الفلسفة حاملا لقب دكتور جامعى ، وهى درجة فى العالمية حديثة الوضع أنشأتها جامعة پاريس إكراما لطلاب العلم الأجانب الذين يعجزون أو يضيق وقتهم عن تحصيل الدكتوراه الحقيقية التى اختص بها الفرنسيون أنفسهم وقليلا من الأجانب المجدّين . إن أعلى الألقاب العلمية وأشرف المناصب المعنوية لا تبيح للرجل أن ينتهك حرمة دين قوم من الأقوام أو يهاجم أمة فى معتقدها أو يقلل من مَجْدِ وكـرامةِ نبى مرسـل شهد له بالفضل أعداء دينه .

لا يظن منصور فهمى أننا نناقشه فى رسالته مناقشةَ مَنْ يمكن رميهم بالتعصب وضيق الفكر من المتشددين المغالين فى المحافظة على القديم إلى درجة الجمود ، ولكننا سنناقشه الحساب مناقشةَ العلْمِ الحديث الذى بهرت بَصَرَه قشورُه ولم يصل إلى بصيرته . لن نجادله دينيا لأننا لو طرقنا معه باب الدين فقد كفر لمجرد قوله : « إن محمداً شرع للناس واستثنى نفسه » (ص ١٣ من رسالته) ، فهو بهذا القول ينكر الوحى وينكر العصمة ويؤكد أن محمداً هو واضع الشرع . نحن نريد أن نتجرد عن صفتنا الدينية مؤقتا لنثبت بالعلم القديم والحديث وبالأدلة العقلية والمنطقية جهله وتعدِّيه حقوقه وعبثه بحرية القول والفكر والاعتقاد .

يقرر منصور فهمى فى فاتحة رسالته أنه نشأ مسلما فى وسط إسلامى وأنه قصد پاريس ففُتِح عليه بإرشاد العلامة ليفى الإسرائيلى فظهرت فيه المؤثرات السعيدة فدوَّن هذه الرسالة التى بحث فيها فى حالة المرأة فى الإسـلام . ألا يعلم حضـرته أن العـالم الحقـيـقى إذا أراد البـحث والاستقصاء عن أمر من الأمور ذهب إلى مصدر الأمر واستقصى الحقيقة من نبعها الأصلى حتى إن داروِن القـائل بمبدإ التطور والنشوء لما أراد التثبت من مبدئه طاف جزر المحيط الهندى الخصيب منها والمجدب ليقف على طبائع ما يوجد فيها من أنواع المخلوقات . كذلك علماء الاجتماع الذين جعلوا همَّهم درس شؤون الأمم والشعوب المختلفة لم يقولوا برأى من الآراء دون الذهاب إلى أوطانها ودَرْس أحوالهم من قرب .

فغريب جدا من منصـور فـهمى الشرقى المصرى المسلم أن يترك الوسط الإسلامى ، وسط علماء الأزهر ووطن جلال الدين السيوطى وابن تيمية والشافعى ، ويذهب إلى پاريس مقرّ الحاخام ليفى الإسرائيلى للبحث عن حقائق الدين الإسلامى والاهتداء بنور هذا الأستاذ للوقوف على تاريخ محمد وحياته الخاصة والعامة .

إن كثيرين من المستشرقين الذين أخذ عنهم منصور أقلُّ بضائعهم وأحقرها قبل أن يدوِّنوا ما دوَّنوا أنهم تحملوا الشدائد فى تعلم اللغة العربية وانتقلوا إلى وسط إسلامى وخاطروا بحياتهم فى سبيل الوصول إلى الحقيقة . وصاحبنا منصور فهمى قصد پاريس مقرّ العلامة ليڤى ليعود إلينا بالطعن فى نبينا ومعتقداتنا المقدسة .

وهنـا ننقل لحضـرته رأى العلامـة ڤيلهاوزن الألمانـى مؤلف كتاب « تاريخ الدولة العربية » ، إذ يقول إن كثيرين منا يذهبون إلى الشرق للبحث عن عيوب فيجـدوا [1] أموراً تبدل عقيدتهم وفضائل لم تكن تخطر على بالهم فتغيِّر آراءهم تمام التغيير . وإنى أذكِّر منصوراً بعبارة لا بد سمعها من الأستاذ إدوار لامبير ، وهى قوله : « إننى قبل أن أقصد مصر كان رأيى فى الإسلام مخالفاً لرأيى بعد إقامتى بضعة شهور حتى إننى مضطر لتغيير ما جاء فى كتبى عن الإسلام مما دونته قبل ذهابى إلى مصر » .

إننا نعرف المصادر التى استقى منها منصور ، وبئست تلك المصادر ! هى كتب بعض المتعصبين من المستشرقين الذين يرومون بكتاباتهم أغراضا سياسية أكثر منها علمية . إن حرية الاعتقاد تبيح لكل شخص أن ينتحل أى دين أو يقيم شعائر معتقَده دون اضطهاد أو تعذيب ، وشتان بين حماية التدين وبين الطعن فى صاحب شريعة عظمى !

إن العـاقل الكبـير النفس هو الذى يرحل إلى الغـرب مملوء القلب

(١) الصواب « فيجدون » .

بالآمال العالية فيعود إلى وطنه وقد ازداد حبه لقومه ودينه ، وقد يرحل أحدنا وهو ضعيف العقيدة ويعود إلينا وهو شديد التعصب لملته وقومه .

يقول منصور فهمى فى مقدمة كتابه : « إن هذه الرسالة تعطينا فرصة لإظهار المؤثرات السعيدة التى أثَّرت على تفكيرنا العلمى ، فقد وُلِدْتُ مسلماً وقضيت شبابى فى وسط إسلامى ثم رحلت إلى پاريس وحصَّلت العلوم بإرشاد ورعاية العلامة ليڤى بريل » . ومعنى هذا أن نشأته فى وسط إسلامى كـانت حائلا بينه وبين النور الإسرائيلى الذى أشرق عليه من مجلس الأستاذ ليڤى ، وهو فيما نعلم رجل خامل الذكر لم نسمع عن مؤلف من مؤلفاته »[1] .

والمقال ، كما نرى ، يتلهب غيرة على الدين وسمعة النبى الكريم وشخصيته النبيلة ويلقى ضوءاً ساطعاً على ما وراء الستار بحيث يرى القارئ بوضوح أصابع الأستاذ اليهودى المشرف على الرسالة وهى تحرك الطالب المسكين الذى أراد التقرب إلى من سيعطونه الدرجة فلم يبال بدينه ولا بالحقائق التاريخية . ومن يقرأ رسالة د. منصور فهمى من المسلمين فسوف تستفزه المغالطات الوقحة التى تقوم عليها والحقد الفتاك الذى كان يوجه قلم كاتبها . ولقد شعرت بما شعر به لطفى جمعة

(١) عاد لطفى جمعة إلى التهكم بمنصور فهمى فى كتابه عن السيرة النبوية فى أوائل الأربعينات فأشـار إليه على سبيل اللحـن بقوله : « صغار الأحلام من الباحثين » (ثورة الإسلام وبطل الأنبياء / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٥٨م / ٩١٣) .

عندما قرأتها العام الماضى وهالنى أن يَلِجّ صاحبها فى العناد والعدوان على الإسلام إلى هذا الحد البشع إرضاءً لأستاذه اليهودى ليفى بريل متناسيا أن الروح العلمية ليست هى التى أملت على ذلك اليهودى المتعصب توجيهه على هذا النحو بل الكراهية اليهودية المتأصلة فى نفوس القوم نحو سيد البشر عليه الصلاة والسلام . ولقد كان منصور فهمى برسالته تلك رائدا من رواد التهجم السفيه من قِبَل المتعلمين المنتسبين إلى الإسلام على هذا الدين وكتابه ونبيّه (١) مما لا نزال نحصد ثماره المرة حتى وقتنا هذا من مثل قول بعض النكرات الذين طَفَوْا مؤخرا على السطح فى ظروف تدعو إلى التأمل والعجب إن محمدا عليه الصلاة والسلام عندما جاء بالإسلام إنما كان يهدف إلى إقامة دولة هاشمية متابعةً لجده قُصَىّ أول من نظّم رحلتى الشتاء والصيف . وكمثل الادعاء السخيف الذى صرح فيه منصور فهمى فى مستهل رسالته بأنه ، بعد ذهابه إلى باريس ، قد كُشِفَتْ عن عقله غاشيةُ نشأته فى وسط إسلامى وأشرقت عليه المؤثرات السعيدة الناتجة عن إرشاد ليفى بريل له ،

(١) وإن كان قد رجع بعد ذلك عما قاله فى رسالته وتبرأ منه . وقد أعلن ندمه على تلك الخطيئة (وإن كان قد سماها « هفوة شباب ») بحضور عدد من الأشخاص الذين كانوا مجتمعين لتوديع المرحوم عبد العزيز الثعالبى العالم التونسى الشهير بالقاهرة ١٩٣٧م . كما اعترف للأستاذ محمد سيد كيلانى بإلحاده القديم وأكد أنه قد تبيّن له مع الأيام أنه كان على ضلال وأن الله هداه بعد ذلك إلى الإسلام (انظر رابح لطفى جمعة / محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام / ٣٣٤) .

ترى هؤلاء النكرات يعدون تمسكهم السابق بدينهم دروشةً يسرهم أنْ طُويتْ صفحتها من حياتهم!

كذلك أصدر لطفى جمعة فى عام ١٩٢٧م كتابا بعنوان « تاريخ فلاسفة الإسلام » درس فيه أفكار عدد من علماء الإسلام وفلاسفته ومَن أثرهم العظيم فى تاريخ الفكر الفلسفى فى العالم ، كما وضع دراسة أخرى عن التصوف الإسلامى عنوانها « الناحية الروحية والجانب العقلى فى الإسلام » . ولا ندرى أصدرت فعلاً عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية حسب الإشارة السريعة (فى سنة ١٩٧٥م) التى ذكر فيها الأستاذ رابح ابنه أن المجلس المذكور يقوم بطباعته آنذاك[1] أم لا . والراجح أنها لم تنشر بعد ، وإلا لذكرها الأستاذ أحمد حسين الطماوى بين الكتب المطبوعة للطفى جمعة وليس بين المخطوطات التى لم تر النور حتى الآن (٢) .

وعندما نظم أحد الشعراء اللبنانيين النصارى فى سنة ١٩٣١م قصيدة يفضّل فيها شجرة الأَرْز على الكعبة انبرى لطفى جمعة ، وكله حميّة وغضب ، يهاجم هذا الشاعر قائلا إنه « من نوع من الناس لا يستطيعون الفخر أو مدح أنفسهم دون أن يسيئوا إلى الآخرين ، وفيهم

(١) انظر كتابه « محمد لطفى جمعة » / ١٨٢ بالهامش .

(٢) انظر ص ٣٩٤ من كتابه « محمد لطفى جمعة فى موكب الحياة والأدب » / عالم الكتب / ١٩٩٣م / ٣٩٤ . وقد أخبرنى الأستاذ رابح لطفى جمعة مؤخراً أنه يُعِدّ الآن مخطوط هذا الكتاب للطبع ، وسيظهر قريبا جدا بمشيئة الله عن دار « عالم الكتب » .

رصيد قديم من تعصب أعمى لا تَشْفِيهم منه الهجرة إلى بلاد الحرية والنور (يقصد البرازيل ، التى هاجر الشاعر اللبنانى إليها) حيث اشترطوا سلامة أعين الواردين من التراخمو والرمد الحُبَيبى ولكنهم لم يشترطوا سلامة قلوبهم من العمى والتعصب ، فإن سلمت العيون التى فى الوجوه عميت البصائر والأفئدة التى فى الصدور ، ونعوذ بالله من الشيطان الرجيم » (١) .

وبدافع من حبه للإسلام والمسلمين وغيرته على مصالحهم ألف محمد لطفى جمعة أيضا فى سنة ١٩٣٢م كتابا بعنوان « حياة الشرق ـ دوله وشعوبه وماضيه وحاضره » . وأغلب الظن أنه هو الكتاب الذى دار بذهنه فى ١٩٠٩م أن يضعه بعد أن يقوم بجولة فى أقطار العالم الإسلامى كما سلفت الإشارة إلى ذلك . وفى هذا الكتاب تصوير للأوضاع العالمية والبلاء الاستعمارى الذى أُصِيبَتْ به أمم الشرق وأحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وتحذير من الحلف العربى الذى كان يدعو إليه نورى السعيد وزير العراق آنئذ ، ووصف لخطة الإصلاح الكفيلة بإنهاض المسلمين من كبوتهم وإبلاغهم ما يتطلعون إليه من آمال . وقد صادرت فرنسا هذا الكتاب فى دول المغرب العربى ، كما منعته هولندا من دخول البلاد

(١) من مقاله « إسفاف شاعر يطعن فى الكعبة » فى عموده المسمَّى « خواطر المساء » بجريدة « المساء » فى ٢٤ فبراير / ١٩٣١م .

الأندونيسية خوفا من الروح الثورية التى تسوده وما ينطوى عليه من تحريض للأمم الإسلامية على كُبول الاستعمار والفقر والجهل التى ترسف فيها (١) .

ومن جهاده فى سبيل الإسلام أيضا ما كتبه تفنيداً لمزاعم محمد سيد كيلانى فى كتابه عن الشريف الرضى الذى ألفه عام ١٩٣٧م ، وادعى فيه أن الشريعة الإسلامية شرعت الزنا وتسببت فى نشر الفوضى الأخلاقية ، إذ أباحت (حسب إفكه) أن تأتى أية امرأة لرجل من الرجال فتهبه نفسها دون عقد أو مهر أو شهود . كما زعم أن الصوم فى الإسلام مقتبس من عادة هندية قديمة وأنه ضار بالصحة ، وأنه من غير المستطاع الاطمئنان إلى مجىء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى مكة وبنائهما الكعبة ، فضلا عن طعنه فى الخلفاء الراشدين ، الذين أكد أنهم لم يجاهدوا حبًّا فى الإسلام وحده بل كانت لهم مطامع شخصية تستتر خلف هذا الجهاد المصطنع مبعثها الأنانية والأثرة وحب الذات . كما وصف عثمان بـ « الغِرّ » ، وأبدى ضيقه الشديد من الصلاة على النبى عند ذكر اسمه قائلاً إنها « إمعان فى البرود وتعمق فى الجمود » ... إلى آخر ما ذكره د. محمد لطفى جمعة فى رده المفحم الذى لم يُنْشَر رغم ذلك مع الأسف وأطلعنى عليه مشكورا ابنه

(١) انظر رابح لطفى جمعة / محمد لطفى جمعة / ١١٩ ـ ١٢٠ .

المستشار رابح لطفى جمعة وأهدانى منه نسخة مصورة [١] . وقد أخبرنى الأستاذ رابح أن والده ، رحمه الله ، بعد أن كتب ما كتب فى الردّ على هذا الإفك عاد فعدل عن التفكير فى نشره لأنه رأى أن كيلانى أقل من أن يُؤْبَه به أو يشغل الناس بترّهاته وسخافاته . وكان قد وصفه فى ذلك الردّ بالسخف والجهل والغرور والتطفل والوقاحة ، وقال إنه نكرة من النكرات ، كما اتهمه بأنه يريد تلويثَ سمعة الإسلام وطَعْنَه فى ظهره[٢].

---

(١) مما كتبته الصحف فى ذلك الوقت عن هذا الكتاب خبر طويل نشرته « البلاغ » فى ٢٥ / ١٢ / ١٩٣٧م تحت عنوان « موظف مسلم يطعن فى الدين الإسلامى » ، وخبر آخر قصير فى « الأهرام » بتاريخ ٢٧ / ١٢ / ١٩٣٧م عنوانه « قضية كتاب أمام محكمة الجنايات » .

(٢) من العجيب أن محمد سيد كيلانى قد اتصل بالدكتور لطفى جمعة بعد ذلك بعشر سنوات بالهاتف والبريد يستفسر منه عن كتاب منصور فهمى المذكور آنفا وعن ردّه عليه وغير ذلك من المسائل التى تتعلق بهذا الأمر . بل إنه أرسل بعض فقرات من ذلك الكتاب راجياً منه أن يترجمها له إلى العربية ، وإن كان قد عاد فى خطاب آخر فذكر له أن أحد أساتذته بكلية الآداب قد ترجم له مقدمة ذلك الكتاب والفصل الأول منه . وأحسب أن كيلانى كان يفكر فى ذلك الوقت فى تأليف كتابه « فصول ممتعة » ، الذى تحدث فيه عن منصور فهمى وعلى عبد الرازق وطه حسين وكتبهم التى أثارت عليهم الضمير الإسلامى وأحدثت ضجيجا مدويًا حين صدورها . وفى خطابه الثانى إلى جمعة يقصّ كيلانى نبأ زيارته لمنصور فهمى بشأن كتابه الآنف الذكر وكيف اعترف له فهمى بأنه كان ملحدا حين ألف هذا الكتاب وبقى كذلك مدة من الزمن، ثم تبيّن له أنه مخطئ فى أحكامه =

وقد شغلت جمعة أيضا قضية الوحدة العربية منذ وقت مبكر وقضية فلسطين ، وكتب فى هذين الموضوعين ثمانين مقالاً فى مجلة « الرابطة العربية » فى عامى ١٩٣٧م و ١٩٣٨م [١] ، كما خطب أمام الملك عبد العزيز آل سعود داعيا إلى وحدة المسلمين ومبشرا بنهوضهم من ماضيهم الطويل[٢]. ومن جهاده كذلك فى هذا الصدد تفنيده الدعوة الفرعونية التى كان أصحابها يتغَيَّوْن فصل مصر عن العروبة والإسلام[٣].

وبنفس هذه الروح التى تتلظى حمية للإسلام وكل ما يتعلق به كرّ محمد لطفى جمعة على البحث الذى دعا فيه عبد العزيز فهمى إلى نبذ الحروف العربية واصطناع نظيرتها اللاتينية وإعادة كتابة كل الكتب العربية المطبوعة والمخطوطة بالحروف الجديدة ، وهو البحث الذى صدر فى عام ١٩٤٤م بعنوان « الحروف اللاتينية لكتابة العربية » . وقد تهكم جمعة به وبدعوته أيما تهكم ، واتهمه بقلة البضاعة فى علوم اللغة

= ضالّ فى تفكيره فعاد إلى الإسلام . ومما قاله له أيضاً : « أحسن ما يُكْتَب عنى أنى كنت صادقا فى إلحادى وصادقا فى إيمانى ، ولو كنت فى أوربا لدافعت عن الدين لأنه لازم وضرورى لخير الأمم والشعوب » . وختم كيلانى قصته بوصف مظهر الدكتور منصور فهمى حين مقابلته له قائلا إنه كان يرتدى عباءة من وَبَر الجمال .

(١) رابح لطفى جمعة / محمد لطفى جمعة / ١٤٠ .

(٢) المرجع السابق / ١٨٦ ـ ١٨٨. وانظر هذه الخطبة فى كتابه « الأيام المبرورة فى البقاع المقدسة » (عالم الكتب / ١٩٩٩م / ٩٩ ـ ١٠٠ ، ١٠٥ ـ ١١٢) .

(٣) رابح لطفى جمعة / محمد لطفى جمعة / ١١٨ .

وركاكة الفكر ، ودافع عن اللسان العربى ، الذى وصمه فهمى بأنه لسان الوثنيين ، قائلاً إن الوثنية قد زالت عنه بمجرد نزول القرآن به مثلما زالت الوثنية عن الكعبة ومناسك الحج بعد مجىء الإسلام وقضائه على الأوثان والأصنام ، ثم إن اللاتينية كانت هى أيضاً لغة الوثنيين قبل مجىء النصرانية ، فلماذا يدعونا إلى الكتابة بها رغم ذلك إن كان صادقا فى دعواه عن العربية ؟ كما لفت النظر إلى ما تتميز به الحروف العربية من جمال على عكس الحروف اللاتينية « العقربية الملتوية » كما سماها ، وبين أن للغة العربية عند أكابر علمائها من الشأن ما للشريعة نفسها مؤكدا أن فى الأخذ بالخط اللاتينى زوالاً للنعرة القومية وتسليما لآخر سلاح فى الدنيا والدين . أما تفضيل فهمى للعبرية على العربية فقد سخر منه جمعة سخرية مصمية قائلاً : « ليت الباشا وصل إلى هذه الفكرة العبقرية باجتهاده وعلمه العبرى فنقول : بحّاثة فى علم مقارنة اللغات! ولكنه سأل سيادة الحاخام الأكبر الموجود معه فى المجمع[1] . فهذا علم مقترض بدون فائدة ورأس مالٍ لا ينفع الدائن ولا المدين ولا يربح به الباشا ربحا بسيطا أو مركباً بل يقود إلى الحَطيطة ! ... ولم يكن أحد من أحبار بنى إسرائيل قديما أو حديثا يحلم أن يستند إليه علَم من أعلام العربية فى تفضيل العربية عليها » . كما وصف مصادره التى اعتمد عليها فى ترديد هذه الدعوى بأنها « سَكَنْد هَانْد » كما يقول

(١) يقصد المجمع اللغوى بالقاهرة .

الإنجليز ، ثم دعاه إلى أن يترك ما يردده من سخف هاتفا به أن « أقلع ياسيدى العالم الأديب عن هذه الضلالة ، واختم حياتك ختاما سعيدا كما فعل تولستوى ، وعد غير مأمور إلى الماء والخضرة والوجه الحسن ، إلى المسجد والصلاة ، واترك اللغة لذويها والدين لله ورسوله والمؤمنين »[1] .

ومن مظاهر حب الدكتور محمد لطفى جمعة لدينه وغيرته عليه أنه كان دائم التتبع لما يَصْدُر من كتب عن الإسلام والمسلمين ، فإن وجد فيها ما يسىء إلى الإسلام جرّد قلمه للردّ عليها وإدحاض ما فيها من باطل وافتراء ، وإن وجد خيرا سلط الضوء عليه واحتفى به وأذاعه بين القراء وأثنى على صاحبه خيرا . ومقالاته فى هذا الصدد كثيرة ، وسنجتزئ ببعض الأمثلة فقط للتدليل على ما نقول : فقد نشر مقالين فى مجلة « الرابطة العربية » سنة ١٩٣٨م يستعرض فيهما كتابَيِ المستشرق النمساوى جولدتسيهر « محمد والسنة المحمدية » و «محمد» ، وأبرز ما ذكره ذلك المستشرق من حسنات الإسلام وفضائل قُوّاده الذين

(١) نشر جمعه فى الردّ على دعوة عبد العزيز فهمى سبعة مقالات : ثلاثة منها فى صحيفة « الدستور » فى التاسع عشر والسادس والعشرين من شهر سبتمبر والثالث من شهر أكتوبر ١٩٤٤م ، والأربعة الباقية فى صحيفة « منبر الشرق » فى التاسع والعشرين من شهر سبتمبر والسادس والثالث عشر والعشرين من شهر أكتوبر من نفس العام . وقد تحدّث عن هذه المعركة الأستاذ رابح لطفى جمعة فى كتابيه : « محمد لطفى جمعة » (ص ١٤٥ ـ ١٤٦) و « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام » (ص ٥٠١ ـ ٥٠٨) .

فتحوا العالم ، مثل اتساع الأفق الدينى والسياسى ، والعدل والرحمة بالشعوب ، والتسامح مع أصحاب الديانات الأخرى ، والمبادئ الاشتراكية التى أقام الخلفاء الراشدون حكمهم على هَدْيها (١) . ومن هذه المقالات أيضا مقاله عن الكتاب المهم الذى ألفه د. زكى على الطبيب المصرى الذى كان يعيش فى چنيف ويمارس الطب ويشتغل إلى جانبه بالسياسة وخدمة الإسلام ، وعنوانه " Islam in the World " ، فقد تحدث عن جهود المؤلف فى سبيل خدمة دينه والسجايا النبيلة التى يستلزمها مثل هذا النشاط كالصبر والجَلَد والقدرة على تحمل المشقات والفكر المنظم والإرادة الجبارة القاهرة واللغة الإنجليزية الراقية والاطلاع الواسع على ما يُكْتَب عن الإسلام باللغات الحية والغيرة عليه والصدق والأمانة فى النقل ، كما بيَّن الغرض الذى رمى إليه المؤلف من كتابه هذا ، وهو تصوير الإسلام على حقيقته منذ بزوغ نوره وتتبع تطوره على مدى القرون وصموده فى المعارك الطويلة التى واجه فيها أوربا وخرج من معظمها منتصرا . وكذلك أبرز جمعة الأمل الذى كان يحدو المؤلف فى انتشار الإسلام فى أوربا وأستراليا وصيرورته فى وقت قريب قوة لا يستهان بها(٢) . وحين مات محمد إقبال الشاعر والفيلسوف الهندى المسلم فى

(١) يجد القارئ هذين المقالين فى مجلة « الرابطة العربية » (العدد ٩٧ بتاريخ ٢٧ إبريل ١٩٣٨م ، والعدد ١٠٢ بتاريخ ١ يونيه ١٩٣٨م) .

(٢) نشر هذا المقال فى مجلة « الرابطة العربية » (العدد ١٠٠ بتاريخ ١٨ مايو ١٩٣٨م) .

عام ١٩٣٨م كتب لطفى جمعة مقالاً قويا يؤبنه فيه ويلقى الضوء على جهوده فى خدمة دينه فى مجالات السياسة والفكر والأدب ، وبخاصة محاضراته الست التى جمعها فى كتاب بالإنجليزية بعنوان « ست محاضرات فى إعادة بناء التفكير الدينى فى الإسلام »(١) والتى قارن فيها بين الفكر الإسلامى وآراء الفلاسفة الغربيين المحدثين(٢) .

ويدخل فى هذا المجال أيضا حرصه على تبصير المسلمين بألاعيب الجاسوسية الأوربية وأبطالها وأهدافهم الخبيثة فى توطئة السبيل لغزو بلاد الإسلام وامتصاص ثرواتها وإذلال شعوبها ، وتعريفهم بأن السياحة التى يقوم بها الأوربيون فى بلادهم ليست فى الغالب إلا ستاراً لهؤلاء الجواسيس كى يجمعوا عنا كل ما يحتاجون إلى معرفته ، حتى إذا حانت ساعة الهجوم علينا لم يجدوا صعوبة تُذْكَر فى فتح أبواب قلاعنا يدخلون منها ويتسلطون . ومن ذلك ما ذكره فى مقاله « السياحة عند العرب والإفرنج ـ كتاب إفرنجى جديد عن حضرموت » من أن « الغربيين ليسوا أهل سياسة وحروب فحسب بل هم رجال حرب وسياسة واستنفاض وعلم وأدب وتجسس وكهانة واستكشاف واستطلاع واستعمار . وإن كل ما يدخل فى حياتهم من الأراضى والممالك ومن

(١) ترجمها بعد ذلك إلى العربية الأستاذ عباس محمود بعنوان « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام » .

(٢) يستطيع القارئ أن يجد هذا المقال فى مجلة « الرابطة العربية » (العدد ٩٨ بتاريخ ٤ مايو ١٩٣٨م) وكتاب « مع الكتب فى سبيل المعرفة » لمحمد لطفى جمعة (عالم الكتب / ١٩٩٨م / ٣٤٨ ـ ٣٥٦) .

الشعوب الجاهلة أو المجهولة يكلفهم قبل الامتلاك ملايين الدنانير ومئات الأعمار من الرجال الذين يمهدون السبيل ويجوسون خلال الديار باسم السياحة والسفر لأجل التاريخ والعلم والتنقيب عن الآثار ودرس الأخلاق والعادات والآداب ... إلى آخر ما يوحى به إليهم شيطان الاستعمار من الأسباب والأعذار والحجج المنتحَلة حتى ليحتار المشاهد فى تحليل ذكائهم وسهولة التعليل لديهم وبساطة أهل الشرق الذين يصدقونهم ويفتحون لهم بلادهم وقلوبهم » . وقد مضى فذكر من هؤلاء الرحالين الجواسيس ماركو پولو الإيطالى وكنجليك والليدى ستانهوپ وروزيتا فوربس وجرترود بل وفرايا ستارك من الإنجليز[1]. ومن ذلك أيضا حديثه فى المقال الذى عرض فيه كتاب السير رونالد ستورز "Orientations" عن لورنس العرب (ذلك الجاسوس المأبون الذى يدعى كثير من الغربيين أنه كان صديقا للعرب يعمل من أجل استقلالهم وإعادة مجدهم الغابر) والخطط الجهنمية الخبيثة التى رُسِمَتْ له لتنفيذها بغرض تحطيمهم وإيقاعهم فى حبائل الاستعمار البريطانى[2] .

وقد كان لطفى جمعة طوال حياته ينزع منزعا قويا إلى الاشتراكية، كما كتب فيها وفى تاريخها والثورات التى قامت لتحقيقها والمبادئ

(١) المقال منشور فى مجلة « الرابطة العربية » (العدد ٦٨ بتاريخ ٢٢ سبتمبر ١٩٣٧م).

(٢) انظر المقال فى مجلة « الرابطة العربية » (العدد ٨٧ بتاريخ ٩ فبراير ١٩٣٨م).

التى تنادى بها المقالات الكثار[1]. وكان يعطف على الفلاحين والعمال، ويدعو إلى المساواة والإخاء بين طبقات المجتمع ، ويرثى لحال الفئات الصغيرة التى لا تقوم المجتمعات إلا على أكتافها وكدحها وعرقها ، ومع ذلك لا تتمتع من ثمرة عملها ونصَبها إلا بالفتات الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع . ليس ذلك فقط ، بل كان يرى أن هذه هى دعوة الإسلام، الذى « جاء بالمساواة والإخاء، وكفى بقوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ بيانا ، ولكن مضى على الإسلام ثلاثة عشر قرنا ذهبت بعهد الخلفاء الراشدين وجاءت بملوك وأمراء مستبدين يستبيحون ما حرَّم الدين ليشبعوا مطامعهم ، وإنها لكثيرة »[2] .

وفى مقال له سنة ١٩٣٨م نراه يبرز ما قاله جولدتسيهر عن الفرق بين الروح الاشتراكى لدى على بن أبى طالب ، الذى كان يسير على سُنَّة النبى عليه السلام وخلفائه الراشدين ، ذلك الروح الذى يعطف أشد العطف على الضعفاء والمطحونين ولا يفكر لحظة واحدة فى الاستئثار دونهم بأيّةٍ من نعم الله ، وبين روح الأنانية الذى كان يحرك إمبراطور ألمانيا غليوم الثانى ، إذ كان لا يرى إلا سيّدا واحدا هو شخص غليوم وقانونا واحدا هو القانون الذى وضعه بيده ، كما كان يؤكد أن

(١) يمكن الرجوع فى ذلك إلى الفصل الذى عقده ابنه الأستاذ رابح لطفى جمعة لهذه المسألة فى كتابه « محمد لطفى جمعة » (ص ١٢٦ ـ ١٣٧) .

(٢) كتب جمعة هذا الكلام فى سنة ١٩٠٨م .

الاشتراكية ليست إلا سحابة صيف مآلها إلى الانقشاع عما قليل[1] .

كذلك أكد جمعة أن الإسلام يحارب بشدة تقسيم الأمة إلى طبقات مثلما كان الحال فى مصر القديمة وفى روسيا وفرنسا قبل ثورتيهما ، ومثلما هو الحال فى الهند حتى الآن ، إذ ورد فى القرآن قوله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ، كما ورد فى الحديث قول رسول الله ﷺ : « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » ، و « الناس سواسية كأسنان المشط »[2]. وفى مناسبة أخرى نجده يهتف بأن « العدل الاجتماعى هو ما نادى به القرآن الكريم على لسان محمد بن عبد الله وحققه فى حياته واقتدى به فى تعزيزه أبو بكر وعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ، وهو ما فَنِيَتْ فيه أرواح أبطال فى أثينا وروما ومكة والمدينة وبغداد وزهقت فى سبيله أرواح فى موسكو وبطرسبرج وسيبريا ، فكيف تسمَّى هذه العاطفة الضخمة بل العاصفة الضخمة نزعة جديدة ؟ » ، وأن « العدل الاجتماعى أليف المجتمع الذى يحترم مبدأ حق السائل والمحروم ويصح فيه القول الكريم : ﴿ ويُطْعِمون الطعام على حُبّه مسكينا ويتيما وأسيرا ﴾. ولو أن بلدا

(١) من مقال لجمعة بعنوان « تغلغل العرب فى الحضارة الغربية وأسرار عظمة الشعوب الإسلامية ومستقبلها » (مجلة « الرابطة العربية » (العدد ٩٧) / ٢٧ إبريل ١٩٣٨م) . وقد أعيد نشره فى كتاب لمحمد لطفى جمعة صدر حديثا بعنوان «مع الكتب فى سبيل المعرفة » (ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠) .

(٢) كُتِب هذا فى سنة ١٩٤٣م .

جمعت فيه ثروة الأرض وشابت نفوسَ أهله المطامعُ والأثرة فلا يمكنه تحقيق العدل الاجتماعى مهما بذل المصلحون »[1]. ثم إنه يجزم جزما قاطعا دون خوف من نقد أو تجريح ، بل فى اطمئنان تام إلى أن كبار الفقهاء والمشرعين والمصلحين فى الشرق قاطبة يعضدونه ، بأن « دين الإسلام قد بُنِىَ على العدل والرحمة والإحسان والزكاة وأنه قرر حقوقا للفقراء لو قام الأغنياء بسدادها للمحتاجين والمعوزين طوعا أو كرها حسبما يوحيه إليهم القانون الإسلامى العامّ وتطور الأحوال الاقتصادية فى الشرق بل فى العالم كله لما بقى فى تلك البلاد ذات الملايين المتعددة الآهلة بالسكان بل المكتظة بهم أثر للفقر أو المرض أو الجهالة»[2]. وهكذا نلمس بأيدينا كيف أن الإسلام كان دائما فى عقل لطفى جمعة وقلبه حتى عند حديثه عن الاشتراكية ومبادئها منذ شبابه الأول فى بدايات القرن إلى آخر حياته فى منتصفه . صحيح أن الاشتراكية قد فشلت فى البلاد التى أعلنت تمسكها بها وتنظيم حياتها الاقتصادية والاجتماعية على أساسها ، لكن العيب فى الواقع إنما هو عيب المستبدين المدّعين الذين استحالت هذه المبادئ الإنسانية على أيديهم إلى تحكم فى رقاب العباد وعسف بهم وإثارة للأحقاد فى نفوسهم وإرهاب لهم بالجواسيس الذين يحصون عليهم نظراتهم

(١) نشر هذا الكلام فى سنة ١٩٤٥م .

(٢) نشر كاتبنا هذا الكلام سنة ١٩٤٧. وقد اعتمدنا فى نقل الفقرات الماضية على كتاب « محمد لطفى جمعة » للأستاذ رابح ابنه (ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ، ١٣٥ ـ ١٣٧) .

وأنفاسهم. وعلى أية حال فإن مبادئ الإسلام فى العدل والمساواة والرحمة بالطبقات الفقيرة تخلو من هذا بل تجرّمه وتحرّمه ، إذ لا تخاطب الأحقاد ولا تركز على مطالب الجسد وحدها ولا تجعل الدنيا كل همها، كما أن الإيمان بالله واليوم الآخر يرطّب من جفاف الاشتراكية المادية . وهذه المبادئ ما زالت تنتظر من يطبقها التطبيق السليم الذى يُرضِى الله ورسوله !

إلا أن الذى لا أستطيع أن أفهمه هو أنه ، رحمه الله ، قد اقترح ذات مرة إلغاء عقوبة الإعدام ، وكان ذلك سنة ١٩٣٠[1] . ولا أدرى أكانت هذه فكرة عارضة سرعان ما ولّت ولم يَعُدْ إليها كرة أخرى أم أنها من الأفكار الأساسية عنده . أسأل هذا السؤال لأن الإعدام هو إحدى العقوبات الإسلامية : على الأقل فى القِصاص (إلا إذ عفا أولياء القتيل ، وهذا أمر لا يمكن لأحد إكراههم عليه ولو بقانون) ، وفى بعض جرائم الحِرابة ، وفى الخيانة العظمى . وإذا كان الشيء بالشيء يُذْكَر فلا بد من الإشارة إلى أن الشاعر عبد الرحمن شكرى ، رحمه الله ، قد دعا فى بعض قصائده فى العقد الثانى من هذا القرن بنفس الدعوة[2] . وكنت قرأت فى شبابى الأول رواية للأديب الفرنسى ڤيكتور هيجو[3] يصور فيها حالة محكوم عليه بالإعدام فى أيامه الأخيرة مركزا

(١) فى مقالين بجريدة « البلاغ » فى مارس ١٩٣٠م .

(٢) وذلك فى رائيته الموجودة فى ديوان « لآلئ الأفكار » والتى يقول فيها :

أتبغون أن تنفوا بجرمٍ جريمةً   هى القتل يأتيها مَقِيدٌ وعاثر ؟

(٣) وهى الرواية التى ظهرت فى « كتاب الهلال » (العدد ١٠٧ / فبراير ١٩٦٠) بعنوان « مذكرات محكوم عليه بالإعدام » من ترجمة الأستاذ لطفى سلطان .

على مشاعر الرعب التى تحوّل حياته إلى جحيم ، وذلك بهدف استثارة عطف الجمهور عليه وعلى أمثاله وكسبهم إلى ما كان ينادى به من إلغاء هذه العقوبة . وأنا ، وإن كنت أفهم ضرورة الدعوة إلى دراسة الظروف التى تحيط بالجناة وقت اقتراف جرائمهم ومراعاتها عند بحث قضاياهم وإصدار الحكم فيها وتفسير أى شك لصالح المتهم ودرء العقوبات بالشبهات مما تحتمه مبادئ الشريعة الإسلامية ، فإننى لا أستطيع أن أقبل القول بإلغاء عقوبة الإعدام إلغاء مطلقا. ولا ينبغى التحجج برحمة هؤلاء الجناة ، فإن المجنى عليهم وأهليهم أولى بالرحمة ، والبادئ أظلم . ولو أُلغِىَ الإعدام لأصبحت جرائم القتل وخيانة الوطن أسهل الأشياء على نفوس المجرمين . أما القول بأن من الممكن الخطأ فى الحكم بإعدام برىء، وهو خطأ يستحيل تداركه بعد وقوعه ، فالرد عليه سهل ، وهو وجوب التأنى فى إصدار هذه العقوبة وفى تنفيذها وإحالة الحكم فيها إلى قضاة أعلى لمراجعتها جيدا قبل إيقاعها على الجانى[1] . وعلى أية حال فالخطأ وارد فى كل أمر من أمور الحياة .

أما ما يتعلل به المنادون بالإلغاء من أن قتل القاتل لن يعيد المقتول إلى الحياة فحجّة داحضة ، لأن تشريع الإعدام لا يهدف أبدا إلى إحياء الموتى ، بل المقصود به هو إرهاب الأشرار حتى لا يُقْدِموا على إزهاق نفس بريئة وكذلك تبريد النار المستعرة فى صدور أولياءِ القتيل . وثمة حجة أخرى وردت ضمن المقدمة البليغة التى دبّجتها يراعة ڤكتور هيجو لروايته السالفة الذكر تتلخص فى أن المجتمع بإعدامه إنسانا ما إنما يسلبه

(١) وهذا الاحتياط هو من قبيل ما تقوم به محكمة النقض فى مصر .

شيئا لم يمنحه إياه [1]. وهى كلمة حق أُريد بها باطل ، وإلا فبمستطاعنا أن نقول ذلك عن السجن أيضاً ، إذ إن الحبس هو مصادرة للحرية ، التى منحها اللهُ لا المجتمعُ للإنسان . وعلى ذلك قِسْ كل العقوبات الأخرى . ثم لماذا لا يقال ذلك للمجرم القاتل ؟ كذلك يقول هيجو إن عقوبة الإعدام تَحْرِم صغار المحكوم عليه بتلك العقوبة مما كان يوفّره لهم من رزق [2]. والجواب هو أن على المجتمع كفالة هؤلاء الصغار والقيام بحاجاتهم إلى أن يكبروا ويستطيعوا تدبير معايشهم بأنفسهم . ومرة أخرى نقول إن الشريعة تحبب إلى أولياء القتيل العفو والتسامح والحنان ، وقد أشار إلى ذلك الأستاذ لطفى جمعة ، بيد أن هذا التحبيب شىء ، وإلغاء عقوبة الإعدام نهائيا شىء آخر . ذلك أن العفو لا يقوم به إلا الأفذاذ من نبلاء البشر ، لكن الشرائع والقوانين لا توضع لهؤلاء بل للناس العاديين . ثم إن الدكتور جمعة قد تطرق فى نهاية ثانى المقالين المذكورين آنفا [3] إلى أن الشارع الوضعى فى بلاد المسلمين قد تفادى العمل بالحدود الإسلامية من باب الرحمة . ومن الواضح أنه يبارك هذا ، وهى مسألة تحتاج إلى دراسة موسعة ليس هذا موضع معالجتها ، وبخاصة أنه اكتفى بلمسها عَرَضا وفى سطور قلائل

(١) انظر ص ٣٨ من « مذكرات محكوم عليه بالإعدام » السابق ذكره .
(٢) المرجع السابق / ٣٩ .
(٣) فى « البلاغ » بتاريخ ٢٨ مارس ١٩٣٠م تحت عنوان « عقوبة الإعدام » فى عمود « لعلّ وعسى » .

فلم يبسط فيها حجته كما ينبغى . ومع ذلك فلا بد من الإشارة إلى أنه فى خطبته المشار إليها قبل صفحات أمام الملك عبد العزيز آل سعود قد أشاد بتطبيق ذلك العاهل لأحكام الشريعة الإسلامية مؤكّدا أنها صالحة لكل زمان ومكان وأنها تتفوق تماما على القوانين الوضعية التى يضعها المخلوق وتنفذها المطامع والأغراض والشهوات على حد قوله . وفى رحلته الحجازية المسماة بـ « الأيام المبرورة فى البقاع المقدسة » يفصّل جمعة القول فى تفوق العقوبات الإلهية على العقوبات الوضعية قائلا إنها أقوى أثرا فى إصلاح المجرم وردعه وفى تخويف من تسول له نفسه بالشر ، وإن الأمر لا يحتاج إلى أكثر من تطبيق حدود الله مرات معدودة بعدها تستقيم الأمور ، وإن الدول الغربية التى كانت ترى أن المجرم إنما هو مريض ينبغى تطبيبه أخذت تعود إلى الشدة فى معاقبة المجرمين ، وإن من الظلم ملاينة الجانى وتجاهل الضرر الشديد الذى وقع على المجنى عليه ... إلخ[1]. ثم عاد مرة أخرى إلى هذ الموضوع فى كتابه « نظرات عصرية فى القرآن الكريم » على ما سيأتى بيانه .

وكان لطفى جمعة على علاقة طيبة بكثير من زعماء العرب والمسلمين ورجال الفكر والإصلاح بينهم وكذلك أكابر المستشرقين المهتمين بالفكر الإسلامى ، وكان يتبادل معهم الرسائل . وقد نشر ابنه الأستاذ رابح عددا من هذه المراسلات أو نُتَفا صالحة منها فى بعض

(١) الأيام المبرورة فى البقاع المقدسة / ١٣٣ ـ ١٣٥ .

الكتب التى نشرها عن والده . ويا حبذا لو جمع كل ما دار من خطابات بين الوالد رحمه الله وهؤلاء الزعماء والمفكرين ! إذن لأدّى للفكر والثقافة والإسلام والعروبة خدمة يصعب تقديرها بثمن ، فإن مثل هذه الخطابات تطلعنا على ما لا تستطيع الكتب والدراسات المطولة أن تقدمه لنا لأنها تأخذنا مباشرة إلى الخفايا والأسرر والضمائر مما لا تطوله عادةً المؤلفاتُ المذكورة .

وبسبب غيرة جمعة على الإسلام أيضا وتصديه لكل ما يَمَسّه بسوء أو يتعارض معه أو يحاول منافسته ومزاحمته على ضمائر المسلمين نراه فى ١٤ يوليه ١٩٢٩م يكتب مقالا فى صحيفة « البلاغ » تحت عنوان « قاضٍ بهائى يحارب التقاليد »[1] يرد فيه على ما أثاره قاض بهائى فى رسالة إلى الصحيفة مكتوبة على ورق خاص بالمكتب البهائى المصرى فيها انتقاد شديد للتقاليد ، تلك التقاليد التى يقسمها إلى تقاليد دينية وأخرى دنيوية ، ضاربا من الأولى مثالين هما الدوسة[2] والمحلّل[3] . وقد انبرى له جمعة مبديا دهشته مما قاله وراميا إياه من طرّف خفىّ بالجهل وسوء القصد ، كما استفسر منه استفسار المتهكّم عن حقيقة البهائية : أهى دين مستقل عن الإسلام أم هى مجرد مذهب من مذاهب المسلمين ؟ وكذلك عن مقاصد معتنقيها : أيريدون زحزحة المسلمين عن دينهم وإدخالهم فى هذه النحلة الجديدة أم ماذا ؟ وهو فى أثناء ذلك كله يظهر احتراماً شكليا لـ « البيك القاضى » و « حضرة القاضى الفاضل » ورغبةً تهكمية فى التعلم على يديه .

وبعد ذلك بنحو أربع سنوات شرع د. جمعة ينشر روايته « عائدة » على حلقات بجريدة « البلاغ » استمرت لمدة عامين[1] ولم تُجْمَع بعد فى كتاب . وتحتوى هذه الرواية الطويلة على موضوعاتٍ عدّةٍ فى الدين والفلسفة والتصوف والأدب والاجتماع والأخلاق والأساطير والتاريخ ومقارنة الأديان تناولَها كاتبنا فى شكل حوارات بين أبطال قصته ، ومن هذه المناقشات الحوار الطويل المتشعب حول البابية والبهائية [2]. ويمثل هذه النِّحْلةَ فتاةٌ من أتباعها اسمها « قرة العين » (على اسم الزعيمة البهائية الأولى) وكذلك أبو هذه الفتاة . وفى هذه الرواية يُظْهِر جمعة إحاطة واسعة بالبهائية عقيدةً وتاريخاً ودعاةً وكتباً ومزاعم ، كما يوضح

---

(١) فى عمود « لعلّ وعسى » .

(٢) وهى دَوْس بعض مشايخ الطرق فى احتفالات المولد النبوى بحوافر خيولهم فوق أجساد أتباعهم المنبطحين أرضا .

(٣) المحلّل هو الرجل الذى يتزوج امرأة مطلقة طلاقا بائنا بينونةً كبرى بقصد تطليقها بمجرد الدخول بها حتى يحلّ لزوجها الأول أن يراجعها .

(١) بدءاً من ١٣ أكتوبر ١٩٣٢م .

(٢) كتب أحمد حسين الطماوى عدة صفحات عن هذه الرواية تناولها فيها من الناحية الفنية ومن الناحية المضمونية معاً ، وذلك فى كتابه « محمد لطفى جمعة فى موكب الحياة والأدب » (ص ١١٥ ـ ١٢٣) . ويحسن بالقارئ الرجوع إلى هذه الصفحات لما تحويه من فائدة كبيرة ، إذ تسلّط الضوء على هذه الرواية وعلى إحاطة جمعة الواسعة بالنِّحْلة البهائية وكتبها وتاريخها .

لنا كيف أن الفتاة البهائية لا تتورع عن اتخاذ جمالها أحبولة للإيقاع بالشبان الذين يتعلقون بها بُغْيَةَ إدخالهم فى نحلتها . وهو يكرّ على المعجزات التى يدعيها أتباع البهاء لنبيهم الكاذب فيبين أنها إما ناتجة عن المصادفة المحضة وإما راجعة إلى براعة البهاء فى تحليل الحوادث السياسية واستخلاص نتائجها وإما أن هؤلاء الأتباع يكذبون ويحرّفون الكَلِم عن مواضعه ويزعمون أشياء وحوادث لم تقع . كذلك يسلط جمعة الضوء الساطع على ما فى دعاوى البهائية من تناقضات ، وما يلجأ إليه أصحابها من الاستشهاد بكتب الأديان الأخرى عندما يكونون بحاجة إليها ثم مهاجمتها وتخطئتها حين تنتهى تلك الحاجة ، وما يلوون إليه آيات القرآن الكريم من تفسيرات باطنية منحرفة تدعيما لنحلتهم الفاسدة ، وما يتخذونه من تقيّة وتظاهر بالإسلام أمام عوامّ المسلمين لاكتساب ثقتهم والتمكن من ثم من تشكيكهم فى دينهم وإغرائهم بالبهائية ، وما يطنطنون به كذبا من أن دينهم هو الدين الوحيد الذى يناسب العصر الحديث بنزعته العلمية رغم اعتمادهم على كتب الخرافات والسحر . ويلفت النظر فى هذه الرواية أن أحد أشخاصها قاضٍ بهائى ، ولا أستبعد أن يكون هو ذلك القاضى الذى ردّ عليه لطفى جمعة فى جريدة « البلاغ » حسبما ذكرنا قبل قليل .

وفى الرواية إشارة على جانب كبير جدا من الأهمية إلى الرسالة التى بعث بها عباس أفندى عبد البهاء (ابن البهاء وخليفته فى زعامة البهائيين وفى تلقى ألواح الوحى المزيفة) إلى الشيخ محمد عبده يدعوه فيها إلى ترك الإسلام واعتناق البهائية قائلاً له: « الْبَسْ ثوب التقديس ، واخلَعْ الثوب الرثيث » ، تلك الإشارة التى يعلق عليها المؤلف رحمه الله فى الهامش بقوله إنه « على الرغم من نقد المرحوم الأستاذ الإمام للبهائية نقدا عادلا لا يزال بعضهم يتحكك به وينسب إليه ما ليس منه »(1) .

لكن جمعة للأسف لم يَسُقْ لنا هذا النقد ولا ذكر مضمونه أو حتى دلّنا على مكانه . والذى نعرفه أن فى الجزء الثالث من « الأعمال الكاملة » للإمام محمد عبده » (التى نشرها د. محمد عمارة) حوارا بين الشيخ محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا حول البابية والبهائية . وواضح من هذا الحوار رضا الشيخ محمد عبده عن هذه النِّحْلة وعن عباس أفندى ابن البهاء ، وواضح أيضا أنه قد بنى ثناءه على ما سمعه من عباس هذا . وكان فى الغالب كلما نبهه رشيد رضا إلى مأخذ من مآخذ هذه النحلة يُبْدِى استغرابه قائلاً إن عباس أفندى لم يقل له هذا ، أو يعلّق بما يستفاد منه أن الأمر ليس كما فهم رشيد رضا . مثال ذلك أنه عندما جاء ذكر ما زعمه أحد دعاة البهائية من أن ثبات تعاليم دعوة ما زمناً هو دليل على صحتها ، مثلما هو الأمر فى ثبات تعاليم البهائية

---

(1) البلاغ / ٣ مارس ١٩٣٤م .

عِقْدين أو ثلاثةً من العقود ، كان تعليق محمد عبده هو : « وأنا أقول إنه لا يثبت ولا يدوم إلا الحق والخير ، وإن الشر والباطل لا يدومان وإن انتشرا ونميا ، ولكن دعوة القوم لم يطل عليها الأمد بحيث يصح الاحتجاج بهذا ». وعندما يقول رشيد رضا : « إن أتباع الباب والبهاء قد فُتِنوا بهما لما رأوا من القوة العقلية الخارقة للعادة مع أن هذا أمر طبيعي، فإنه قد عُهِد في الطبيعة أن أفرادا من الناس تكون قوتهم العقلية خارقة للعادة » يرد عليه أستاذه قائلاً : « أنا أعتقد أن صاحب القوة العقلية الخارقة للعادة إذا دعا إلى شيء خيري ونجح فيه فلا بد أن يكون مؤيدا بروح من الله تعالى ، وإن هذه القوة العقلية لا يوجدها الله عبثا ». وعندما حدد رشيد رضا الكلام وذكر أن ميرزا فضل الله (أحد كبار الدعاة البهائيين) يتحدث عن الحاجة إلى شريعة جديدة تنسخ الأديان نسخا كان جوابه : « أي حاجة إلى هذا البعد عن الحق والصواب وإلى هذا الكلام الذي لا يُعْقَل ؟ أنا لم أفهم من عباس أفندي شيئا من هذا ، وإنما صرح لي أن قيامهم لإصلاح مذهب الشيعة وتقريبه إلى مذهب أهل السنة » ، ثم تحدث بعد ذلك عن حاجة المذهب الشيعي إلى التصحيح وشَفَعَه بالحديث عن الوهابية وما فيها من الغلو ، ثم ختم كلامه بسؤال تلميذه : « ماذا تنكر من رسالة ميرزا فضل؟ » ، فأجاب رشيد رضا قائلا : « أولا مسألة تعدد الزوجات والتَّسرِّي ، وأن شريعة البهاء تبيح الجمع بين امرأتين فقط ». وكان تعليق محمد عبده هو أن هناك « مفاسد كثيرة للتعدد والتسرى » ، ثم مضى يعددها . وفي النهاية يقول الشيخ رشيد : «إن البهائية يقولون بصحة جميع الأديان والكتب الدينية، ويدعون جميع الملل إلى دينهم لتوحيد كلمة البشرية » ، ويكون تعقيب أستاذه هو أن « التقريب بين الأديان مما جاء به الدين الإسلامي: ﴿ قل : يا أهل الكتاب، تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ... الآية ﴾ » (1).

وإني لأستغرب ألا يكون عند محمد عبده ، وهو من هو في علمه واتصالاته السياسية والفكرية بكبار رجال العالم الإسلامي والأوربي ، من علم بالبهائية إلا هذا الذي ذكره ، مع أن هذه الحركة قد شغلت العالم كله ، والعالم الإسلامي بالذات ، في وقتها شغلانا عنيفا . فهل من المعقول بعد هذا كله أنه لم يكن قد سمع بأكاذيب البهاء وأتباعه عن ديانتهم الجديدة التي تنسخ جميع الأديان وعن حلول الله في نبيهم الكاذب ؟

على أية حال هذا ما استطعت أن أضع يدي عليه فيما يتعلق برأي محمد عبده في البهائية ، وهو منقول عن كتاب «تاريخ الأستاذ الإمام» للشيخ رشيد رضا على حسب ما توقعتُ وحسب ما ذكر لي د. عمارة في حديث هاتفي بيني وبينه. أما نقد محمد عبده لتلك النِّحْلة فلا أستطيع أن أتذكر أني قرأته أو قرأت عنه من قبل ، وقد ذكر لي

(1) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده / ط٢ / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت / ١٩٨٠م / ٣ / ٥٢٩ _ ٥٣٣ .

د. عمارة الشيء نفسه فى الحديث الهاتفى المذكور .

هذا ، ولجمعة رأى مباشر فى هذه النِّحْلة يجده القارئ فى بدايات تفسيره لسورة « البقرة » فى كتابه « نظرات عصرية فى القرآن الكريم » ، إذ وصفها بأنها الدين « الذى حَفِيَتْ فى سبيل نشره أقدامُ غُلاة الشيعة من الفرس وبقايا المجوس » (١). ولعله لهذا السبب قد تطرق الحوار فى رواية « عائدة » إلى الحديث عن المجوسية وعقائدها وألوان عبادتها ... إلخ (٢) .

وفى الأيام الأخيرة من عام ١٩٤٠م ذهب د. لطفى جمعة إلى الأراضى الحجازية لتأدية فريضة الحج . وقد سجل رحلته تلك فى كتاب ممتع بعنوان « الأيام المبرورة فى البقاع المقدسة » درس فيه حالة البلاد الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والسياسية وحلل مشاعره الدينية أدق تحليل ، وضمَّنه بعضا من ابتهالاته الحارة لربه سبحانه وتعالى فى مشاعر الحج المختلفة .

ويهمنى أن أقف من هذا الكتاب عند الموضوعات التى تعكس قوة

(١) نظرات عصرية فى القرآن الكريم / عالم الكتب / ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م / ٤٩ .

(٢) اصطدم جمعة بالبهائية منذ وقت جد مبكر من حياته ، إذ قابل أول وصوله إلى ليون سنة ١٩٠٨م ، عندما ذهب لدراسة الحقوق فى جامعتها ، طبيبا مصريا بهائيا أخبره بأنه فى بعثة دراسية على حساب أحد الأمراء ، وهو ما أدهش جمعة دهشة شديدة حتى خيِّل إليه أنه فى حلم (على حد تعبيره) . وقد حاول ذلك الطبيب أن يزين له الرذيلة بحجة أنها تقيه من بعض المتاعب الصحية ، مما جعل جمعة يصفه بـ « البهائى الملعون فى الأرض والسماء » . وقد سجّل جمعة هذه الواقعة فى كتاب له مخطوط عنوانه « تذكار الصبا » .

شعوره الدينى وحبه لرسوله وغيرته على مستقبل أمته ورغبته فى العمل على نهضتها وسعادته بالتطورات النافعة التى جدَّت فى بلاد الحجاز . يقول مثلا فى وصف أحاسيسه عند بدء تحرك الباخرة من ميناء السويس قاصدة جدّة ظهر الخميس ٢٦ ديسمبر ١٩٤٠م : « تذكرت أولادى الذين تركتهم فى عناية الله وخنقتنى عَبْرة طارئة ، ولكننى لم ألبث أن ذكرت ما ينتظرنى من الفرح لدى رؤية الكعبة والقرب من مستقر الرسول. هذا حلم حياتى العقلية وحياتى القلبية سوف يتحقق بعد خمسين ساعة، وقد امتلأتُ بعقيدة سعيدة ، وهى أننى ألبى دعوة الله وأجيب النداء وأطيع الأمر بالحضور إلى ضيافته ، فكيف أفكر فى أولاد أو بنات أو نساء أو رجال ؟ لن أنظر إلى الوراء أبدا بل إلى الأمام ، ولتكن نفسى مهيأة لكل ما ستعرضه العناية علىّ من مناظر الجلال والجمال » (١).

وأمام الكعبة المشرفة (يوم الجمعة ٣ يناير ١٩٤١م) ينطلق لسانه يناجى ربه قائلا : « اللهم حمدا وشكرا وثناء عليك لما أنعمت علىّ وتفضلت وتكرمت وأحسنت بإمتاعى بدخول بلدك وغشيان بيتك العتيق المعظم وسماحك لى على عصيانى وضعفى وخطئى وذنوبى بأن أصلى وأمرِّغ جبينى فى تراب بيتك . يارب ، لقد رأيتُ آيتك فسمعت نداءك ولبيت دعوتك فى وقت ما كنت أظن فيه أننى جدير بهذا العطاء الجزيل، فقد أعطيتنى كثيرا ولكنه قليل بالنسبة إلى كرمك . ولا غرابة ولا عجب أن تشمل المذنب بعفوك وأن تُسْدِل عليه أستار رحمتك .

(١) الأيام المبرورة / ٣٦ .

د. عمارة الشىء نفسه فى الحديث الهاتفى المذكور .

هذا ، ولجمعة رأى مباشر فى هذه النِّحْلة يجده القارئ فى بدايات تفسيره لسورة « البقرة » فى كتابه « نظرات عصرية فى القرآن الكريم » ، إذ وصفها بأنها الدين « الذى حَفِيَتْ فى سبيل نشره أقدامُ غُلاة الشيعة من الفرس وبقايا المجوس »[1]. ولعله لهذا السبب قد تطرق الحوار فى رواية « عائدة » إلى الحديث عن المجوسية وعقائدها وألوان عبادتها ... إلخ[2] .

وفى الأيام الأخيرة من عام ١٩٤٠م ذهب د. لطفى جمعة إلى الأراضى الحجازية لتأدية فريضة الحج . وقد سجل رحلته تلك فى كتاب ممتع بعنوان « الأيام المبرورة فى البقاع المقدسة » درس فيه حالة البلاد الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والسياسية وحلل مشاعره الدينية أدق تحليل ، وضمَّنه بعضا من ابتهالاته الحارة لربه سبحانه وتعالى فى مشاعر الحج المختلفة .

ويهمنى أن أقف من هذا الكتاب عند الموضوعات التى تعكس قوة

(١) نظرات عصرية فى القرآن الكريم / عالم الكتب / ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م / ٤٩ .

(٢) اصطدم جمعة بالبهائية منذ وقت جد مبكر من حياته ، إذ قابل أول وصوله إلى ليون سنة ١٩٠٨م ، عندما ذهب لدراسة الحقوق فى جامعتها ، طبيبا مصريا بهائيا أخبره بأنه فى بعثة دراسية على حساب أحد الأمراء ، وهو ما أدهش جمعة دهشة شديدة حتى خيِّل إليه أنه فى حلم (على حد تعبيره) . وقد حاول ذلك الطبيب أن يزين له الرذيلة بحجة أنها تقيه من بعض المتاعب الصحية ، مما جعل جمعة يصفه بـ « البهائى الملعون فى الأرض والسماء » . وقد سجّل جمعة هذه الواقعة فى كتاب له مخطوط عنوانه « تذكار الصبا » .

شعوره الدينى وحبه لرسوله وغيرته على مستقبل أمته ورغبته فى العمل على نهضتها وسعادته بالتطورات النافعة التى جدّت فى بلاد الحجاز . يقول مثلا فى وصف أحاسيسه عند بدء تحرك الباخرة من ميناء السويس قاصدة جدّة ظهر الخميس ٢٦ ديسمبر ١٩٤٠م : « تذكرت أولادى الذين تركتهم فى عناية الله وخنقتنى عبّرة طارئة ، ولكننى لم ألبث أن ذكرت ما ينتظرنى من الفرح لدى رؤية الكعبة والقرب من مستقر الرسول. هذا حلم حياتى العقلية وحياتى القلبية سوف يتحقق بعد خمسين ساعة، وقد امتلأت بعقيدة سعيدة ، وهى أننى ألبى دعوة الله وأجيب النداء وأطيع الأمر بالحضور إلى ضيافته ، فكيف أفكر فى أولاد أو بنات أو نساء أو رجال ؟ لن أنظر إلى الوراء أبدا بل إلى الأمام ، ولتكن نفسى مهيأة لكل ما ستعرضه العناية علىّ من مناظر الجلال والجمال »[1].

وأمام الكعبة المشرفة (يوم الجمعة ٣ يناير ١٩٤١م) ينطلق لسانه يناجى ربه قائلا : « اللهم حمدا وشكرا وثناء عليك لما أنعمت علىّ والصلات ونكرمت وأحسنت بإمتاعى بدخول بلدك وغشيان بيتك العتيق المعظم وسماحك لى على عصيانى وضعفى وخطئى وذنوبى بأن أصلى وأمرغ جبينى فى تراب بيتك . يارب ، لقد رأيتُ آيتك فسمعت نداءك ولبيت دعوتك فى وقت ما كنت أظن فيه أننى جدير بهذا العطاء الجزيل، فقد أعطيتنى كثيرا ولكنه قليل بالنسبة إلى كرمك . ولا غرابة ولا عجب أن تشمل المذنب بعفوك وأن تُسْدِل عليه أستار رحمتك .

(١) الأيام المبرورة / ٣٦ .

اللهم إن قلبى فارغ إلا من محبتك ، ورقبتى معتوقة إلا من الذل إليك والخضوع لك ، وعقلى غير مشغول إلا بك »[1] .

وومما دار بنفسه عند دخول المسجد الحرام الخواطر التالية التى تشع يقينا وانبهاراً بالبيت المعظم ، إذ يقول : « وعندما دخلتُ من باب السلام وقرأت آية القرآن وظهرت لى أنوار الكعبة وبدا لى بيت الله الحرام فى جلاله وجماله وبهجته وروعته نَسِيتُ كل شىء وسهوت عن كل شىء واجتمعت الدنيا والآخرة كلها فى هذا البناء الضخم الرقيق ، وخُيِّل إلىّ أننى أراه منذ الأزل وأستمتع به من قبل أن أُولَد ، وأننى ما زلت له مصاحبا فى طفولتى ورجولتى ، وأنى أراه فى صحوى وفى رقودى وفى أحلامى ، وأننى أراه فى كل وقت وفى كل مكان ، وأنه مستودع أسرار نفسى ، وأنه غلاف نفسى ، وأن نفسى وروحى تحيط به، وأن قلبى يتسع له اتساع عينى وبصرى، وأن الكعبة جزء منى ببنيانها ، وأننى جزء منها ، وأنها سرّ وجودى ووجود سرى ومطلع نور قلبى »[2] .

وعن مشاعره وهو يتأهب لطواف القدوم يقول : « نحن فى الساعة الثانية بعد نصف الليل . صِفْ هذه الساعة بما تشاء ! إنها لا تُحْسَب من العمر بل من الدهر . ليست ليلة الزفاف أسعد ليالى الحياة كما يزعم العوامّ بل هذه الليلة وهذه الساعة السعيدة بين كل الساعات .

(١) المرجع السابق / ٦٥ .
(٢) السابق / ٦٦ .

أحِبّ أن يقف فيها دولاب الزمن وأن تبقى فسيحة مديدة فى سكون . وهذه اللذة النادرة التى شعرت بها عند المواجهة لم أحلم بأن مثلها يكون قبل تذوقها ، وهذا التجلى الذى ملأ القلب فرحا ونورا . إنى أحملق ولا أستطيع إطباق الجفون ، وقلبى يخفق بما لم يسبق له مثيل ، يكاد ينفجر من الفرح أو ينشقّ من قوة الانفعال »[1] .

وفى وصف مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم نسمعه يقول : « هذه هى بداية الحرم المدنى . إنها أنوار حقيقية لا مجاز فيها ولا تشبيه. قليلا قليلا تبدو المدينة فيفعل منظرها فينا فعل السحر فتضىء قلوبنا وأعيننا ونشعر بأشعة من نوع جديد تخترق الجو فأفحص نفسى : هل تأثرت بحديث الناس ؟ هل هى أسطورة أم إيحاء نفسى ؟ هذا نور حقيقى حتى إن دموعنا التى تتساقط على خدودنا ، دموع الغبطة والفرح وتحقيق الأمانى الكامنة ، دموع الشوق المحزن والوجد المقيم المقْعِد، لا تَغْشَى الأبصار ولا تحجب عنها هاتيك الأنوار »[2] .

وعند دخوله المسجد النبوى تعتريه مشاعر موارة متضاربة يتداخل بعضها فى بعض : « ذهول يصحبه حضور بديهة ، وتنويم تلازمه يقظة ، وفرحة تملأ القلب ، وغبطة تملك النفس ، وشعور بعبودية وأمن ومعزّة، ودهشة لا يفيق منها العقل مع اطمئنان لا تشوبه مخافة ، وإحساس

(١) ص ٦٨ .
(٢) ص ١٩٣ .

بتحقيق أمل كبير لعله كان أعظم الآمال الروحية كأن الروح عادت إلى وطنها على باب الكعبة أوّلاً وأمام المقصورة المحمدية ثانيا ، واندفاع قوى نحو الاندماج ، ومحبة فياضة تملأ الجوانح ، وانسلاخ يكاد يكون تامّا عن الدنيا وما فيها وكأن ما أشهده من الأحياء والكائنات أشباح لا دخل لها فيما أحس به وأراه وأسمعه »[1].

وفى هذا الكتاب أيضا نراه يبرز ما ينقص المسلمين اليوم كى ينهضوا من عثارهم ، وهو العمل والجهاد والاهتمام بالإصلاح والتعليم والتضامن الاجتماعى ومناصرة الحرية ومقاومة الطغيان والتأسى بحياة الرسول وأخلاقه الكريمة وأمانته واستقامته وصدقه فى كل أحواله ، فهى خير هداية للحاكمين والمحكومين جميعا . كما مدح تطبيق السعودية لحدود الله وقضاءها بهذا التطبيق على ما كان منتشرا فى بلاد العرب من قطع الطريق وإيذاء الحجاج وسرقتهم بل وقتلهم فى أحيان كثيرة ، وقارن بين التشريعات العقابية فى الإسلام ونظائرها فى القوانين الوضعية مؤكّدا تفوّق الأولى على الثانية فى القضاء على أسباب الشر ، ثم ذكر أن القوانين البشرية فى دول الغرب أخذت تميل إلى الشدة فى الأخذ على أيدى المجرمين بدل تدليلهم بالادعاء بأنهم مرضى ينبغى علاجهم لا عقابهم[2].

ولا يمر جمعة بموقع من المواقع التى لها علاقة بسيرة الرسول

(١) ص ١٩٧ .

(٢) ارجع مثلا إلى نص خطبته أمام الملك عبد العزيز (ص ١٠٥ وما بعدها) وخطبته بدار الشيخ محمد سرور الصبان (ص ١١٤ ـ ١١٦) وما كتبه عن تنفيذ الحدود فى المملكة وسيادة الأمن فيها (ص ١٣٣ فصاعدا) .

وتاريخ الإسلام إلا ويقف أمامه مسترجعا الذكريات الجليلة المرتبطة به سواء كانت ذكريات روحية (كما هو الحال فى غار حراء مثلا) أو ذكريات عسكرية (كما هو الوضع بالنسبة لجبل أُحُد) .

كذلك تكثر المقارنات فى الكتاب : من مقارنات بين الإسلام من جهة واليهودية والمسيحية من جهة أخرى إلى مقارنات بين بعض المواقف الحاسمة فى تاريخ رسولنا عليه السلام ودينه العظيم وأشباهها فى حياة الأمم الأخرى ، وغير ذلك . وهذه إحدى الخصائص التى تميز كتابات محمد لطفى جمعة : فى التفسير والسيرة والرحلة الحجازية على الأقل.

ولنذكرنا بعض الملاحظات السابقة بأشياء تشبهها فى رحلة د. محمد حسين هيكل المسماة « فى منزل الوحى » ، غير أن مشاعر الدكتور هيكل فى كتابه ذاك ليست بهذا الالتهاب ، ولا تعبيره عنها بكل تلك العفوية التى نجدها فى أسلوب د. محمد لطفى جمعة . كذلك فإن هيكل كان حريصا لدرجة الوسوسة على أن يتجنب كل أنواع المناقشة والجدال منذ أن ركب الباخرة فى مصر ، إذ كان يردد دائما أنه « لا رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولا جدال فى الحج » ، أما جمعة فتكثر فى كتابه المجادلات العلمية وغير العلمية . كما أن تحليلاته المتعمقة لمشاعره الروحية هى مما يتميز به كتابه عن كتاب رصيفه . وبالمثل نجد كثيرا من الفكاهات والمداعبات والتهكمات التى لا يوجد مثلها فى كتاب هيكل والتى لا يخلو بعضها من غضب وسخط ، كسخطه على موظفى وعمال الباخرة التى أقلتهم إلى جدّة ، إذ كانوا يعاملون فقراء الحجّاج بغلظة واستهانة ولا يعطونهم كفايتهم من الطعام ، الذى كان رديئا رغم ذلك

ولا يصلح للآدميين ، وكتهكمه على بعض المطوِّفين وعلى السائق الذى حملهم من جدّة إلى مكة . لكن هناك كاتبا معاصرا لجمعة وهيكل زار الحجاز مثلما زاراها وكتب كتابا عن رحلته تلك ملأه بالفكاهات التى لا يُعَدّ ما بثّه جمعة منها فى كتابه شيئا بالقياس إليها ، وهو المرحوم إبراهيم عبد القادر المازنى .

وإلى جانب ذلك نجد كاتبنا يخصص بضع صفحات للحديث عن المستشرقين الذين زاروا الكعبة والتأثير العجيب الذى تركته فى نفوسهم سواء منهم من أسلم أو تظاهر بالإسلام واندس بين الحجيج كأنه واحد منهم بغية التجسس والكيد[1] ، وهذا مما ينفرد به جمعة . أما هيكل فلم يتحدث إلا عن سنْت جون فِلْبِى ، الذى أعلن دخوله فى الإسلام وعاش فى المملكة سنوات طوالاً كان فيها محل ريبة لدى الشيوخ المحيطين بالملك عبد العزيز . وقد زاره هيكل فى بيته بمكة وتكلم معه وذكر ما يقوم به من نشاط استكشافى غريب فى ربوع البلاد القفر المهجورة .

ومما يتميز به كتاب جمعة أيضا حملته الشديدة على أبى سفيان وتشكيكه فى إيمانه وإلصاق كل نقيصة به[2] ، وسوف ندرس هذه النقطة بتوسع عند تناولنا لكتابه « ثورة الإسلام وبطل الأنبياء » . وكذلك نجد مؤلفنا فى هذه الرحلة يتناول بعض ما أثاره المستشرقون عن

(١) ص ١٢٢ ـ ١٢٥ .

(٢) انظر ص ٨٣ وما بعدها .

النبى عليه السلام ويرد عليه ، وسنعالج هذه المسألة أيضا بتوسع فى الفصلين التاليين .

على أن فى « منزل الوحى » مباحث لا وجود لها عند جمعة ، إذ تخلّف هيكل رحمه الله بعد الحج وزار الطائف وغيرها من المواضع التى وطئتها أقدام النبى عليه السلام وقام ببعض الأبحاث الاستطلاعية فى صحبة بعض مثقفى المملكة وشبابها .

* * *

نظرات عصرية فى القرآن الكريم

لمحمد لطفى جمعة كتاب فى تفسير القرآن الكريم اسمه « نظرات عصرية فى القرآن الكريم » ألفه بين عامى ١٩٤٢م و ١٩٤٣م [١] ونشره ابنه الأستاذ رابح فى ١٩٩١م . ويبدو أن المؤلف رحمه الله لم يضع اسما خاصا للكتاب ، فقد ذكر الأستاذ رابح هذا التفسير فى ثَبَت مؤلفات أبيه المخطوطة فى الكتاب الذى ألفه عنه فى ١٩٧٥م باسم « تفسير القرآن الكريم »[٢]، على حين يشير إليه فى مقال قديم مكتوب بالمرقم باسم « مع القرآن الكريم » ، وفى مقال آخر مشابه باسم « فى رحاب القرآن » ، وهو نفس الاسم الذى استعمله الأستاذ عبد العزيز هيكل فى مقال له عن المؤلف عنوانه « إطلالة سريعة على حياة رائد لا يُعرف عنه إلا القليل »[٣].

والكتاب يقع فى نحو ٥٦٠ صفحة بفهرسه وبالمقدمتين الصغيرتين اللتين كتبهما فضيلة الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر السابق رحمه الله والأستاذ رابح لطفى جمعة . وهو يبدأ بفصل من ثلاثين صفحة عنوانه «فضل القرآن» يتلوه ما فتح الله به على المؤلف من

---

(١) ذكر ذلك الأستاذ رابح لطفى جمعة فى التقديم الذى كتبه لهذا التفسير (عالم الكتب / ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م / ١٢) .

(٢) انظر « محمد لطفى جمعة » / ١٩٢ . كما ذُكر فى آخر التفسير تاريخ الفراغ منه ، وهو العاشر من رجب ١٣٦١هـ الموافق للثالث عشر من يوليه ١٩٤٣م .

(٣) الأخبار / ٢٨ مايو ١٩٨٧م / ٤ .

تفسير لبعض الآيات القرآنية من كل سورة ، إذ إنه لم يتناول القرآن كله آيةً آيةً بل كان ينتقى من كل سورة عدداً من الآيات يتريث عندها تعليقا وتفسيرا وتحليلا ومناقشة وردّا على بعض الشُّبَه الاستشراقية .

وفى الفصل التمهيدى المسمى بـ « فضل القرآن » نرى المؤلف يهتم بالتعريف بالقرآن الكريم وتبيان أهميته لدى المسلمين والعناية التى لاقاها من كلٍّ من الدارسين المسلمين والغربيين على السواء ، كما يتعرض لمعنى الوحى وتاريخ نزول القرآن الكريم وجَمْعه والشبهات التى يثيرها المستشرقون فى هذا المجال كزعمهم أنه من صنع محمد ﷺ استقاه من مصادر يهودية ونصرانية وأن فيه أخطاء علمية وضعفا أسلوبيا فى سُوَره المكية . وفى هذه المقدمة تتجلى ثقافة لطفى جمعة الواسعة ومعرفته بالدراسات الاستشراقية ومقدرته الملحوظة على المقارنة بين القرآن الكريم والكتب المقدسة الأخرى وكتب الأدب العالمى ... إلخ . على أن هناك نقطتين أرى أنه ينبغى التوقف عندهما قليلا قبل أن أترك هذا الفصل : وهما الدليل الذى أورده المؤلف على إعجاز القرآن الكريم ولا أذكر أنه صادفنى عند مؤلِّفٍ غيره من قبل ، والصورة التى أعطاناها عن الوحى الإلهى .

فأما بالنسبة للمسألة الأولى فإنه يقول : « هناك دليل قاطع مانع حادّ كالنصل مصقول كالسيف ، وهو أنه ورد فى القرآن آيات كثيرة موزونة مع أن محمدا نفسه لم يكن يجيد الوزن . وقد ثبت فى العصر الحديث أن بعض العباقرة من كبار الكتاب بعد ممارسة جميع الفنون الأدبية من شعر ونثر يصلون فى ختام حياتهم إلى إنتاج نثر موزون بغير إرادتهم كما ظهر فى كتاب « ثورة الملائكة » (تأليف أناتول فرانس) ، الذى ظهر سنة ١٩١٥م قبل وفاته بتسع سنين وهو فى السبعين من عمره . وقد ثبت لدى النقاد أنه أتى بهذا النثر الموزون عَفْوا صَفْوا لا قصدا وابتغاء . فها نحن الآن أمام دليل فنى لا يقبل الرد ولا الريب ، لأن هذا النثر الموزون فى القرآن لا يقدر عليه محمد مع التسليم جدلا بأنه من أقدر الكتاب ومن أمهر صناع الأساليب ، فكيف به وهو أمى لم يمارس فنا من فنون الأدب ولم ينطق بكلمة شعرية ولم يخُطّ بيده حرفا طوال حياته ؟ فالنتيجة الحتمية لهذا الدليل أن معجزة القرآن إتيانه فى القرن السابع المسيحى بما أتت به خلاصة الحضارات الأوربية فى القرن العشرين بعد طوال الممارسة والنضج والاختمار على مدى عشرة قرون على الأقل »[1] . والواقع أننى ، مع احترامى لرأى المرحوم لطفى جمعة ولاعتزازه بتفرده بهذا البرهان ، لا أستطيع أن أرى فيه شيئا يلزم أعداء الإسلام ، إذ لا علاقة بين أمية إنسان وعجزه عن نظم الشعر . ألم يكن كثير من شعراء الجاهلية مثلا لا يستطيعون القراءة والكتابة ؟ فما بالنا إذا انحصرت المسألة فى مجىء بعض العبارات موزونة فى ثنايا كلام شخص ما ، وبخاصة إذا كان بليغا ؟ أما القول بأنه لم ينطق بكلمة شعرية طول حياته فيمكن لمن يريد أن يرد على ذلك بقوله : ولكنه كان

(١) ص ٣٣ .

يستمع إلى الشعر ويتذوقه ويثيب عليه ... وهكذا . ولن يفهم أحد من كلامى هذا بطبيعة الحال أننى أوافق أعداء الإسلام على ما يقولونه بشأن الوحى القرآنى . كل ما أريد أن أقوله أن سبيل البرهنة على إلهية المصدر القرآنى هو دراسة شخصية الرسول والظروف التى كانت تحيط به عند نزول الوحى وكيفية نزول ذلك الوحى عليه ، وهل يمكن أن يكون خارجا من عقل أو نفس بشرية والمقارنة بين أسلوبه وأسلوب الأحاديث النبوية المشرّفة [(١)] .

وأما المسألة الثانية فقد تطرق الحديث إليها عند ردّ المرحوم جمعة على من اتهموا القرآن بالنزول على حكم السجع فى بعض الأمور ومخالفة الصواب مِنْ ثَمّ كما فى تحديد حَمَلَة العرش بأنهم ثمانية ، فبعد أن تهكّم كاتبنا بأصحاب هذه التهمة وطالبهم بأن يبرزوا أية وثيقة عندهم تحدد عدد حَمَلَة العرش بأقل من ذلك أو أكثر منه أضاف قائلا إن « رقم ثمانية موضوع قصدا لا اعتباطا أو تبعا للسجع ، لأن العرش لا بد أن يكون ذا أربع أرجل ، فلا يمكن أن يكون حَمَلَةُ رِجْلٍ منه ثلاثة أو واحدا ، بل إنه تقسيم طبيعى وإحصاء منطقى لحملة العرش سواء أكان حقيقة أم مجازا ، لأن هذا العدد هو الذى يضمن توزيع الحمل

(١) لكاتب هذه الصفحات كتاب فى الردّ على شبهات الغربيين حول القرآن الكريم بعنوان « مصدر القرآن ـ دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى » (مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م) ، وهناك دراسة مطوّلة أخرى فى المقارنة بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث لم تُنْشَر بعد .

بالسواء على الحَمَلَة ، فضلا عن أن رقم ثمانية ذُكِر فى أماكن متعددة من القرآن الكريم »[(١)] . والسؤال هو : من قال إن عرش الرحمن له أرجل أصلاً ، فضلا عن أن يكون عددها أربعا أو أقل أو أكثر ؟ وما العمل لو أن أحد المعاندين قد رد على كاتبنا ، طيب الله ثراه ، متسائلا على سبيل التعنت : ما المانع أن تكون أرجل العرش ثلاثا مثلا ؟ وماذا فى أن يكون لكل رِجْل منها مَلَكٌ واحد يحملها أو ثلاثة ؟ لهذا كنت أودّ لو لم يُعِر لطفى جمعة هذه المسألة أى التفات ، إذ إنها من أمور الغيب التى لا نستطيع أن نخوض فيها ، علاوة على أن كثيرا من العقول الحديثة تُؤْثِر فى هذا الأمر وأشباهه التأويلَ كى يناسب جلال الله وعظمته ولامحدوديته . ولسوف نرى كاتبنا فى كثير من المعجزات يؤولها بما يُخْرِجها عن كونها أحداثا خارقة ، فكيف واتته نفسه على هذا ولم يفعل الشىء نفسه هنا مع أن التأويل فى المسألة التى بين أيدينا لا يصادم النص القرآنى بخلافه فى المعجزات ؟

ومن عادة لطفى جمعة فى بداية تفسيره لكل سورة أن يذكر مكية السورة أو مدنيتها وعدد آياتها .

وقد قلت آنفا إنه لم يتناول بالتفسير جميع الآيات من كل سورة بل بعضا منها فقط ، وهو ما نجده أيضا فى تفسير ابن تيمية وتفسير ابن قيم الجوزية وغيرهما ممن تعرضوا لتفسير القرآن المجيد ولكنهم لم يفسروه كله : فعلى سبيل المثال ليس للشيخ عبد القادر المغربى ، فى حدود

(١) ص ٣٣ ـ ٣٤ .

علمى ، إلا تفسير سورة « تبارك » ، ولم يفسر الشيخ رشيد رضا من القرآن إلا إلى سورة « يوسف » ثم مات دون أن يبلغ تمامه ، ولم يفسر الشيخ شلتوت ، نوّر الله قبره ، إلا الثلث الأول من القرآن الكريم ، ناهيك عن أنه فى هذا التفسير لم يتعرض لجميع آيات كل سورة بل كان يتناول موضوعاتها الرئيسية فقط . ولصاحب هذه السطور دراسة لبعض سور القرآن الكريم ركّزتُ فيها ، إلى جانب التفسير ، على النواحى الأسلوبية والفقهية والموضوعات التى تصلح للمقارنة مع الكتاب المقدس ... إلخ .

وكثير من القضايا التى تعرّض لها لطفى جمعة فى هذا الكتاب قضايا عصرية أو على الأقل متناولَة من زاوية عصرية ، وبعض هذه القضايا اجتماعى ، وبعضها اقتصادى ، وبعضها سياسى ، وبعضها علمى . بيْدَ أن فى الكتاب أيضا مسائل أخرى كثيرة لا علاقة لها بالعصر الحديث بحال ، ولم يزد المؤلف ، عليه رحمة الله ، على أن ردد فيها كلام علمائنا القدامى ، ومن هنا كان عنوان « نظرات عصرية فى القرآن الكريم » لا ينطبق تمام الانطباق عليه . ومع هذا فلا حرج على المؤلف ، لأن هذا العنوان ليس من وضعه كما سبق القول . خذ مثلا ما قاله فى تفسير « الزُمَر » أو « الدخان » أو « الجاثية » أو « محمد » أو « الفتح » أو « النجم » أو « القدر » أو « البينة » أو « العاديات » أو « العصر » أو « الهمَزة » أو « الكوثر » ، فليس فيه ما يخرج عن تلخيص ما فى كتب التفسير القديمة قيد أنملة . وهذه مجرد أمثلة ليس إلا .

ومن المسائل العصرية فى هذا التفسير المقارنة التى عقدها بين العقوبات الوضعية ونظيراتها فى القرآن الكريم ، والتى أكد فيها أفضلية الثانية على الأولى لما لها من أثر حاسم فعال فى حماية المجتمع من الجريمة وردع مرتكبيها وزجر من تسوّل لهم نفوسهم اقترافها . وقد أشار فى هذا السياق إلى التجربة السعودية التى ذكر أنها نجحت نجاحا منقطع النظير فى القضاء على الإجرام وحِفْظ الأمن واستتباب النظام بعد أن كانت أرض الحجاز مضرب الأمثال فى شناعة الجرائم . كما اتهم المستشرقين ومن يلفون لفّهم ممن يزعمون تأخّر الشريعة الإسلامية فى مجال العقوبات بأنهم مغرضون لا يُعوّل على رأيهم(١) . وتلك بلا شك من المسائل العصرية ، فمثل هذه المناقشة لا يمكن أن يقابلها الإنسان فى كتب التفسير القديمة لأنه لم يكن هناك ما يدعو إليها ، إذ كان المسلمون لا يعرفون إلا شريعة القرآن ، ولم يكن الاقتباس من شرائع الغرب وارداً ولا حتى مطروحا على بساط البحث بأى حال من الأحوال.

ومما لم يكن بمستطاع مفسرينا القدماء أيضا الخوص فيه مسألة الآثار الصحية الضارة التى تحدثها الخمر فى جسم مدمنيها ، إذ لم يكن الطب القديم قد تقدم إلى المدى الذى يستطيع معه اكتشاف هذه الأضرار(٢) ، وكذلك تحديد الفرعون الذى غرق أثناء مطاردته لبنى إسرائيل وكيف

---

(١) ص ١٤٢ ـ ١٤٣ .

(٢) ص ١٥٢ .

نجاه الله ببدنه حسبما ورد فى سورة « يونس » ، فقد ذكر المؤلف أن المقصود جثة رمسيس الثانى التى ظهرت بعد نزول القرآن بألف سنة[١] ، وذلك رغم عدم اطمئنانى إلى أنه هو رمسيس الثانى فعلاً ، لأن هذا كله ليس إلاّ فروضا أو تخمينات علمية لم يصل العلماء إلى رأى حاسم بشأنها ، وإن كان قد عاد فى موضع آخر فذكر بحثاً للأستاذ هلال فارحى فى « أهرام » ٢ يونيه ١٩٣٦م يشير إلى تاريخ مصرى قديم ورد فيه أن اسم الملك هو منفطة وأنه لم يغرق بل عاش بعد ذلك سنين كثيرة ومات بأحد الأمراض ووُجدت مومياه فى طيبة ... إلخ [٢]. ومن ذلك أيضاً إشارتــه المهمة (على قِصَرِها الشديد) فى هذه السورة أيضاً إلى ما حدث فى العصر الحديث من ابتلاع بعض الحيتان بشرا ثم نجاتهم بعد أن قُتِلت هذه الحيتان [٣]. وقد كانت هذه من الأمور التى حيرتنى ، إذ كنت أظن أن الحوت لا يبتلع الشخص إلا بعد أن يمضغه كما نمضغ الطعام فيتحول عن وضعه الأصلى تماماً حيث يصير بعد ذلك دماءً تجرى فى العروق وأنسجةً من أنسجة الجسم وطاقةً تمدّ الإنسان بالحياة والقوة ، إلى أن رجعتُ إلى « المنتخب فى تفسير القرآن الكريم » (الذى أصدره المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية) فوجدته يقول فى التعليق على قصة يونس مع الحوت : « إن ما حدث لسيدنا

(١) ص ٢١٠ ، وانظر أيضاً ص ٢١٢ .

(٢) ص ٣٣٥ .

(٣) ص ٢١٣ .

يونس عليه السلام معجزة ، وليس فى طبيعة الأشياء ما يمنع حدوث ابتلاع حوت رجلا وبقاءه حيا فى جوفه بعض الوقت [١]. وهناك احتمالان : أن يكون الحوت من غير ذوات الأسنان من الهِرْكَوْلات الضخام مثل الهِرْكَوْل العادىّ الذى يرتاد البحر الأبيض المتوسط ، وقد يبلغ طوله نحو عشرين متراً ، فبقى يونس فى فمه الهائل بين صفائح البالين المتدلية من سقفه إلى أن لفظه فى العراء ، لأن حلوق هذه الحيتان تضيق كثيرا عن ابتلاع رجل . الثانى أن يكون الحوت من ذوات الأسنان مثل حوت العنبر الذى يبلغ طوله نحو عشرين مترا أيضاً . وإن هذا الحوت شوهد مرارا فى البحر الأبيض المتوسط ، ويمكنه أن يبتلع فى العادة حيوانات ضخاما قد يتجاوز طولها ثلاثة أمتار » [٢] ، فعندئذ انجابت عن عقلى غاشية الفهم الخاطئ الذى سبَّب لى الحيرة والارتباك .

وفى تعليق مفكّرنا على قصة امرأة العزيز مع يوسف وانقلابها عليه وإدخالها إياه السجن بعد أن كانت مدلّهةً فى غرامه نراه يشير إلى أن من مباحث علم النفس الدقيقة « حالة المرأة الولهانة عندما تفشل فى خطتها وتحاول التماس العذر فتعترف بجريمتها ثم ينقلب الحب بغضا وانتقاما ،

(١) لا أدرى كيف ينسجم القول بأن ما حدث ليونس عليه السلام هو معجزة مع القول عقب ذلك بأنه ليس فى طبيعة الأشياء ما يمنع حدوث هذا .

(٢) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم باللغتين العربية والفرنسية / القاهرة / ١٤١٧هـ ١٩٩٧م / ٦٩٩ .

وهى حالة هيستيرية ومرض من أمراض العشق ظنه الناس حديثا وهو قديم جدا، وخصوصا فى الطبقات الغنية التى يفسدها المال والفراغ والانقطاع للشهوات » [(١)] . وأحسب أن لطفى جمعه لم يعتمد هنا على معارف علم النفس وحدها بل استند أيضاً إلى تجاربه العريضة فى الحياة فى مصر وخارجها وعلى علمه فى ميدان المحاماة والسياسة الدولية .

وبالنسبة للآيتين ٦٨ و ٦٩ من سورة « النحل » ، وهما الآيتان اللتان تتحدث عن النحل وفوائده ، يقول إنه « مما يستدعى الانتباه فى هاتين الآيتين حديث القرآن عن النحل بصيغة المؤنث : ﴿ أن اتخذى ... ثم كُلِى ... فاسلكى سبل ربك ... يخرج من بطونها ﴾ ، فقد أثبت العلم الحديث بعد نزول القرآن بأربعة عشر قرنا أن إناث النحل (الشغالات) فقط هى التى تشتار الرحيق من الزهور ويتحول فى بطونها إلى عسل ، أما الذكور فلا عمل لها إلا تلقيح الملكة . كما أثبت العلم الحديث فوائد عسل النحل وخصائصه العظيمة فى علاج كثير من الأمراض والجروح والحروق . وقد استُخْدِم العسل بنجاح وعلى نطاق واسع فى الحرب العالمية الثانية التى لا تزال رحاها دائرة (١٩٤٣م) لعلاج الجرحى والمرضى ، كما نجح استخدامه فى علاج الجروح الملوثة، مما يقطع بصدق الوحى المحمدى وأنه تنزيل من رب العالمين ، وإلا فمن كان يدرى قبل أربعة عشر قرنا أن إناث النحل هى التى تمتص

---

(١) ص ٢٤١ .

الرحيق وتحوّله إلى عسل وأن للعسل دورا فى علاج كثير من الأمراض؟ » [(١)] . ومثل ذلك ما قاله عند تفسير قوله تعالى فى الآية الحادية والأربعين من سورة « العنكبوت » : ﴿ ... كَمَثَلِ العنكبوت اتَّخَذَتْ بيتا ﴾ من أن القرآن الكريم قد تحدث عن هذه الحشرة بصيغة المؤنث ، وهو ما أثبته العلم بعد ذلك بأربعة عشر قرنا حين اكتشف أن أنثى العنكبوت هى التى تنسج الخيوط دون الذكور مما يدل على إعجاز الوحى المحمدى [(٢)] . بيْد أن لى تعليقا على تأكيده ، اعتمادا على حديث القرآن عن النحل والعنكبوت بضمير المؤنث ، أن القرآن الكريم قد ذكر أن التى تنتج العسل هى النحلات الإناث (الشغالات) لا الذكور وأن التى تنسج الخيوط هى إناث العناكب لا ذكورها. لقد قال د. مصطفى محمود مثل هذا عن العنكبوت ، إذ لاحظ أيضا أن القرآن قد استخدم لها ضمير المؤنث ، فاتخذ ذلك دليلا على الإعجاز العلمى للقرآن الكريم ، لأن العلم لم يكشف إلا مؤخرا أن أنثى العنكبوت هى التى تنسج البيت وليس الذكر ، فهبَّت د. بنت الشاطئ ترد عليه وتسفّه رأيه قائلة إن المبتدئين من طلاب العربية يعرفون « أن القرآن جرَى هنا على لغة العرب ، الذين أنثوا لفظ العنكبوت من قديم جاهليتهم الوثنية كما أنثوا مفرد النمل والنحل والدود ... ، وهو تأنيث لغوى لا علاقة له بالتأنيث البيولوجى كما وهم المفسر العصرى» [(٣)] . وقد ذكَرتْ ، فيما

---

(١) نظرات عصرية فى القرآن الكريم / ٢٦٣ .

(٢) ص ٣٤٢ .

(٣) تقصد الدكتور مصطفى محمود على سبيل التهكم .

ذَكَرَتُه ، قوله تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ﴾ [(١)] ، وهو جزء من أولى الآيتين اللتين نحن بصددهما الآن . والقول الفصل فى آيتَىْ سورة « النحل » أن القرآن لا يتحدث فيهما عن النحلة المفردة حتى يقال إنه جرى فى تأنيثها على دَيْدَن العرب بل عن جنس النحل بوجه عام ، وعلى ذلك فلا محل لملاحظة الدكتورة الفاضلة بنت الشاطئ هنا ، ولا محل كذلك لملاحظة الدكتور الفاضل محمد لطفى جمعة أيضا، إذ ما دام القرآن يتحدث عن النحل بوجه عام فمعنى ذلك أنه لا يقصد الإناث وحدهن بل الإناث والذكور جميعا، ومن ثم نراه يقول لها : ﴿ اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ ، واتخاذ البيوت على هذا النحو غير مقصور على الإناث دون الذكور كما هو معلوم . أما بالنسبة للعنكبوت فإن ملاحظة د. بنت الشاطئ غير دقيقة ، إذ « العنكبوت » تذكَّر وتؤنَّث ، وإن كان التأنيث هو الغالب ، أما إذا أريد استخدام كلمة واحدة لكل جنس فأمامنا عندئذ « عَنْكَب » للمذكر و « عنكبة » للمؤنث[(٢)] . وعلى هذا فمن الممكن جدا ، بل ربما كان هو الغالب على الظن ، أن القرآن الكريم قد أنث « العنكبوت » إرادة إلى لفت النظر للحقيقة التى لم تُعْرَف إلا بعد ذلك بأزمان طوال ، ألا وهى أن الأنثى هى التى تغزل الخيط وتبنى البيت ، وإن كان يمكن القول مع ذلك ، ولو على سبيل الجدال ، إن اتخاذ

(١) د. بنت الشاطئ / القرآن والتفسير العصرى / اقرأ (العدد ٣٣٥) / نوفمبر ١٩٧٠م / ٩٧ .

(٢) انظر مثلا « القاموس المحيط » للفيروزابادى و « محيط المحيط » للبستانى / مادة « ع ن ك ب » .

شخصٍ ما بيتا لا يعنى بالضرورة صُنْعَه إياه بنفسه ، فكثيرا ما يقول الواحد منا : « اتخذْتُ لى بيتا من الطوب أو الخشب » ، وهو يقصد أنه استأجر بنّاءً أو نجاراً لذلك لا أنه هو الذى بناه بيديه . لكن هذا ليس بالاعتراض المفحم لأنه صرّف للكلام عن ظاهره دون مسوغ وجيه.

كذلك يفسر جمعة الأثر الذى مارسه سحرة فرعون على الجمهور يوم الزينة ، حيث انقلبت حبالهم وعصيهم حياتٍ تسعى ، بأن ذلك لون من التنويم المغنطيسى ، « وهو أمر معروف يمارسه البعض فى علاج بعض الأمراض النفسية كما يمارسه بعض الحواة »[(١)]. ومن التفسير الذى استعان فيه أيضا بالمعارف العلمية العصرية قوله عن البرزخ الذى ذكر القرآن أنه يفصل بين البحرين فلا يبغى أحدهما على الآخر إن «هذا أمرٌ مشاهَدٌ عند التقاء بعض الأنهار العذبة كالنيل ببعض البحار الملحة فلا يمتزج الماءان لاختلاف كثافة الماء الحلو عن كثافة الماء الملح إلا قليلا جدا عند المصب ... وهنا نلاحظ أن القرآن يتحدث عن أحد القوانين الكونية (قانون كثافة المواد) ، وهو ما لم يكن معروفا من قبل وكشف عنه العلم الحديث »[(٢)]. وهذا هو الشائع فعلا بين المسلمين المعاصرين فى تفسير البرزخ والحِجْر المحجور المانع للبحرين من أن يبغى كل على صاحبه ، إلا أننى أحب أن ألفت النظر إلى أن ماء النهر مهما توغل بقوة اندفاعه إلى مدى بعيد فى داخل البحر أو المحيط فإنه يختلط فى النهاية بمائهما ، ومن ثم فظاهر الأمر أن النهر يبغى فى البداية على

(١) نظرات عصرية فى القرآن الكريم / ٢٩٦ .

(٢) ص ٣٢٠ ، وانظر كذلك ص ٤٢٩ .

البحر (عندما يشق ماء البحر ويحتفظ بحلاوته فيه) ليعود البحر فيبغى فى النهاية عليه (عندما يغلب ماؤه الملح ماء النهر العذب فيُفْقِده حلاوته ويعطيه ملوحته) ، فأين البرزخ إذن والحِجْر المحجور ؟ يبدو لى، والله أعلم ، أن البرزخ المذكور هو القوانين التى بمقتضاها يبقى كل من الماء العذب والماء الملح كما هو لا يتغير إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها : فالأنهار تصب فى البحار والمحيطات ، وكان المفروض لو أن الأمر انتهى عند هذا الحد أن يختلط الماءان اختلاطا دائما فلا ينفصلا بعد ذلك أبدا ويصبح كل الماء الموجود على سطح الأرض من ثم ماءً ملحاً . بيد أن التقدير الإلهى قد شاء أن يقوم البَحْر بحمل الماء من البحار والمحيطات فتسوقه الرياح ليسقط على الجبال وينحدر إلى الأنهار ماء عذبا كما كان ... وهكذا دواليك . وهكذا أيضا يبقى الماء العذب والماء الملح كما هما ، ويتعايش البحران دون أن يبغى أحدهما على الآخر ويقضى عليه . فهذا هو البرزخ ، وهذا هو الحجر المحجور ، والله أعلم[1] .

ومن الأمثلة على بروز أفكار العصر السياسية والاجتماعية فى تفسير جمعة تعليقه على الآية الرابعة والعشرين من سورة « الذاريات » التى تقول : ﴿ وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ بأنها « من أسس اشتراكية الإسلام نزل بها القرآن منذ أربعة عشر قرنا قبل أن تُعْرَف مذاهب الاشتراكية ودعوات التضامن الاجتماعى والتكافل والتعاون بين البشر

(١) نقلا عن كتابى « مصدر القرآن ـ دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى » / ٢٨٥ ـ ٢٨٧ بشيء من التصرف .

وغيرها من المذاهب الاجتماعية والاقتصادية التى تشغل العالم فى الوقت الحاضر . ويمكننى أن أجزم قاطعا بدون خوف من نقد أو تجريح لما أقول، بل يعضدنى فى رأيى كبار الفقهاء والمشرعين والمهتمين بالإصلاح الاجتماعى فى الشرق قاطبة ، أن دين الإسلام قد بُنِىَ على العدل والرحمة والإحسان والزكاة بل قرر حقوقا للفقراء لو قام الأغنياء بسدادها للمحتاجين والمعْوَزين طوعا أو كرها حسبما يوحيه إليهم القانون الإسلامى العام وتطور الأحوال الاقتصادية فى الشرق بل فى العالم كله لما بقى فى تلك البلاد ذاتِ الملايين المتعددة الآهلة بالسكان بل المكتظة بهم والمرزوقة بالثروات الطائلة أثر للفقر أو المرض أو الجهالة . وكل هذا الإصلاح يمكن استنباطه بصراحة قاطعة من نصوص القرآن والسنة ... فلا يعقل أن قوما عندهم هذه النصوص فى دينهم وقرآنهم يحتاجون إلى انتحال المذاهب المشاعية أو الاشتراكية أو ما فى حكمها »[1] .

وفى موضع آخر من التفسير نقرأ هذه الكلمات النبيلة التى يقول فيها : « المشاهَد فى العصر الحديث أن كثيرا من المسلمين يضنّون ضنّا ذميما بالصدقات ويحبون المال حُبًا جَمًا ويبغضون الصدقة الفردية زعما منهم أن الاستجداء مهنة انتحلها الكسالى والعاطلون . وقامت أدلة على صدق بعضهم ، ولكن إن صح فلا يمنع أوامر الله . وحجتهم كالتى كان يقيمها البخلاء فى العرب : « لو شاء الله لأعطاهم رزقهم

(١) ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ .

وأطعمهم ». وهذه حجة آفنة ، ويجوز التحرى عن حالة الأفراد حتى توضع الصدقة فى موضعها . وقد تبارى أهل الملل الأخرى فى الإحسان إلى ذويهم وغير ذويهم واتبعوا تنظيم الإحسان بجمعيات ومعاهد ، وفى بعض بلاد الإسلام اتُّخذَتْ هذه الجمعيات مصايد للمال ووسائل للسلب والنهب . وفى ممالك أوربا ملاجئ ومستشفيات ومعاهد ومدارس ومصحات للمُعْوَزين ومعونات وتعاون منوعة ، وقد تصلَّبت القلوب وتجمدت العواطف فى مصر أثناء الحرب العالمية فاستشرت الكُدْيَة واتسع نطاق السؤال . ولا وجه للاعتراض أو سوء الظن بالمساكين وقد بلغ الضنك أشد مبلغ ووصل الضيق إلى أقصى درجاته ، وما يزال الإحسان تصحبه المفاخرة والمباهاة والتماس الشهرة . وبالجملة فإن المسلمين ، وهم أجدر الأمم بالتوسع فى الصدقة ، قد أمْسَوْا أبعد الأمم عنها لانتشار الأنانية وحب المال وضعف الإيمان وجهلاً بواجب الإنسانية . وقد شارف مليون من الناس فى مقاطعتَىْ قنا وأسوان على التلف والهلاك جوعا وإعياء ، وقد أدركت العناية الإلهية بعضهم وهم فى الرمق الأخير فيما يسيل الذهب أنهارا فى سائر أنحاء القطر المصرى (١٩٤٣م – ١٩٤٤م) »[١] .

وهذا كلام يؤكد ما قلناه فى الفصل السابق من أن جمعة ذو منزع اشتراكى أصيل وأن هذا المنزع الاشتراكى يقوم على روح الإسلام

(١) ص ٤٨ .

ومهادئه . ومما له دلالته أن بعض العبارات الموجودة فى أول هذين النصين قد تكررت فى الاقتباسات التى استشهدنا له بها من قبل .

وعند تفسيره للآية ٣٣ من سورة « الرحمن » نجده يعقب قائلاً ، عن السلطان الوارد ذكره فيها والذى يؤكد القرآن الكريم أنه هو الوسيلة الوحيدة التى لا يستطيع الإنس والجن أن ينفذوا من أقطار السماوات والأرض إلا بها ، إن « المقصود بذلك سلطان العلم . وهذا الأمر مشاهد فى عصرنا الحاضر عن طريق رصد الأجرام السماوية بالمناظير المكبرة والبحث فى باطن الأرض وجوف الفضاء بآلات البحث والتصوير . وربما اخترع الإنسان آلات أو مركبات يشق بها أجواز الفضاء ويسافر عليها إلى الأقمار والكواكب وينفذ بها من أقطار السماوات والأرض »[١] . وهو حديث يشبه النبوءة ، وقد يكون جمعة قرأه فى بعض المجلات العلمية الغربية أو قد يكون خياله هو الذى أوحى إليه به . وأيا ما يكن الأمر فهو دليل على تأثره بثقافة العصر الحديث فى تفسيره للقرآن المجيد. ومثل ذلك إشارته ، عند تفسير قوله تعالى من نفس السورة : ﴿ يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم ﴾ ، إلى آراء العالم الإيطالى لومبروزو التى تقوم على أن مظاهر المجرمين الخِلْقِيّة تدل على طبيعتهم الإجرامية من مثل عدم التناسب فى شكل الجمجمة أو صغر الرأس على نحو غير عادى أو زيادة الأطراف ... إلى آخر الشذوذات والتشوهات الخِلْقِيّة التى توجد فى المجرمين

(١) ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩ .

عادة ، وخاصة فى رؤوسهم وأقدامهم [١] . وهذا الكلام هو من صميم ثقافة لطفى جمعة القانونية ، فليس غريبا أن يظهر فى تفسيره لكتاب الله .

ولا يفوته ، عند وصوله إلى الآية العاشرة من سورة « الممتحنة » التى تطلب من مسلمى المدينة امتحان إيمان من يأتينهم من نساء الكفار طالباتِ اللجوء إليهم ، أن يقرر أن « القرآن فى آية البيْعَة هو أول كتاب سماوى ينص على أحد الحقوق السياسية للمرأة ، وهو أخذ العهد والميثاق بين الراعى والرعية أو الحاكم والمحكوم . وقد تطور هذا الحق فى العصر الحديث فاتخذ صورة حق الانتخاب والتصويت فى النظم الديمقراطية المعاصرة . وقد سوّى الإسلام فى مبدإ البيعة بين الرجال والنساء ومشاركة المرأة فى الحياة العامة سواء أكانت اجتماعية أو سياسية فى حدود ونطاق ما أمر الله به سبحانه وتعالى . وهكذا سبق الإسلام النظم الديمقراطية إلى إقرار مبدإ البيعة »[٢] . وواضح من هذا النص كيف كان د. جمعة من أنصار المرأة الداعين إلى تنويلها كل حقوقها أسوة بالرجال . وهو فى هذا يجرى على سُنَّة الإسلام ورسوله ، فقد كان النبى محمد عليه السلام يعطف عليها ويكْرِمها ويُكَرِّمها ويدعو إلى الرفق بها والصبر عليها . كما قرر لها حقوقا عجيبة لم تكن تخطر على بال أحد فى العالم ، وأكد أن إحسان أبيها لتربيتها فى طفولتها إلى

(١) ص ٤٣٠ .

(٢) ص ٤٤٣ .

إلى أن تتزوج هو خير ضمان له لدخول الجنة ، بل لقد جعل الجنة تحت قدميها عندما تصبح أُمّا .

على أنه لا بد لنا أن ننبه إلى موقف الدكتور لطفى جمعة من نظرية داروين ، فقد يظن بعض من يقرأ ما قلناه عن بروز الثقافة العصرية، وبخاصة الجانب المتصل بالعلوم الطبيعية واكتشافاتها فى العصر الحديث، فى تفسيره للقرآن الكريم أن جمعة كان يردد كل ما يقوله العلماء الغربيون ، وبخاصة فيما يتعلق بمبدإ التطور الذى يُعَدّ من أسس الفكر العلمى الحديث . لكن الواقع أنه كان يرفض ما يقوله داروين من أن الإنسان قد تطور عن قرد ، فقد رأى كاتبنا أن ذلك يناقض قوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان ، ما غرَّك بربك الكريم * الذى خلقك فسواك فعدلك؟ * فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾[١]، إذ « لا يُعْقَل أن تكون هذه الصورة السوية المعتدلة متطورة عن القرد ، وقد كرم الله سبحانه بنى آدم بصريح النص القرآنى وفضلهم على كثير مما خلق تفضيلا » ، فضلاً عن أنه قد ذُكِر فى سورة « التين والزيتون » أنه سبحانه خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، « أى فى أحسن صورة وشكل منتصبَ القامة وسوىّ الأعضاء وحسَن الجوارح والأطراف » . ثم أين الحلقة التى تصل القرد بالإنسان ؟ إن هذا وحده كاف للقول بفساد النظرية وبطلانها كما قال[٢] .

(١) الانفطار / ٦ ــ ٨ .

(٢) ص ٤٩٠ ــ ٤٩١ .

ولكن فى نفس الوقت نجد لمفسرنا موقفا يتعارض ، فيما نرى ، مع ما تقرره آيات القرآن من معجزات انطلاقا من النزعة العلمية المسرفة التى تؤوّل هذه المعجزات بما يخرجها عن إعجازيتها ويُخْضِعها للقانون الطبيعى المطرد .

فمن ذلك مثلا نَفْيُه أن يكون فتية الكهف المؤمنون قد بَقُوا أحياء داخل الكهف رقوداً ثلاثمائة سنة وتسعا ، إذ يرى أن المقصود هو بقاء جثثهم بعد البناء عليها هذه السنين ، وأن البناء إنما أقيم عليهم وهم نيام ظنّا من الملك الذى أمر بالبناء أنهم يشعرون بما يُصْنَع بهم مع أن الحقيقة غير هذا [1] . والحق أن آيات سورة « الكهف » لا يستقيم لها تفسير على هذا النحو ، فهى تقول بصريح العبارة إنهم كانوا رقوداً على حين أن من قد يراهم يحسبهم أيقاظاً ، وإن الله كان يقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال بينما تتزاور الشمس عن كهفهم حين طلوعها يَمْنَةً ويَسْرَة ، وإنهم ظلوا هكذا حتى بعثهم الله من مرقدهم فأرسلوا أحدهم ليشترى طعاماً من المدينة ، فعندئذ عرف الناس أمرهم . ثم يعقّب القرآن بأنهم لبثوا (لبثوا هم أنفسهم لا جثثهم) ثلاثمائةٍ سنين وازدادوا تسعا . كما نص القرآن أيضا صراحة على أن بَعْثَهم من رقدتهم هو دليلٌ أو على الأقل شاهدٌ على بعث الآخرة . فكيف يقول المرحوم جمعة ما قال ؟

---

(١) ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

وفى قصة سليمان الموجودة فى سورة « الأنبياء » وتسخير الله الشياطين لخدمته يؤكد جمعة أنهم لم يكونوا شياطين على الحقيقة بل رجالاً أقوياء شُبِّهوا بالشياطين لمهارتهم [1] ، وهو نفس ما ذكره عند تناوله هذه القصة أيضا فى سورة « النمل » ، إذ قال عن جنود سليمان من الجن والطير إن مدار الأمر هنا على الرمز ، وإن المراد بالجن « رجال مهرة صناع » [2] . ولست أفهم كيف يتواءم هذا مع إيمانه المطلق بالجن وبأنهم استمعوا إلى رسولنا وهو يتلو القرآن أو مع إنكاره على من ينفون وجودهم من المفسرين المحدثين مؤولين من استمعوا إلى القرآن منهم بأنهم رجال أجانب عن الجزيرة العربية [3] . كما لا أدرى كيف يستقيم ذلك فى ضوء ما يقوله القرآن الكريم عن سليمان بأنه كان له جنود من الإنس والجن [4] بما يدل على أن هؤلاء غير أولئك . ثم لو كان المقصود بالشياطين هنا جماعة من البشر لوضّح القرآن ذلك جريا على طريقته فى إطلاق هذه التسمية حين يكون الكلام عن الجن وتخصيصها بالإضافة إلى الإنس (هكذا : « شياطين الإنس ») عندما يكون المراد ناساً من البشر .

---

(١) ص ٢٩٨ .

(٢) ص ٣٢٦ ، وانظر ص ٣٦١ أيضا .

(٣) انظر ص ٢٦٤ ، ٤٧٣ . وأغلب الظن أن المقصود هنا هم مفسّرو الأحمدية . وقد كان فى مصر من يؤول الجن والشياطين بهذه الطريقة فى تلك الفترة أو قبلها بقليل . انظر د. محمد حسين الذهبى / التفسير والمفسرون / دار الكتب الحديثة/ ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م/ ٣ / ١٩٧ ـ ١٩٨ ، ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .

(٤) بنص الآية ١٤ من سورة « النمل » .

وعلى نفس الشاكلة يؤول الطير والهدهد والنمل فى هذه القصة أيضا تأويلا رمزيا فيقول إن « الطير طرق مواصلات استثنائية وجواسيس ينشرهم (سليمان) فى البلاد[1] ، وربما كان الهدهد أحدهم أو أحد الأمراء ». ولكى يدلل على صحة ما ذهب إليه يذكر أنه « كان فى بلاد اليمن ملك اسمه هدهد لعله اتفق مع سليمان على عرش بلقيس انتقاما أو بالأجر ، أى كان طابوراً خامسا ضد بلقيس » . أما وادى النمل الذى مرّ به سليمان عليه السلام وجنوده وتكلمت إحدى نِمَاله محذرة قومها من البقاء خارج مساكنهم حتى لا يحطمهم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فيقول إنه « مكان آهل بالسكان مر به جيش سليمان ، وإنه سمع امرأة منهم تتكلم ، إذ ثبت بالعلم أنه ليس للحيوان لغة فضلا عن أن يكون للحشرات لغة ، وإن كانت تتفاهم بالغريزة الحيوانية المحضة ولها أنظمة خاصة فى بيوتها وادخارها كما هو للنحل »[2]. والواقع أن من الصعوبة بمكان موافقة المرحوم لطفى جمعة على مثل هذا التأويل ، إذ لو كان وادى النمل ، كما قال ، علَماً على مكان آهل بالبشر فلماذا أطلق القرآن على المتحدثة اسم « نملة » وجعلها تقول لقومها : ﴿ يا أيها النمل ﴾ ؟ ثم لماذا تقول لهم : ﴿ لا يَحْطِمنّكم سليمانُ وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ إلا أن يكون هؤلاء القوم نملاً فعلاً ؟ ذلك أننا كثيرا ما ندوس ونحن سائرون على ما لا يُحْصَى من النمل ونقتله دون أن نشعر

(١) وانظر أيضا ص ٣٦٠ حيث يكرر هذا الكلام .

(٢) ص ٣٢٦ .

بما اجترحناه . كذلك فمن العجيب أن ينكر المرحوم جمعة وجود لغة للحيوانات ، فكيف إذن تتفاهم فيما بينها ؟ إنه يجيب بأن ذلك يتم بالغريزة الحيوانية المحضة وبأن لها أنظمة خاصة ... إلخ . فليكن ، فهذه هى لغتها ، وقد فَهّمها الله لنبيه سليمان ، وهو ما تنص عليه الآية ١٦ من سورة « النمل » حين تقول على لسانه عليه السلام إقرارا بنعمة الله عليه : ﴿ يا أيها الناس ، عُلِّمْنا منْطِقَ الطير ﴾ [1]. وبالنسبة للطير من جنود سليمان فإنه لا يُعْقَل ، لو أنهم كانوا بشرا من البشر ، أن يفردهم الله عن جنوده من الإنس (هكذا : ﴿ وحُشِر لسليمان جنودُه من الإنس والجن والطير ﴾) ، ومن ثم فإن الهدهد هو ذلك الطائر المعروف لا مَلِكٌ يمنىّ استخدمه سليمان للإطاحة ببلقيس . ويؤيد ما نذهب إليه أنَّ هذا الهدهد يقول عن بلقيس وقومها : ﴿ إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ﴾ بما يدل على أن هذه المعلومات كانت بالنسبة للهدهد شيئا جديدا وأن هؤلاء القوم لم يكن له بهم من قَبْلُ علْم ، وهو ما لا يتسق مع كونه ملكا يمنيا يزاحم بلقيس على الملك ويعمل على إسقاطها من فوق عرشها .

(١) انظر مثلاً ما كتبه المرحوم عبد الرازق نوفل عن لغة الحيوان والطيور والحشرات بمناسبة ما ذكره القرآن الكريم فى الآية التى نحن بصددها عن فهم سليمان حديثَ النملة لزميلاتها ، وذلك فى كتابه « الله والعلم الحديث » (سلسلة « مكتبة الأسرة » / ١٩٩٨م / ١٢٣ ـ ١٢٨) .

ويمضى جمعة على ذات الوتيرة فيقول إن تأويب الجبال مع داود عليه السلام ليس معناه « الترجيع والتسبيح بالصوت المادى » وإنما للتقريب للعقل أن حمده لله كان بإخلاص شديد وقوة حتى كأنه ينقل الجبال أو ينْطِقها أو أن أعوانه فى القوة كالجبال »(١).

أما إسراء نبينا محمد إلى بيت المقدس ، وهو من معجزاته ﷺ ، فمن الصعب أن يعرف القارئ على وجه التحديد كيف كان الدكتور محمد لطفى جمعة يفهمه . وهـذا ما قالـه فى ذلك الموضـوع بنصّه وفصّه: « الإسراء كان حقيقة مادية بقطع النظر عن انتقال النبى بجسمه أو لا ، فالحق أنه انتقل فعلا ورأى ما رأى ووصفه للناس . فالإسراء رؤية عين رآها النبى . وهناك بعض الأقوال الأخرى مثل : « فى ليلة أخرى فيما يرى قلبه ولا تنام عينه ولا ينام قلبه » ، « واستيقظ وهو فى المسجد الحرام » ، « بينما أنا بين النائم واليقظان » . والحقيقة أن النبى لم يكن نائمـا أى أنه لم يكن فى رؤيا نائم بل رؤية عين . والأغلب أنه رأى بعين روحه وسمع بأذن روحه ، وإن لم يكن إسراؤه ومعراجه بالبدن مستحيلا ولا معجزا لله . وقالت عائشة (ض) : « ما فُقِد جسد النبى ﷺ ولكن أُسْرِى بروحه » . والأكثرون على أنه أُسرِى بجسده فى اليقظة، ولكن يقوم ضد أقوال الكثرة نص القرآن نفسه : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾ بما نشأ عنها من التصديق والتكذيب حتى من

(١) ص ٣٦٠ .

[illegible] النبى ، ولم يصدّق مباشرة كل ما قاله الرسول فى هذه المسألة إلا أبو بكر الصديق ، ولذا سُمّىَ الصدّيق من يومـها »(١). وواضح مـا فى الكلام من تناقض وعدم ثبات على رأى محدد .

ومن قَبْلُ أوّلَ مفسرو القاديانية « الشياطين » الذين سخرهم الله لسليمان عليه السلام بأنهم القبائل الجبلية المتوحشة الذين أخضعهم هذا النبى الكريم لسلطانه واستخدمهم فى أشغاله ، ومن ثم فليس « العفريت من الجن » المذكور فى سورة «النمل» إلا رجلا بارعا قويا حاد الذكاء . كما أوّلوا « الطير » فى نفس السورة بأنها الخيّالة ، و « الهدهد » بأنه ضابط فى جيش سليمان عليه السلام ، و « وادى النمل » بأنه مكان فى جزيرة العرب يسكنه ناس من البشر هم المقصودون بالنمل فى الآية الكريمة التى مرت الإشارة إليها ، و « الجبال » اللائى ذكر القرآن فى مواضع أخرى أنهن كن يسبّحن مع داود بأنهن سكان هذه الجبال لا الجبال أنفسهن، ومعنى تسخيرهن إخضاع هؤلاء السكان لسلطانه (٢).

(١) ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

(2) Maulvi Muhammad Ali , The Holy Qur'ân (Translation & Commentary), The Islamic Review Office, Surry, 1917, pp. 744 - 747 (notes 1846 - 1848), 838 (note 2027) and 885 (note 2143) ; and Malik Ghulâm Farîd, The Holy Qur'ân (Translation & Commentary), The London Mosque, 1981, pp. 763 (note 1908), 819 (note 2154), 820 (notes 2156, 2159), 824 (note 2172) and 983 (note 2534) .

وفى حوار هاتفى بينى وبين الأستاذ رابح لطفى جمعة حول هذا المنحى التأويلى فى التفسير الذى بين أيدينا أفضيت إليه بما دار فى ذهنى من أن لطفى جمعة قد تأثر فيما يبدو بطريقة مولاى محمد على الأحمدى فى ترجمته التفسيرية للقرآن الكريم فأبدى دهشته من معرفتى بهذا ، فأجبته بأنى مُلِمّ بالتفسيرات القاديانية وأعرف ما قالوه فى مسألة المعجزات وأنى لاحظت فى الوقت نفسه أن والده كثير الإشارة فى تفسيره إلى الترجمات القرآنية بالإنجليزية والفرنسية والألمانية فقام فى ذهنى أنه لا بد أن يكون قد اطلع على ترجمة محمد على . كما أخبرنى أنه كان عند الوالد هذه الترجمة الأخيرة وأن والده كان يكتب على هوامشها ما يعنّ له من ملاحظات وأنها كانت مطبوعة على ورق بَفْرَة ، فقلت له : إنها نفس الطبعة التى عندى . هذا ، وقد عرض فضيلة الدكتور محمد حسين الذهبى فى دراسته عن التفسير والمفسرين لكتاب فى التفسير ظهر فى أول الثلاثينات من هذا القرن ، أى قبل أن يؤلف لطفى جمعة تفسيره بسنوات قلائل ، اسمه « الهداية والعرفان فى تفسير القرآن بالقرآن » يجرى فى معجزات الأنبياء على التأويل [١] . وقد لاحظت أنه يقول فى الطير والهدهد وعفريت الجن فى قصة سليمان أشياء مشابهة لما يقوله الأحمديون .

وتبقى معجزة ولادة مريم لعيسى دون أن يَمَسَّها بَشَر ، وقد سماها

(١) انظر د. الذهبى / التفسير والمفسرون / ٣ / ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ _ ٢٠٥ .

لطفى جمعة بـ « المعجزة الكبرى » قائلاً : « ونحن على الرغم من كل ما قدّمه العلماء الملحدون والمتعللون بقوانين الطبيعة وفى ضوء العلم الصحيح نقرر أن عيسى وُلِد بغير زواج سابق وبغير صلة جنسية ، وإن لم يرِدْ نص فى القرآن مباشرة بأنه ليس له والد »[١] . ونحن معه فيما يقول إلا فى النقطة الأخيرة ، إذ قد ذكر القرآن الكريم دهشة مريم الشديدة وقولها حين بُشِّرَتْ بأنها ستحمل وتلد غلاماً : ﴿ أنّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بَشَر ولم أكُ بَغِيًا ؟ ﴾ [٢] . فهل هناك أدل من هذا على أن القرآن قد ذكر أن عيسى لم يكن له أب ؟ على أنْ ليس هذا هو المهم فى المسألة، بل المهم هو قوله بعد ذلك بقليل : « أما كيف وُلِد عيسى فهذا سرّ قد يعلمه البعض علم اليقين ولكن لا يملكون التصريح به إلا فى مقام معلوم »[٣]، وهو نفسه ما ألمح إليه فى تعليقه على آيات سورة « مريم » التى تحكى القصة ، إذ قال : « وأما الراسخون فى العلم الروحانى والمفتوح عليهم من الله فلهم آراء أخرى من المعرفة المباشرة ، ولا لزوم لذكر هذا أو التلميح إليه»[٤]. فمن هم أولئك البعض الذين وصفهم بالراسخين فى العلم الروحانى وقال إنهم يعلمون سر الكيفية التى ولد بها عيسى علم اليقين ؟ وما السبب يا ترى الذى جعلهم

(١) نظرات عصرية فى القرآن الكريم / ١٠٩ _ ١١٠ .
(٢) مريم / ٢٠ . وقد ورد هذا الكلام فى الآية ٤٤ من « آل عمران » مع بعض الاختلاف الطفيف .
(٣) نظرات عصرية / ١١٠ .
(٤) ص ٢٩١ .

لا يستطيعون التصريح بذلك أو علـى الأقل جعل التصريح به أو التلميح إليه لا لزوم له ؟ بل لماذا هذا الكلام أصلا مادام غير ذى جدوى ؟ ترى أيقصد جمعة نفسه هنا ؟ لكنه قد صرح فى المعجزات برأيه الذى يخالف به ما تقوله جماهير المسلمين ولم يبال ، فما الذى جعله يحجم عن التصريح برأيه فى هذه القضية أو على الأقل عن التلميح بها ؟

وما دمنا فى الكلام عن عيسى فلا بد من الإيماء إلى أن موقف الدكتور لطفى جمعة من المعجزات التى ذكر القرآن وقوعها منه عليه السلام هو موقف من يصدقها كما جاءت فى القرآن الكريم دون تأويل، اللهم إلا حديثه فى المهد . فهو يؤمن بمعجزة خلق الطير وإحياء الموتى وشفاء الأبرص والأكمه مُرْجِعاً إياها إلى قوة المسيح الروحية . وهو يسارع إلى التعقيب بأن هذا لا يستلزم أن يكون (كما يقول النصارى عنه) ابن الله بدليل أن العلم الحديث أثبت قوة العلاج الروحى والطب النفسانى وأن معجزات الشفاء تتم للمرضى فى مدينة لورد بفرنسا فى شهر أغسطس من كل عام وأنه كان فى النمسا طبيب روحانى يلْمِس المرضى بعصاً فيها تيار كهربائى وأن « هذه المعجزات التى يمنحها الله لبعض عبيده بدون تمييز فى الجنس والنوع والزمن كانت مما تحلّى به عيسى عليه السلام »[1]. لكن تفسير المعجزات العيسوية بهذه الطريقة جدير بأن يفرغها من مضمونها مادامت غير خاصة به كنبىٍّ ومادام من

(١) ص ١١٠ ، وانظر ص ١٥٦ أيضاً .

الممكن وقوعها على أيدى ناس من أى دين وبغض النظر عن فساد دينهم أو صحته .

أما كلام عيسى فى المهد فلا يعنى عنده أنه كان رضيعا بل معناه أن متَّهِمى أمه بالزنا كانوا يتساءلون متهكمين : « كيف نكلم من عرفناه طفلا ؟ » ، وذلك « مثل اعتراض قريش على نبوة محمد لأنهم عرفوه بينهم مع أن بعثته بعد الأربعين. وعلى العموم كل إنسان لا يُقْنِع أهل بلده وأهل قومه وأهل عصره إلا نادرا لأن المعاصرة حجاب »[1]. وهو تفسير يصعب علينا جدا جدا قبوله ، إذ التمحل واضح تمام الوضوح فى تفسيره هذا لقوله تعالى عن مريم وابنها ومتَّهِميها : ﴿ فأتت به قومها تحمله (أى تحمل عيسى وهو طفل رضيع لا يزال لأنها كانت قد وضعته قبل ذلك بقليل). قالوا : يا مريم ، لقد جئت شيئا فريًّا * يا أخت هارون ، ما كان أبوك امرأ سَوْءٍ ، وما كانت أمك بغيًّا * فأشارت إليه . قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟ * قال : إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ... إلخ ﴾ [2]. أيا ما يكن الأمر فالواضح أنه يقبل معجزات المسيح إلا كلامه فى المهد ، فما السر يا ترى فى هذه التفرقة ؟ يبدو لى أن الأمر عنده فى تلك المعجزات الأخرى هو مجرد قوة روحانية يمكن أن تتوفر لأى شخص نبيًّا كان أو لم يكن ، أما الكلام

(١) ص ٢٩٠ .

(٢) مريم / ٢٧ ـ ٣٠ .

فى المهد فهو أمر مستحيل عنده ككلام النمل والهدهد وتسبيح الجبال وتسخير الشياطين فى أعمال الغوص والبناء لأنه مما يخالف قوانين الطبيعة التى نعرفها من حولنا ، وهذا فى أغلب الظن راجع إلى تحكيمه النظرة العلمية الحديثة فى كل أمور الكون حتى ما كان خارجاً بطبيعته عن حتمية القوانين الطبيعية مثل الوحى ومعجزات الأنبياء . وبالمناسبة فالقاديانيون أيضا قد قالوا ما قاله لطفى جمعة تقريبا عن كلام عيسى فى المهد [1]، كما أن صاحب « الهداية والعرفان فى تفسير القرآن بالقرآن » قد أوّل هذه الآية بما يخرجها عن إعجازيتها وبطريقة لا تختلف كثيرا عن طريقة جمعة[2] .

ومع هذا فإن د. لطفى جمعة ينظر مثلا إلى الانتصار فى بدر وحُنين على أنه شىء خارق للقانون الطبيعى وأن الله قد أمد المسلمين فى هاتين المعركتين بالملائكة كما ذكر القرآن الكريم[3] . ولكنه كعادته ، رحمه الله ، سرعان ما يضيف شيئا يبدو وكأنه يُفرِغ ما قاله من محتواه، إذ ذكر فى أثناء كلامه عن ملائكة غزوة بدر إن « بحوث العلم الحديث فى الروحية قد دلت على إمكان المدد بالملائكة ، فقد تواترت أقوال

(1) Maulvi Muhammad Ali, The Holy Qur'ân, p. 615 (notes 1544 - 1545) ; and Malik Ghulâm Farîd, The Holy Qur'ân, pp. 649 - 650 (notes 1765 - 1766) .

(٢) انظر د. الذهبى / التفسير والمفسرون / ٣ / ٢٠٢ .

(٣) نظرات عصرية / ١٨٦ _ ١٨٧ ، ١٩٦ _ ١٩٧ .

المشاهدين فى بعض مواقع الحرب العالمية الأولى عن ظهور أرواح وملائكة وقديسين »[1] ، مسوِّيا بهذا بين النبى والمسلمين فى غزوة بدر وبين مجرمى أوربا فى الحرب العالمية الأولى ومصدّقا الخرافات النصرانية عن ظهور من يسمونهم بالقديسين وتأثيرهم على سير المعارك مع أنهم ماتوا وشبعوا موتا ، علاوة على موتهم كفاراً . ألم يكونوا يؤلهون المسيح على الأقل ويكفرون بمحمد ؟

هذا ، وإن ما لاحظناه على مضمون هذا التفسير واتجاهه من أنه ليس عصريا كله بل فيه القديم والعصرى يصدق أيضا على المراجع التى استند إليها المرحوم لطفى جمعة فى تأليفه لهذا التفسير ، ففيها القديم والجديد . كما أن فيها كتب الدين والأدب والتاريخ ، ومنها ما هو مكتوب باللسان العربى ، ومنها المكتوب بالإنجليزية والفرنسية والألمانية . ومن ذلك « الأوديسة » لهوميروس ، والكتاب المقدس ، والتلمود ، وتفسير الطبرى ، وتفسير ابن كثير ، وتفسير البغوى ، ومُسْنَد أحمد ، وسُنَن أبى داود ، وسنن الترمذى ، وصحيح البخارى ، و« الشفا فى أخبار المصطفى » للقاضى عياض ، وتاريخ الطبرى ، و« إعجاز القرآن » للباقلانى ، وتاريخ المقريزى ، و « كتاب المعارف » لابن قتيبة ، و« الكليات » لأبى البقاء ، و « الوزراء والكتاب » للجهشيارى ، وتفسير الشيخ محمد عبده ، و « قصص العرب » لمحمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين ، و «فاوست» لجوته ، وقصة « Rip Van Winkle » لواشنطن

(١) المرجع السابق / ١٨٦ .

إرفنج [١] ، وكتاب " Heaven and Hell " لسويدنبرج السويدى ، و « الكوميديا الإلهية » لدانتى ، وبعض مسرحيات كورنى ، ورواية « يوسف وإخوته » لتوماس مان و « قصص الأنبياء » لعبد الوهاب النجار، وبعض مقالات محمد فريد وجدى بمجلة « الأزهر » ، وكتاب ريناخ « تاريخ العقائد العام » (بالفرنسية) ، وكتاب إدوار شوريه " Les grands initiés dans l'histoire " ، وبحث سيجموند فرويد عن موسى ، وكتاب « تاريخ القرن العشرين » (بالإنجليزية) لهربرت جورج ولز وآخرين ، و « تاريخ الشرق القديم » لماسبيرو ، و « تاريخ الإمبراطورية الرومانية » (بالفرنسية) لفاسيلييف ، وكتاب « الإنجيل والصليب » للأب عبد الأحد داود الأشورى العراقى (الذى انتهى به

(١) يجد القارئ ترجمة لهذه القصة بقلم المرحوم عباس محمود العقاد فى كتابه «ألوان من القصة القصيرة فى الأدب الأمريكى » (ط٢ / مكتبة الأنجلو المصرية/ ١٩٦٣م/ ٢٧ ـ ٥٤) . وهى إعادة نسج لقصة أهل الكهف ولكن فى ثياب حديثة أمريكية ، إذ أخذت بطلَها غاشية من السُّكْر والنوم فوق الجبل استمرت عشرين عاماً استيقظ بعدها ليجد بندقيته قد صدئت وتآكلت وأضحت قطعة حديد لا شكل لها ، أما كلبه فلم يعثر له على أثر . وعندما عاد إلى قريته ألفى كل شىء قد تغيَّر عما كان يعهده ، وألفى البلاد قد استقلت عن التاج البريطانى وأصبح الحكم فيها جمهوريا . وقد عثر بعد ذلك على ابنته التى كانت قد كبرت فتزوجت وأنجبت ، كما وجد ابنه وقد أصبح رجلا كسولاً مثله . ثم اندمج فى النهاية فى الحياة من حوله وأخذ يستمتع بها دون منغصات . وقد استشهد لطفى جمعة بهذه القصة عند كلامه عن عُزَيْر (ص ١٠٠) ، الذى ذكر القرآن أن الله قد أماته مائة عام ثم بعثه ، إلا أنه قال إن ريب فان ونكل قد نام مائة عام ثم نهض فألفى حفيده جداً . والصواب هو ما قلته .

الأمر بدخول الإسلام والدفاع عن حقائقه فى مؤلفاته) ، وكتاب جيبون عن اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ، وكتاب فلامريون " Le mystère de la mort " ، وكتاب إشپنجلر « انحدار الغرب » ، وكتاب نوردو « الانحلال أو الانهيار » [١]، وذلك غير ترجمات القرآن بالإنجليزية والفرنسية والألمانية وكتب المستشرقين وبحوث العلوم الطبيعية والكشوف الأثرية .

وهو حين يستعين بشىء من هذه المراجع يحتفظ بشخصيته واستقلاله ولا يجد حرجاً فى أن يخالف حتى الصحابة . أما المستشرقون فإنه يَعْنُف عليهم عنفا شديدا إذا قال أحدهم فى القرآن المجيد أو الرسول الكريم ما لا يُرْضِى المسلم ، وعندئذ تثور زوابع غضبه ولا يبالى أين تقع كلماته. ولنبدأ أولاً بما خالف فيه الصحابة أو على الأقل ما هو منسوب إليهم : فمثلا عند ذكر الحديث الذى يقول فيه أنس بن مالك : « كنا نقرأ على عهد رسول الله سورة تعدل سورة التوبة طولا ما أحفظ منها غير آية واحدة . ولو أن لابن أدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثا ، ولو أن له ثالثا لابتغى إليها رابعا ، ولا يملأ جوفَ ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » يسارع إلى التعقيب قائلا : « وإنى لاحترامى لأنس بن مالك أشك كثيرا فى روايته . أولا : لأنه لو حفظ سورة تعدل

(١) يجد القارئ عروضا نقدية لكتب سويدنبرج وشپنجلر ودانتى المذكورة هنا فى كتاب « مع الكتب فى سبيل المعرفة » لمحمد لطفى جمعة (عالم الكتب / ١٤١٩هـ ـ ١٩٨١م / فى الصفحات التالية على الترتيب : ١٩٠ ـ ١٩٦ ، ٧٣ ـ ٨٢ ، ٢١٦ ـ ٢٢٨) .

سورة « التوبة » لم يكن هو وحده الحافظ لها دون سواه من الصحابة ، فلو نسيها لتذكرها سواه . ثانيا : أن الذى نعلمه عن المنسوخ أنه يُعَدّ بالآيات لا بالسور . ثالثا : من الوجهة الأدبية الفنية ، مع العجز والضعف والدعوى (نعوذ بالله منها) نزعم أن هذا ليس أسلوب القرآن حتى ولا أسلوب الحديث المحمدى ، خصوصا تكرير ذكر الوديان وجوف ابن آدم ، والسجع المتكلف فى قوله : « التراب ، ويتوب الله على من تاب » . وليس هناك أى ارتباط بين المعانى فى هذا الكلام الموصوف بأنه آية . فإن كانت حقا آية نُسِخَتْ فالحمد لله على رفعها ، وإن كانت بقية هذه السورة على نسق هذه الآية فالحمد لله كثيرا أنها لم تَبْقَ فى صدر أحد . دع عنك قوله : « واديان » بعد « أن » الناصبة لاسمها . ولعل هذه النبذة من الكلام الذى حاول بعض المعاصرين والحاسدين أن يقلدوا به أسلوب القرآن ففشلوا أو لم يجرؤ أحد على نسبتها إلى نفسه وأنحلوها صحابيا جليلا كأنس بن مالك »[1] . أما ما هو منسوب إلى عمر رضى الله عنه من أنه كانت هناك آية تقول : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ... إلخ » فقد كان تعليقه عليه هو : « إن مقام عمر بن الخطاب وحده هو الذى يمنعنا عن الحكم عليه بما سبق به الحكم على كلام أنس بن مالك »[2] . وعند تطرقه إلى ما ذكره المفسرون من تهكم المنافقين واليهود عند فتح مكة بالبشارة التى أعلنها الرسول عليه السلام لأمته بفتح فارس والروم نراه يعقب قائلا : « وعندنا

---

(1) نظرات عصرية فى القرآن الكريم / ٨٦ .

(2) ص ٨٦ ـ ٨٧ .

أن هذا الخبر ضعيف ، وإن كان الذى رواه ابن عباس وأنس بن مالك رضى الله عنهم ، لأن اليهود عند فتح مكة والمنافقين فى القريتين : مكة والمدينة قد انكسرت شوكتهم وأيقنوا بانتصار محمد على طول الخط »[1] . وهو يتهكم بالمفسرين الذين ذكروا أن الله قد أعاد امرأة العزيز إلى شبابها وجمالها ليتزوجها يوسف عليه السلام قائلا : « ويأبى المفسرون أصحاب القلوب الرقيقة على العاشقين إلا أن يعيدوا زليخا إلى شبابها وجمالها لتُزَفَّ إلى يوسف فى الدنيا تارة ، وتارة أخرى فى الجنة »[2] . وهو ، كما ترى ، تهكم خفيف لطيف . على أن نبرة التهكم تزداد حدة فى كلامه بشأن ما تزيّد فيه المفسرون عن لقاء سليمان عليه السلام وبلقيس ملكة سبإ ، إذ خاطب ابنَه رابح ، الذى يبدو أنه كان يملى عليه آنئذ ما يكتب ، قائلا : « يا ابنى رابح ، إلى أين تقودنا أقوال المفسرين ؟ فبعد زعم الهداية لبلقيس ننتهى إلى إزالة الشعر لتنعيم جسد العروس قبل أن يدخل عليها هذا النبى (ص ٢٢٨ ـ ٢٨٩ ج ٦ تفسير ابن كثير والبغوى) »[3] .

أما المستشرقون الذين خرجوا عن حدود العلم والذوق والموضوعية فى كلامهم عن القرآن المجيد أو الرسول الكريم فقد أصلاهم نارا حامية[4]

---

(1) ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(2) ص ٢٢٧ .

(3) ص ٣٢٩ .

(4) حتى لقد أشار مثلا إلى أحدهم مرة بـ « هذا المستشرق المغفَّل » (ص ١٦٦) ، ووصف آخر بـ « المستشرق الغاشم » (ص ١٦٨) .

وبيّن تهافت دعاواهم وشبهاتهم : فمن ذلك ردُّه على « بعض الكتاب الغربيين » الذين انتقدوا الشريعة الإسلامية فى مسألة الحدود واتهموها بالقسوة والهمجية والتخلف عما وصلت إليه الإنسانية من رقى فى العصر الحديث بحجة ما نادى به بعض علماء القانون وعلم الإجرام فى الغرب من وجوب معاملة المجرم على أساس أنه إنسان مريض يستحق العلاج لا العقاب ، فقد اتهم جمعة هؤلاء المستشرقين بجهل أحكام الشريعة جملة وتفصيلا ، وإلا لما فاتهم حرص الشارع على تقليل جرائم الحدود وتشدده فى إثباتها تشددا كبيرا حتى ليتعذر تطبيقها . أما قولهم بأن المجرم إنسان مريض يجب علاجه لا الاقتصاص منه فقد ذكر فقهاء المسلمين أن العقوبات تأديب وزجر ، جامعينِ بذلك بين حماية المجتمع والعناية بشخص المجرِم وعلاجه ، ومن ثم ترِك للقاضى فى كثير من جرائم التعزير الحريةُ فى اختيار العقوبة الملائمة وتقدير ظروف الجريمة وظروف المجرم ، فضلا عن إرساء الرسول الكريم لمبدإ درء الحدود بالشبهات وإعلانه أن خطأ الإمام فى العفو خير من خطئه فى العقوبة وتحبيبه الستر على الجانى وغير ذلك ، وهو ما يقطع برحمة الشريعة الإسلامية ومراعاتها للضعف البشرى مع حرصها فى ذات الوقت على مصالح المجتمع . ثم ختم كلامه بأن العقوبات الوضعية لم تفلح فى مكافحة الجريمة وتطهير المجتمع منها ، ووَصَم الذين عابوا الإسلام بالتخلف بأنهم مغرضون بلا ريب ولا يمكن الأخذ برأيهم أو التعويل عليهم[1].

(١) ص ١٣٩ ـ ١٤٣ .

وعند التعرض لتفسير سورة « الأنفال » ، ومعظمها يدور حول غزوة بدر ، يقول جمعة رحمه الله إنه « لم يخطر ببال المسلمين فى هذا الوقت غنائم ولا أنفال ولا سلب ولا نهب كما يزعم خليفة الأعداء وحليف اليهود والمشركين المعلّم مرجليوث الأرمنى فى كتابه ، ولم يكن المسلمون فى فاقة ولا حاجة لأنهم بدأوا الغزوات بعد سبعة أشهر من الهجرة »[1]. والإشارة هنا إلى المستشرق ديفيد صمويل مرجليوث ، وهو من ألد المستشرقين عداوة للإسلام وأحقدهم على النبى الكريم ، وهو مستشرق بريطانى معروف ، ومع ذلك لقبه الدكتور جمعة بـ « الأرمنى » ، ربما تعريضا بأصله البعيد ، فقد كان يعرف هذا المستشرق جيدا وكانت بينهما خصومات فى الرأى[2]. وقد كنت أستغرب تحيز مرجليوث الفجّ لليهود ضد الإسلام والرسول رغم نصرانيته، إذ لم تكن لليهود وقتها تلك الشوكة التى أضحت لهم الآن فى الغرب،

(١) ص ١٨٣ .

(٢) وهذا هو رأيه فيه : « كان متعصبا ضد الإسلام ونبيّه ولا يدارى ولا يمارى فى كتابه الخبيث فى السيرة المحمدية ... فلما ردّ عليه أحد الكتّاب (يقصد جمعة نفسه) وذكّره بأغلاطه وتعصبه وتحامله وكذبه على الرسول هاج وماج وكتب إلى الإسلامبولى (صاحب مجلة « المعرفة » التى كان يكتب فيها مرجليوث وردّ عليه فيها أيضا د. محمد لطفى جمعة) يقول له : « لن أكتب فى مطبوعة عربية بعد اليوم ، ولو علمت أنك تنشر ردّا لفلان ما كتبت إليك ، فإن فلانا رجل رجعى متعصب لدينه » . ومرجليوث قضى نحبه ولم يدرك مقالا آخر ينشره بعد خطابه هذا . والأعجب أنه يرى فى كل من يدافع عن عقيدته بالحقّ رجعية ويُعجَب بالملحدين والإباحيين ويعتبرهم أساتذة الزمان وعلماء الدهر . وكان بذىء اللسان خبيث القلب فى كل ما يتعلق بالنبى فيما عدا قضية =

ثم اتضح لى أنه يهودى الأصل وأن أحد جدوده قد انتقل إلى النصرانية حتى لقد أصبح أبوه من رجال الكنيسة ، فانكشف لى سرّ هذا الحقد الراسخ فى قلبه الأسود الذى لم يبرأ من يهوديته رغم هذا التحول المدَّعَى إلى النصرانية . وهذا يفسر لنا السرّ فى وصف جمعة له بأنه « حليف اليهود » ، أما الكتاب الذى يُلْمِح إليه مؤلفنا فهو " Muham- mad and the Rise of Islam " . وقد ذكرت فى كتابى « معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين » بعضا من سخائم الغِلّ التى نضحت على قلم هذا الأفاك الكَذّبان وسخَّم بها أوراق كتابه الدنس. والعجيب أن تَرِم أنوف بعض الأساتذة المسلمين وتحمرّ غضبا لهذا

= الإفك ، فقد وقف فيها موقف الرجل العادل والمؤرخ الشريف . وكذلك كان شديد الإعجاب بذكاء النبى وخلقه وشجاعته وعلمه فى السياسة والحرب . وفيما عدا ذلك فقد دس السمّ فى الدَّسم فى كل قطعة أخرى من قطع الكتاب » (محمد لطفى جمعة / قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد / ١٣٨ ـ ١٣٩) . ولى تعليق سريع هنا : ذلك إنى لأَعْجَب أشد العَجَب من ضيق صدر مرجليوث بأن يردّ عليه كاتب مسلم واتخاذه ذلك مسوّغا لانقطاعه عن الكتابة فى المجلة التى نشرت ذلك الرد . ومبعث العَجَب هو أن هؤلاء الغربيين يصدّعون أدمغتنا ليل نهار بالحديث عن الموضوعية والديمقراطية وحرية الرأى وتلاقح الأفكار ونسبية المعرفة ، لكن سرعان ما تضيق صدورهم إذا خالفناهم فى الرأى ويعدّون ذلك منا رجعية وتخلفا . ترى ألا يكون المسلم تقدميا ومتحضرا إلا إذا انسلخ من دينه وشايع هؤلاء الأرجاس المناكيد ؟ ومثل المستشرقين فى كراهية الرأى المخالف ، بل وإيذاء أصحابه واضطهادهم والتآمر من أجل حرمانهم من حقوقهم والتضييق عليهم فى مجالات النشر الحكومية ، تلامذتهم من أدعياء التنوير فى بلادنا ، هؤلاء الذين لا يعترفون بأحد إلا بأنفسهم وأتباعهم ، ورغم ذلك لا يكفّون عن الجعجعة بالديمقراطية وحرية الفكر والتعبير !

المستشرق عندما وصفته فى كتابى ذاك بـ «الكيذبان» لافترائه الكذب على رسولنا الكريم ﷺ واتهامه له بأنه « شيخ منسر » ، فقالوا إن هذا لا يتسق مع كتابة بحث علمى ، ولو كانوا صادقين لقالوا ذلك لمرجليوث لا لى لأنى إنما أقرر الحقيقة ، أما هو فيكذب ويتطاول على أشرف الخلق . ولم يكتف هؤلاء الأساتذة بذلك بل سددوا طعنة (حسبوا أنها ستكون قاتلة) فى ظهر كاتب هذه السطور .

ومن الافتراءات الاستشراقية التى رد عليها الدكتور لطفى جمعة أيضا زَعْم ذلك المستشرق نفسه أن السبب فى هدم مسجد الضِّرَار غامض غير واضح ، علاوة على أسفه لهذا الهدم وانتقاده الرسول من أجله . وقد تساءل جمعة قائلا : « هل يخفى على رجل كمرجليوث أن مسجد الضرار كان جامعا للصلاة فى الظاهر ومركزا لجمعية سرية إجرامية فى الحقيقة وملجأ لحزب أبى عامر الناسك الفاسق » ، الذى أقر هذا المستشرق نفسه أنه « فرّ بعد غزوة حنين إلى إمبراطور بيزنطة مستنجدا به على النبى » ؟ (١)

أما چورچ سيل ، الذى يدعى أن الرسول ﷺ قد أخذ مادة سورة « يوسف » من العهد القديم ثم زعم أنها وحى من عند الله(٢) ، فقد رماه جمعة بالتعصب والتبجح والتناقض مع أكابر المستشرقين أمثال

(١) ص ٢٠٣ .

(٢) ذكر سيل فى مطلع ترجمته لهذه السورة أن القرشيين ، بتحريض من بعض أحبار اليهود ، قد طلبوا من الرسول على سبيل الإحراج أن يحكى لهم قصة يوسف بكل تفاصيلها ، فما كان منه ﷺ إلا أن ادّعى نزول هذه السورة عليه من السماء!
. (Sale's Koran, Frederic Warne & Co., London, p. 169, note g)

نولدكـه ، الذين نَفَـوْا أن يكـون الرسـول قـد رجع إلى أى مـرجع مكتوب ، فضلا عن اختلاف القصة القرآنية عما ورد فى العهد القديم اختلافا كليا [(١)] ، وإن أضاف أنه ليس بالمستغرب انتقادُ ملاحدة الغرب للقرآن بعد أن انتقـدوا كتابهم المقدس نفسه ، ثم تسـاءل قائلا : «لو أن محمدا نقل عن التوراة والإنجيل وأساطير الأولين فما الذى منع معانديه وأضداده من معاصريه أن يفعلوا مثله ولا سيما وأن القرآن قد تحداهم المرة بعـد المرة ؟ ... ولما انتـقل الرسـول إلى المدينة لم يَفْتُر الوحى ولا هِمَّة الرسول ولم يرهبه أن فيـهـا فطاحل اليهـود وأحبـارهم وفحول علمـاء شريعتهم ، وهذا ليس دأبَ الذى يسترق أو ينتحل . ولو كـان كـذلك لسلك معهم مسلك المجاملة دأبَ المنتحل مع المالك الأصيل ، بل على نقيض ذلك تحداهم وناصبهم العداء ، واتهمهم القرآن والرسول بالجهل والتجاهل والتحايل وتحريف التوراة وإخفاء حقيقتها ... إلخ» [(٢)] . ولـم يكتف مؤلفنا بهذا بل عاد إلى الموضوع نفسه بعد عدة صفحات فكتب يقول عن المستشرقين الذين اتهموا النبى بأخذ سورة «يوسف» من العهد

(١) لم يذكر المرحوم جمعة شيئا من هذه الاختلافات . ويستطيع القارئ أن يرجع إلى كتابى « سورة يوسف ـ دراسة أسلوبية فنية مقارنة » (دار النهضة العربية / ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م) إذا أراد الوقوف على أوجه الاختلاف بين القصتين ، وذلك فى الفصل الثالث ، وعنوانه «قصة يوسف بين القرآن الكريم والعهد القديم» ومن الجدير بالذكر أن نقرّر أن الاختلافات الموجودة بين القصتين هى جميعها فى صالح القرآن سواء فى حكم المنطق أو التاريخ أو الأخلاق .

(٢) نظرات عصرية / ٢٢١ ـ ٢٢٣ .

القديم : « أَخْلِقْ بهؤلاء البُغَاة الحاقدين أن يخجلوا ويكفّوا فقد كبَّهم الله على مناخرهم فى النار ! وأَخْلِقْ بشبابنا الحديث المعاصر أن يُعْرِض عنهم وألا يُخْدَع بهم وألا يُفْتَن بما يكتبون كما فُتِنوا ببعض مؤلفات مرجليوث أعدى أعداء النبى على عِظَم التفاوت بين أصغر تابع له من المنورين [(١)] فى أى عصر من عصور الإسلام وبين هذا المعلم العتيق فى إحدى كليات أكسفورد ! فقد اتخذوا الهجاءَ حرفة والتنفيرَ من الرسول مصـدر رزق حرام ، وهم طلاب قـوت تعدَّوْا حـدود الأدب والإنسـانيـة والكرامة ولم ينطق من أسلافهم ناطق فى إبان قوة المسلمين بعُشْر معشار ما نعقوا به عندما دالت دولة الإسلام وذلّوا بفعالهم . وجورج سيل هذا الذى عاش فى بلاد الإسلام عشرين عاما وترجم القرآن ترجمة جيدة وزعم أنه عرف العربية معرفة حسنة واطلع على أمور تَحُدّ من تعصبه وتفلّ من سلاح عداوته لم يخجل أن يقول إن قصة يوسف مستقاة من التوراة وإن محمدا وضعها ونسبها إلى الوحى الإلهى » [(٢)] .

وفـى تعليـق لطفـى جمعـة على الآية السابعة والثلاثين من سورة « الأحزاب » ، وهى الآية التى تتعرض لقصة زينب بنت جحش وزوجها الأول زيد بن حـارثة ، لا يفوته أن يقـرّع المستشرقين الذين ظنوا أنها فرصة لثلْب الرسول عليه السلام والطعن فى أخلاقه فاضحا كـذبهم واختلاقهم الأباطيل عليه قائلا : « وقد اختلق الأعداء من المستشرقين

(١) كذا وردت الكلمة .

(٢) ص ٢٢٩ .

والمبشرين أمثال موير ومرجليوث وسپرنجر وإرفنج قصة مرذولة ، وهى أن النبى لمح زينب عارية فأحبها وعلم بذلك زيد فطلقها ، مع أن زينب ربيت فى بيت النبى ورآها رؤيات متكررة كما يرى رب الدار قريبته التى تنشأ فى بيته ، ولو أنه أراد زواجها لنفسه لما كان هناك مانع من هذا . وعلى كل حال فالقصة التى اخترعها الأعداء باطلة وغير معقولة »[١] .

وكنت قد قرأت هذه القصة عند واشنطون إرفنج المستشرق والدبلوماسى الأمريكى ، كما قرأتها أيضا عند مكسيم رودنسون المستشرق اليهودى الفرنسى الذى أثار كتابه عن الرسول عليه السلام زوبعة عاصفة هذا العام ، وكذلك عند بوكيه ، وهو قسيس بريطانى[٢] ، وسبق أن ناقشت أقاويلهم وأظهرت فُسُولتها وتناقضها مع حقائق التاريخ وأخلاق النبى محمد والصلة النبيلة التى كانت تربط بينه وبين زيد رضى الله عنه، وذلك فى كتابى « مصدر القرآن ـ دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى »[٣] . ولأهمية هذا الموضوع نعيد ما قلناه هناك تجلية لتفاصيله ووضعا للأمور فى نصابها . لقد تلقف أولئك المستشرقون وأضرابهم رواية ضعيفة اخترعها ورواها بعض من ينتسبون إلى

(١) ص ٢٥٣ .

(٢) ص ١٠٢ ـ ١٠٣ ، وانظر ما سطره وليم موير فى كتابه الخاص بسيرة النبى (The Life of Mohammad, John Grant, Edinburgh, 1912, pp. 290 - 292) ، وهو لا يخرج عما قاله هؤلاء المستشرقون .

(٣) ط ٢ / مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م / ٧١ ـ ٨٢ (وكانت الطبعة الأولى من هذا الكتاب قد صدرت فى عام ١٩٨٦م) .

الإسلام ولا يقدرون المسؤولية فيما يقولون ويتناقلون ، وهى الرواية التى تتعلق بزواج الرسول الأكرم بابنة عمته زينب بنت جحش . وتتلخص هذه الرواية فى أن رسول الله ﷺ ذهب يوما إلى بيت زيد فى أمر فلم يجده ، وكلّمته زوجته زينب من وراء الستار وهى تلبس ملابسها على عجل ، فإذا بالهواء يرفع الستار بغتة ليراها الرسول حاسرة مما كان له تأثير طاغ على مشاعره فانصرف وهو يردد : «سبحان مقلب القلوب ! » . ولما جاء زيد وعلم من زوجته بما حدث فهم أن الرسول قد علِقَ زوجته ، فذهب إليه وعرض عليه أن يطلقها ويتزوجها هو فأمره عليه السلام أن يمسك عليه زوجته ويتقى الله . ولكن الوحى ما لبث أن نزل على الرسول يكشف مشاعره التى حاول عبثا أن يخفيها ، ويأمره فى صراحة أن يتخذ زينب زوجة . وقد أضاف واشنطن إرفنج من عنده بعض التوابل ، إذ ذكر أن الرسول عليه السلام هو الذى فاجأ زينب وهى فى مباذل البيت ، وذلك حين اقتحم عليها خلوتها فى بيتها بصفته أبا لزوجها بالتبنى ، فرأى جمالها مكشوفا أمام عينه المحملقة [١] .

(١) إرفنج / ١١٢ . وقد أورد د. محمد حسين هيكل هذه القصة فى «حياة محمد» (دار القلم / القاهرة / ٣٢٢ ـ ٣٢٣) على نحو قريب من هذا ، لكن دون توابل إرفنج بطبيعة الحال . كما روى مكسيم رودنسون هذه القصة أيضا (Maxime Rodinson, Mohammad (translated by Anne Carter), Penguin Books, 1977, pp.205 - 208) ، وإن لم يرد فيها ذِكر لستار بل قال إن زينب قد قابلته وهى شبه عارية . ولا أدرى كيف واتت زينبَ الجراءة على مقابلة الرسول ﷺ بهذا الشكل . إن هذا لَبِسلوك ممثلات أدوار الإغراء أشبه. وانظر إشارة لهذا الأمر ساخرة فى كتاب بوكيه (A. C. Bouquet : "Comparative Religion" (Pelican Books, 1958, p. 272) .

وأول شيء أحب أن أسارع فأقوله هو أننا لم نسمع بمثل حادثة الستار هذه فى أية رواية أخرى عن ذلك العهد ، بل إن الستور لم تُرْخَ فى بيوت الرسول إلا بعد زواجه من زينب[١] . الحقيقة أن هذه رواية من الروايات الغرامية التى هى بامرئ القيس وابن أبى ربيعة أليق . أما ادعاء إرفنج بأنه ﷺ قد اقتحم على زينب خلوتها فليقل لنا أولا من أين له به، فإن مثل هذا السلوك ، فضلا عن أنه يجافى خلق الرسول والصحابة ، لم يَرِدْ ولا حتى فى تلك الرواية التافهة التى هى محلّ كلامنا الآن .

وثمة نقطة هامة جدا فى قصة زينب هذه هى أنها وأهلها كانوا قد رفضوا رفضا باتًا أن تتزوج زيدا ، الذى لم يكن إلا عبداً للرسول أهدته إليه خديجة عند زواجها منه فأعتقه عليه السلام ، بينما زينب هى ابنة عمة محمد زعيم المسلمين وحاكمهم ورسول السماء ، وأسرتُها من أرفع أُسَر قريش عزة ومكانة ، ولولا أن وحيا قرآنيا شديد اللهجة قد نزل فى زينب وأهلها يعنفهم على هذا الرفض ما رضيت ولا رَضُوا أبدا . والشاهد هنا أن هذه هى المرة الوحيدة تقريبا التى أرغم فيها الرسول امرأة على التزوج ممن لا تريد[٢] ، فإن الشريعة الإسلامية تتشدد فى هذه

(١) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى/ دار إحياء الكتب العربية / ٣ / ١٧٧ .

(٢) هناك حالة أخرى قابلتنى فى كتب الحديث التى رجعت إليها نجد فيها الرسول عليه الصلاة والسلام يتدخل لدى العروس لترضى بمن خطبها له . والطريف أن الرجل الذى رشحه الرسول فى هذه المرة هو أسامة بن زيد هذا ! (الشوكانى/ نيل الأوطار / دار التراث / القاهرة /مجلد ٣ / ج٦ / ص ١٠٨) .

المسألة حتى إن فتاة ذهبت إلى الرسول تشكو له من أن أباها قد زوجها من ابن عمها ليرفع بذلك الزواج خسيسته ، ففكّ الرسول عليه السلام عقد الزوج بسبب رفض الفتاة ، التى عادت بعد فسخ العقد فأعلنت موافقتها قائلة إنها إنما فعلت ذلك ليعرف الآباء أن لِبَناتهم إرادة مستقلة لا يجوز لهم أن يجوروا عليها[١] . بل إن الرسول نفسه عليه السلام لم يحاول ، ولو من بعيد ، إرغام زوجته التى استعاذت بالله منه (وكانت حديثة عهد بكفر) على البقاء فى عصمته ، وإنما سرحها تسريحا جميلا . وفضلا عن ذلك فلدينا حالة بريرة ، وكانت أَمَةً فأُعْتِقت ، وعندئذ أعلنت أنها لا تريد البقاء مع زوجها ، الذى أخذ يجوب شوارع المدينة وراءها وهو يبكى من فرط تعلقه بها ، وقلبها لا يرق له . وعبثا حاول الرسول عليه السلام الشفاعة له ، فقد أصرت على أن ينفصلا ، فكان لها ما أرادت[٢] . فأين بريرة من زينب سليلة العز والشرف ؟ ولماذا ينزل وحى فيها هى وأهلها خاصة يرغمهم على أن يرضَوْا بالزوج الذى اقترحه الرسول عليهم وهو عبد عتيق ؟ ألا إن فى الأمر سرًا سوف ينجلى حين ينزل وحى آخر يجبر الرسول عليه السلام بدوره على أن يتزوج زينب هذه. ولكن فلننتظر قليلا .

(١) انظر سيد سابق / فقه السنة / دار الكتاب العربى / بيروت / ١٩٧١م / ٢ / ١٣٠ ، وانظر كذلك الشوكانى / مجلد ٣ / ج ٦ / ص ١٢٠ ـ ١٢٢ .

(٢) انظر « رياض الصالحين » للإمام النووى / مراجعة وتعليق محمد الأنور البلتاجى / دار التراث العربى / ١٩٨٠م / ٩٢ ـ ٩٣ ، والشوكانى / مجلد ٣ / ج ٦/ ص ١٥٢ .

ثم لو أن الرسول كان طالب شهوة فلِمَ لَمْ يدخل البيت عندما رأى زينب على تلك الهيئة المزعومة (فهو على كل حال ابن خالها) ويتودد إليها متظاهرا بأنه يريد أن يكفّر عن إرغامه إياها على الزواج من زيد ، وبخاصة أن العلاقة بينها وبين زوجها لم تكن على ما يرام بسبب إحساسها أنها مغموطة فى هذا الزواج ، ثم يتخذها (أستغفر الله) عشيقة ؟ وهى بَعْدُ ليست إلا زوجة لمن كان فى يوم من الأيام له عبدا فمنّ عليه بالحرية وقرّبه منه ، أما هو فزعيم الأمة وحاكمها المطلق على زعم المستشرقين ، أمره مطاع ولا يتورع عن تلفيق الوحى لتسويغ ما يريد حسب ادعائهم وافتراءاتهم ؟ إن القارئ يمكنه أن يتصور منطقية هذا الحل إذا وضع فى ذهنه أن مَلِكا حسُنَتْ فى عينه زوجة خادمه أو سائقه مثلا ، وكان هذا الملك لا يبالى بخلق ولا عرف كريم ، فماذا تراه فاعلا إلا أن يأمرها بأن تتبعه إلى فراشه فتفعل ؟ وذلك بدلا من أن يتزوجها وينزل فى نظر الناس من عليائه إلى اتخاذ امرأة خادمه زوجة له .

ثم إن هناك فى المسألة جانبا خطيرا أشد الخطورة ، فإن العرب لم تكن تُقِرّ قط مثل هذا الزواج لأن التبنى فى نظرهم كان هو والأبوة الطبيعية شيئا واحدا . وهذا هو لب المشكلة كلها ، ومن ثم نستطيع أن نفهم تردد الرسول وعدم رغبته فى إتمام هذا الزواج كما هو واضح من قوله تعالى: ﴿ وتخشى الناسَ ، والله أحق أن تخشاه ﴾ (١) ، الذى فهمه رودنسون

(١) الأحزاب / ٣٧ .

على أنه إشارة إلى أن محمدا قد خاف أن يعرف الناس تعلق قلبه بزينب ووقوعه فى هواها منذ تلك النظرة المزعومة (١)، مع أن له تفسيرا آخر يتسق مع تحليلنا هذا الذى نراه أقرب تماما إلى المنطق ، ولا ندرى لِمَ لَمْ يشر إليه بكلمة واحدة ، وهو أن الرسول لم يشأ أن يواجه الناس بأن عليه أن يتزوج زينب . لكن وحى الله ينبغى أن يُبلّغ للناس مهما تكن مرارته ، وشرع الله لا بد أن يطبَّق مهما يتعارض مع التقاليد الحديدية . وليكن أول من يطبق هذا التشريع هو الرسول نفسه على رغم ما سوف يثيره هذا التطبيق من لغط لما سيسببه للناس من صدمة شديدة . أما الادعاء بأن نظرة واحدة مباغتة لزينب ، ولمّا تكن قد استكملت ارتداء ملابسها ، قد زلزلت قلب محمد فمن المستحيل قبوله ، وبخاصة أن الرسول هو الذى أرغمها على الزواج من زيد ، وكان ذلك منذ وقت قريب ، فما الذى تغير فيها فى هذه المدة القصيرة جدا حتى ترجّ كيانه نظرة إليها ؟ لو أنه عليه السلام لم يرها منذ طفولتها ثم فوجئ بها امرأة ناضجة الأنوثة لقلنا : هذا معقول ، فإن فترة المراهقة تحدث من التغيرات فى الفتيات الأعاجيب . أما أن تتغير امرأة ناضجة فعلا فى هذا الزمن الوجيز فهو غير معقول ، وبالذات إذا عرفنا أن زينب لم تكن راضية عن زواجها ودائما تعيره بأنها أشرف منه ، لأن مثل هذه الزوجة لا تجد فى حياتها الزوجية دافعا إلى الاهتمام بشكلها أو ملابسها أو زينتها ، وهى

(1) Rodinson, pp.206 - 207 .

الأشياء التى يمكن أن تجعلها تبدو جميلة إذا لم تكن كذلك ، أو تزيدها ، إن كانت ، جمالا فوق جمال .

إن القصة تمضى فتقول إن محمدا عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، عندما وقع بصره عليها وهى فى حالتها تلك ، قد انصرف من فوره وهو يردد : « سبحان مقلب القلوب ! » . فقف معى هنا أيها القارئ وقل لى : علام تدل هذه العبارة ؟ ألا تدل ، حتى بفرض صحة هذه الرواية ، على أن الإيمان بالله كان يملأ قلب محمد عليه السلام، وأنه كان يرى ربه مطلق المشيئة ؟ ترى أهذه مشاعر دجال يزعم كذبا أنه متصل بالله يأتيه الوحى من لَدُنْه بينما هو فى الحقيقة يلفق هذا الوحى ليحقق به شهواته ؟ على أية حال لقد رجع محمد ، بناء على هذه الرواية ، ولم يفكر ولو لحظة فى الدخول على زينب برغم أن البيت كان خاليا عليها . إن رد الفعل الطبيعى هنا ، مادام محمد أسيراً لشهوته كما تصوره كتابات المستشرقين ، هو أن يدخل وينفرد بمن زلزلت كيانه حتى لو كان كل ما سيفوز به منها حينذاك هو مجرد الأنس بالحديث معها ساعة ومَلْء العين من جمالها إلى أن يعود الزوج المسكين من الخارج .

ولنفترض أن محمدا قد أخطأ خطأ العمر حين ترك هذه الفرصة الغالية تفلت منه فانصرف بدلا من أن يدخل ، فلِمَ لَمْ يهتبل تلك الفرصة الأخرى التى قدمها إليه فى منديل من حريرِ الزوجُ الساذج السادر فى حب سيدة غفلة منه وحمقا ، أستغفر الله ، حين أتى إليه توّ علمه بالحادثة وعرض عليه بإخلاصِ السذج وحرارة الحمقى أن يتنازل له عن زوجته ، التى وقعت فى قلبه موقعا ؟ لقد كان جواب الرسول على هذا العرض هو : ﴿ أَمْسِكْ عليك زوجك واتق الله ﴾ . أتراه كان يتردد خوفا من كلام الناس ، حتى إذا ما تهيأ الرأى العام لذلك لم يجد غضاضة فى قبول العرض ؟ لكن هذا الأمر قد ظل سرا بين أطراف المثلث فلم يبلغ آذان الرأى العام ، ولم يتهيأ من ثم هذا الرأى العام لذلك الأمر الجلل . ثم ألم يكن أفضل من هذا كله وأسرع وأبلغ بمحمد إلى غرضه وشهوته أن يتفاهم مع زوجة عبده السابق على ترتيب لقاء سرى بينهما كلما سنحت الفرصة بدلا من وجع الدماغ والدخول فى هذه المتاهات المعقدة والتعرض لألسنة الناس ؟ أم تراه حين أخطأ وأفلت فرصة الخلوة بها قد فاته أن يلجأ إلى حيلة داود على حسب ما يرويه الكتاب المقدس ، الذى يتهم هؤلاء المستشرقون أنفسُهم سيدَنا رسول الله بالسرقة منه ، فيرسل زيدا فى غزوة من الغزوات المهلكة بعد الاتفاق مع واحد من أصحابه الذين يغارون منه على أن يضعه فى مقدمة الصفوف عرضة لرماح الأعداء وسهامهم وسيوفهم كى يموت ، بالضبط كما فعل داود مع أوريا قائده المقرب إليه عندما وقع له شىء مشابه لما وقع لمحمد على حسب هذه الرواية الملفقة ، على رغم أنه ، على عكس محمد ، قد أروى غلته من امرأة هذه القائد قبل أن يرسله إلى الحرب ليموت هناك ويخلو له بذلك وجه الزوجة ؟ لقد فعل

داود هذا بقائده المقرب إليه ، فلِمَ لَمْ يفعله محمد مع عبده السابق ؟ إن التخلص من عبد سابق لأهون ألف مرة من التخلص من قائد له مكانته الاجتماعية والسياسية الرفيعة مثل أوريا (١) . أم تراه عليه السلام لم يكن يسرق من اليهود إلا الأفكار الطيبة بينما يعفّ عن الأفكار الشريرة ؟

على أننى مازلت أرى أن من المستحيل أن يكون الأمر قد تم على النحو الذى تزعمه تلك الرواية المتهافتة ، فقد كانت علاقة الحب المتبادل بين محمد وزيد من المتانة والعمق والرسوخ حتى إن زيدا فى صباه قد فضله على أبيه وأمه وكل أهله الذين لم يكن قد رآهم منذ اختُطِف وبِيعَ بَيْعَ العبيد وتقاذفته المقادير حتى استقر فى يد محمد ، ورفض أن يرجع معهم حين خيره النبى بين البقاء معه أو الذهاب مع أهله(٢) . ولم يُؤْثَر عنه بعد ذلك قط أنه حنّ إلى أهله مرة . ترى أيمكن أن يبلغ الحب من قلبه هذا المبلغ المستحيل لو أنه شامَ من محمدٍ ريبة على مدى هذه السنوات الطويلة ؟ أم ترى كان يبقى بعد هذه الحادثة معه عليه السلام لو أن مجرد صدًى هاجسٍ خافتٍ قد عبَّر قلبه؟ أم ترى محمدا ، وهذه أبوته لزيد الذى رباه على يديه وسقاه من كؤوس حنانه الصافية منذ كان صبيا حتى أصبح الآن رجلا فأرغم بنت عمته هو

(١) انظر ، فى قصة داود وأوريا ، الكتاب المقدس / صموئيل / ١ / ٢ - ٢٧ . واقرأ فى تفنيدى لها كتابى « المستشرقون والقرآن » / دار الحقوق / ١٣٠ .

(٢) انظر ابن هشام / السيرة النبوية / تقديم وتعليق طه عبد الرءوف سعد / مكتبة الكليات الأزهرية / ١ / ٢٣٠ - ٢٣١ ، وارفنج / ٣٤ .

الزعيم والحاكم المطلق السلطان على الزواج من هذا العبد السابق ، يمكن أن يقع فى مثل هذا الغرام فجأة مع زوجة ابنه ؟ أم تراه ، بافتراض صحة وقوعه فى هواها من مجرد نظرة عابرة ، كان يرضى أن يتزوجها لولا أمر السماء له بأن يكون أول من يطبق ذلك التشريع الجديد على نفسه ليحطم ذلك التقليد الجاهلى الحديدى الذى كان يعدّ الابن بالتبنى مثل الابن الحقيقى تماما ؟

على أن هناك شيئا فات هؤلاء المسارعين إلى تصديق كل ما من شأنه أن يلطخ سمعة الرسول الأعظم محمد ﷺ ، وهو أن تلك الرواية المتهافتة تقول إن زواج محمد من زينب بعد طلاقها من زيد قد أثار زوبعة شديدة لأن الناس لم يستطيعوا بسهولة أن يهضموا زواج رجل من مطلقة ابنه حتى لو كان ابنا سابقا بالتبنى . أفلم يكن المنطقى إذن ألا يفكر زيد فى عرّض تطليق زوجته على أبيه السابق ليتزوجها مادام الناس يستنكرون مثل هذا الزواج إلى هذه الدرجة العنيفة ؟ ثم أليس من المنطقى أن ننكر نحن إمكان حدوث ذلك ؟

ثم عائشة ! لقد كانت زوجة غيوراً ، ولو أنها أحست بشىء يحاك فى الخفاء لما سكتت . ولقد سمعته عليه السلام يقول عن رجل جاء إلى بيته فى أمر ما : « بئس أخو العشير هو ! » ، فلما قابله وهشّ له وألان الكلام لم تسكت على ذلك رغم تفاهة الأمر ورغم أن هذه هى المرة الوحيدة (فيما نعرف) التى وقع ذلك فيها من الرسول عليه

السلام ، بل سألته عن سر هذا التناقض التافه[١] . فأَحْرِ بها هنا ألا تسكت لو شعرت بشيء مما يتقوله المستشرقون ! لكن كان لعائشة الجريئة ذات الدلال على رسول الله ﷺ رأى آخر ، إذ قالت : لو كان رسول الله ﷺ كاتما شيئا لكتم هذه[٢] . ذلك أنها كانت تدرك تمام الإدراك فداحة الصدمة التى سيخلّفها زواج رسول الله عليه السلام من زينب كما مر بيانه .

مما سبق يتبين لنا أن المستشرق البريطانى مونتجمرى وات كان على حق عندما اتفق رأيه فى هذه القضية مع آراء المسلمين المعاصرين ، وأنه لا معنى لاستغراب مكسيم رودنسون رأى رصيفه البريطانى هذا [٣] . ثم فلنفترض أن وقائع القصة كلها صحيحة ، فما الذى يؤخذ على الرسول فيها ؟ أيؤخذ عليه أن نظره وقع عفوا على زينب فكان لذلك تأثيره على قلبه ؟ أم يؤخذ عليه أنه بدلا من أن يدخل انصرف وهو يتمتم : « سبحان مقلب القلوب ! » ؟ أم يؤخذ عليه نهيه زيدا أن يطلق زوجته من أجله[٤] وقوله له : ﴿ أَمْسِكْ عليك زوجك واتق الله ﴾ ؟ أم يؤخذ عليه

(١) انظر ، فى هذه القصة مثلا ، « الموطأ » / ٣١ / ٩٦ .

(٢) البخارى / ٤١ / ٢٨١ .

(3) See Rodinson , p. 207 .

(٤) هذا ما يدعيه المستشرقون ، أما الرواية القديمة (كما فى تفسير الطبرى والزمخشرى مثلا لهذه الآية) فتقول إن زيدا ذهب إلى الرسول عليه السلام وعرض عليه أن يفارقها ، فهتف به : « أرابك منها شيء ؟ » ، فقال له : « لا والله يا رسول الله ما رابنى منها شيء ولا رأيت إلا خيرا ، ولكنها تتعظّم علىّ =

أنه تزوج زينب زواجا شرعيا بعد أن طلقها زوجها بملء إرادته وحريته ؟ ألا يرى القارئ أن الأمر كله عراك فى غير معترك ، وأن ما يتقوله المستشرقون إنما هو ضجة فارغة ، وأن الآية محلّ النقاش ليست إلا وحيا إلهيا نزل يأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يكون أول من يطبق على نفسه التشريع الجديد ؟

على أن المسألة لم تقف فى كتاب الدكتور محمد لطفى جمعة عند هذا الحد بل تعرض لها كرة أخرى عند تفسيره لآيات سورة « ص » التى تتحدث عن داود عليه السلام والخَصْمين اللذين تسوّرا عليه المحراب، فقد أشار إلى ما ورد فى العهد القديم عن أوريا قائد الجيش وزوجته التى رآها داود من فوق قصره وهى تستحم عارية فى فناء بيتها المجاور وكيف وقعت فى قلبه موقعا فأرسل إليها ومارس معها الفاحشة ثم رسم مؤامرة للتخلص من قائده ليخلو له وجه الزوجة الفاتنة ، وعلق المرحوم جمعة قائلا : « ولعل هذه القصة صحيحة » ، وإن عاد فقال إنها قد تكون فى القرآن رمزية ، ولكنها تدل على أن لها أصلا صحيحا فى تاريخ داود ، وإنه خر راكعا وأناب وتاب وطلب المغفرة فقُبِل منه ذلك » . ومربط الفرس فى ذلك كله هو قوله تعقيبا على القصة إن

= لشرفها وتؤذينى » ، فقال له رسول الله : « اتق الله وأمسك عليك زوجك » ، فأمسكها زيد ، ولكن تعاملها معه اشتد حتى نَفِد صبره فطلقها ... إلخ . فانظر الفرق وافهم السبب فى هذا التحريف . وأصل الرواية ، كما ترى ، يؤكد ما قلناه قبلا من أن زيدا لم يكن ليجرؤ على أن يعرض على الرسول الزواج من زينب .

« كل الذى يهمنا هو المقارنة بين هذه الطريقة الفطرية الأولية التى توصل بها داود إلى تَشبّع زوجة أوريا وبين الطريقة الإنسانية الرقيقة التى تزوج بها رسول الله سيدتنا أم المؤمنين زينب بنت جحش ولم يرد فى القرآن عنها أنها فتنة ولا هوى ولا شىء من هذا »[1] ، وهو قريب جدا مما قلناه فى هذا الموضوع .

كذلك اتُّهم كاتبنا بالجهل باللسان العربى المستشرقين الذين يخطّئون القرآن زاعمين أنه يقول إن الأرض مسطحة لا كروية ، وإلا لعرفوا أن كلمات مثل « سُطِحَتْ » و « قَرار » و « مِهاد » و « بِساط »[2] ، التى وُصِفَتْ بها الأرض فى القرآن ، إنما هى « من قبيل الأساليب الفنية المجازية ، أى أن رؤية الأرض كأنها مسطحة مبسوطة بالرغم من كرويتها فى حقيقة الأمر والواقع تنبيه على قدرة الله وبديع صنعه »[3] . وهذا صحيح ، ونستطيع أن نضيف إليه أنه سبحانه فى هذه الآيات وأشباهها إنما ينبه عباده إلى ما يَرَوْنَه ويحسونه من تمهيد الأرض وتهيئتها لعيش البشر فوق سطحها رغم أنها فى حقيقة الأمر كروية ، إذ لو كانت مع كرويتها غير مبسوطة إلى آماد شاسعة لا تبلغها العين لكانت هذه الكروية حائلة دون صلاحها لعيش البشر عليها . فإلى ذلك لا إلى كروية الأرض تشير هذه الآيات تذكيرا بنعمة الله عليهم .

(١) نظرات عصرية / ٣٧٨ ـ ٣٨٠ .

(٢) وذلك فى قوله تعالى : « وإلى الأرض كيف سُطِحَتْ » (الغاشية / ٢٠) ، « أمّن جعل الأرض قَرارا ؟ » (النمل / ٦١) ، « ألم نجعل الأرض مِهادا ؟ » (النبأ/ ٦) ، « والله جعل لكم الأرض بِساطا » (نوح / ١٩) .

(٣) نظرات عصرية / ٤٩٧ .

ونختم حديثنا فى ردود جمعة على أباطيل المستشرقين بقوله ، عند تفسيره للآية السابعة من سورة « الضحى » ، ونَصُّها : ﴿ ووجدك ضالاًّ فهدى ﴾ ، إنها « آية طالما رددها المبشرون وطبّلوا ورقصوا وزمّروا ، وتنطّعوا للكذب فى تفسيرها وشمّروا ، فقد ظنوها فى ضلال عماهم غاية الاعتراف بذم الرسول والقدْح فيه بنص من القرآن فتراهم يسارعون للإيمان بها وتصديقها لأنها فى زعمهم تنطبق على هواهم مسارعَتَهم للكفر بغيرها من الآيات » . ثم يسارع إلى تفسير هذا الموقف المريب من المستشرقين مُرجِعا إياه إلى تعصبهم وتجاهلهم لحقائق اللغة وسوء نيتهم وخداعهم ومبينا أنهم فى موقفهم هذا إنما يشبهون من يقول : ﴿ لا تقربوا الصلاة ﴾ ثم يَخْرَس فلا يقول : ﴿ وأنتم سكارى ﴾ ، وإلا لعرفوا أن الضلال هنا لا يعنى الكفر والوثنية بل حيرته عليه السلام فى العثور على السبيل التى ينبغى أن يسلكها لإبلاغ رسالته فى بداية نزول الوحى عليه أو الطريقة التى يتوجه بها إلى مولاه ويعبده على أساسها قبيل بدء الرسالة، أو ربما كان الضلال بمعنى السهو والنسيان . ذلك أن محمدا ، حتى قبل بعثته ، كان يبغض الأوثان والفواحش بغضا شديدا ، ومن ثم فلا يعقل أن يكون معنى الضلال هنا هو ما طار به المبشرون فرحا بأية حال[1] .

(١) ص ٥٠٥ ـ ٥٠٧ . وقد سبق أن رددتُ بالتفصيل على الخبط الاستشراقى بخصوص هذه الآية فى كتابى « دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية ـ أضاليل وأباطيل » ، الذى ألّفته قبل أكثر من أربع سنوات ثم أخذه أحد الناشرين قبل ثلاثة أعوام وراجعت تجارب طباعته مرتين ، ولكنه لم يصدر حتى الآن رغم كل ذلك .

ومن الجوانب التى تستحق الدراسة أيضا فى تفسير محمد لطفى جمعة المقارنات التى يعقدها بين القرآن الكريم وبين الكتاب المقدس والتلمود والآثار الأدبية العالمية. فمن المقارنات مع الكتاب المقدس والتلمود قوله ، فى تفسير الآيتين السابعة والتسعين والثامنة والتسعين من سورة « البقرة » اللتين تتحدثان عن كراهية بنى إسرائيل لجبريل عليه السلام وتفضيلهم ميكائيل عليه ، إن هؤلاء القوم قد بلغوا فى فجورهم وقتلهم أنبياءهم واضطهادهم أنبياء غيرهم أنهم فاضلوا بين الملائكة فقالوا : « نكره جبريل ونحب ميكال ، لأن ميكال مَلَك اللطف والظرافة والهدوء ، وجبريل ملك الأوامر النافذة » ، مع أن الملائكة ليسوا إلا أرواحا مباركة تطيع الله وتنفذ أوامره . ثم بيّن جمعة أن السبب فى ذلك الموقف من جانبهم راجع إلى ما فى سِفر دانيال من أنه « فى ذلك الوقت يقوم ميخائيل الرئيس الأعظم القائم لبنى شعبك ... إلخ » ، بخلاف جبريل الموصوف فى القرآن والعهد القديم والجديد بأنه رسول ينقل الوحى إلى الأنبياء (كما فى سفر دانيال / ١٦/٨ ، ولوقا / ٢٦١٩/١ ، إلى جانب الآيات المتعددة التى تذكر اسمه صريحا أو تسميه «روح القدس» ، و « كل ما ظهر على اليهود والمشركين من العداوة للنبى والوحى يدل على ما انطوت عليه نفوسهم من الشر والخبث »[(١)] .

ولو قابلنا بين ما قاله لطفى جمعة هنا وما قاله ابن كثير من مفسرينا القدماء مثلا لوجدنا جمعة يستعمل تعبيرات عصرية مثل : « ميكال مَلَك اللُّطف والظرافة والهدوء » و « جبريل يأتى بالأوامر النافذة » مما لا نجده فى الروايات الخاصة بتفسير الآية . إنما نجد مثلا : « ميكائيل

(١) نظرات عصرية / ٨١ _ ٨٢ .

الذى ينزل بالرحمة والقَطْر والنبات » أو أنه « يجىء بالخصب والسلم » أو أنه « ملك الرحمة والرأفة والتخفيف » ، وأن « جبريل لا يأتى إلا بالحرب والشدة » أو أنه « يجىء بالحرب والسَّنَة » أو أنه « مَلَك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب »[(١)] . كذلك نلاحظ أن مؤلفنا لم يذكر ما ادعاه اليهود من أن جبريل عدو لهم ، ومع هذا فيُحسَب له أنه بيّن السر فى موقف اليهود من هذين المَلَكين الكريمين وأنهما ليسا هما المقصودين بكل هذا الكلام بل محمد عليه الصلاة والسلام ، الذى كانوا يعلمون يقينا أنه رسول من عند رب العالمين لكنهم لم يشاؤوا مواجهة الأمر مواجهة صريحة بل لفّوا وداروا والتوَوْا فى خبثِ كديدَنهم وأدخلوا جبريل وميكائيل فى الأمر . كما يحسب له أيضا هذه المقارنة التى أجراها بين القرآن الكريم والعهدين القديم والجديد بالنسبة لهذين المَلَكين والمهمات التى كانا يكلَّفان بها .

ويدخل فى باب المقارنة مع كتب أهل الكتاب وقوفُه عند اسم والد سيدنا إبراهيم عليه السلام وتساؤله عن اسمه : أهو آزَر فعلا كما جاء فى القرآن أم تارَح كما يقول العهد القديم ؟ ورغم ذكره أن التلمود يسميه « آزَر »[(٢)] فإنه يشايع الرأى الذى عليه كثير من المؤرخين

(١) انظر تفسير ابن كثير / عيسى البابى الحلبى / ١ / ١٢٩ _ ١٣٢ .
(٢) الحق أن الذى يسميه " Athar " هو يوزيبيوس أبو التاريخ الكنسى (ق ٣ _ ٤ م) وليس التلمود . أما هذا الأخير فيسميه مرة " Tharah " ، ومرة " Zarah " ، على خلاف سفر « التكوين » (١١ / ٢٧) ، الذى يسميه "Terah". انظر: (Sale's Koran,p.95, note 1 ; Rodwell , The Koran , Dent & Co., London, 1909, p. 323, note 3 ; and Muhammad Asad, The Message of the Qur'ân, Dar al-Andalus, Gibraltar, 1980, p. 183, note 66) . وبالمناسبة فإنجيل لوقا (٣ / ٣٤) =

والمفسرين قائلا إنه هو تارح مادام ورد هكذا فى العهد القديم ومادام إبراهيم قد قَرَنه بالمؤمنين ودعا له معهم بالغفران قائلا : ﴿ ربِّ ، اغفر لى ولوالدىّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ (١)، على حين أنه هو نفسه يقول لآزر: ﴿ أتتخذ أصناما آلهة ؟ ﴾ بما يفيد أنه وثنىّ ، فكيف يدعو له إذن مع المؤمنين بالمغفرة ؟ وللخروج من هذا التناقض (كما يسميه) يرى أن آزر قد يكون شيخا فى عشيرة إبراهيم عليه السلام وتكون مناداته له إذن بـ « أبى » هى من المجاز من باب الاحترام ليس إلاّ (٢) .

والحق أن إشارة لطفى جمعة إلى تسمية والد سيدنا إبراهيم بـ «آثر» هى من الأهمية بمكان ، فقد حيّر الاختلاف بين اسمه فى القرآن واسمه فى العهد القديم كثيرا من المفسرين والمؤرخين ودفعهم إلى القول بأنه « تارح » مخالفين بذلك نصا صريحا فى القرآن لا يحتمل تأويلاً (٣). وها هو ذا أكبر مؤرخى الكنيسة يقول إنه « آثر »، وهى قريبة

= يسميه " Tharah " متابعا بذلكِ التلمودَ لا العهدَ القديم . ومثلُ ترجمة الكتاب المقدس الإنجليزية فى هذا الترجمة الفرنسية التى تسميه على التوالى "Téra" و "Thara" . ومن هذا يتضح مدِى التخبط الذى يتخبطه اليهود والنصارى حول هذا الاسم مما ينبغى معه ألا نولِى ما يقولونه فى هذه المسألة أية أهمية . وجدير بالذكر أن الاختلاف المذكور بين سفر « التكوين » وإنجيل لوقا فى كتابة اسم تارح لا وجود له فى الترجمة العربية ، وهو دليل آخر على العبث الذى طال هذا الاسم فى تلك الترجمة .

(١) إبراهيم / ٤١ . وقد حدث فى كتابة الآية خطأ مطبعى ، إذ سقطت لام الجرّ من « وللمؤمنين » (نظرات عصرية / ١٧٠) .

(٢) نظرات عصرية / ١٦٩ _ ١٧٠ . ومن قبلُ قال مولاى محمد علي وملك غلام فريد الأحمديان فى ترجمتيهما للقرآن (عند تفسيرهما لآيات « الأنعام ») بما يقوله لطفى جمعة ، إذ ذكرا الرأى الذى اختاره وساقا نفس الحجة التى استعملها.

(٣) انظر فى اختلافات علمائنا القدامى حول هذه النقطة تفسير القرطبى (الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٨٧م / ٧ / ٢٢ _ ٢٣) وكذلك تفسير المنار

جدا من « آزر » ، ومعروف أن أسماء الأعلام قد يعتريها بعض التغيّرات فى رحلة انتقالها من لسان إلى لسان ، أو لعل يوزيبيوس أخطأ وحرّف الزاى إلى ثـاء(١) . وقد نقل الشيخ رشيد رضا فى تفسير « المنار » عن الرازى أن الملاحدة قد اتخذوا من الاختلاف بين القرآن الكريم والعهد القديم فى اسم والد إبراهيم مطعنا فى القرآن (٢) ، ولذلك قلت إن إشارة لطفى جمعة إلى أن اسمه « آثر » هى من الأهمية بمكان . ذلك أن من شأنها إسكات أمثال هؤلاء الملاحدة الذين يجعلون كتب القوم عيارا على القرآن الكريم مع ما ثبت عند أصحابها وعندنا وعند الناس أجمعين من دخول العبث والتحريف فيها وأن معظمها أقاصيص وحكايات كتبوها بأيديهم فى أزمان متطاولة اعتمادا على الذاكرة . وهذه الكتب ليست حجة فى مسائل الأسماء والأنساب بالذات ، فإنها تخطئ فى ذلك أخطاء قاتلة كما فى حالة حَمِى موسى ، الذى سماه العهد القديم ثلاث تسميات مختلفة : فمرة هو « يثرون » ، ومرة هو « رعوئيل » ، ومرة هو « حوباب بن رعوئيل » (أى أنه ابن نفسه !)(٣) ، وكالملك يهورام ، الذى جعله العهد القديم يُولَد قبل أبيه بعامين ، وكالمسيح عليه السلام ، الذى اختلفت كتب العهد الجديد فى سلسلة نسبه اختلافا فاضحا بل ونَسَبَه لوقا ومتى إلى داود عن طريق

(١) جاء فى ترجمة محمد حميد الله الفرنسية للقرآن الكريم أن « تارح » تُكْتَب باليونانية " Thara " ، كما قد تُكْتَب أيضا " Athar " ، ومن هنا جاءت « آزر » (Muhammad Hamidullah, Le Saint Coran, 8 ème édition , Beyrouth, 1973, p. 174) .

(٢) تفسير المنار / الهيئة المصرية العامة للكتاب / العدد ٣٥ / ٤٤٨ .

(٣) خروج / ٢ / ١٨ ، و ١ / ٣ ، وعدد / ١٠ / ٢٩ ، وقضاة / ٤ / ١١ .

يوسف النجار ، وكأنهما بذلك يؤيدان فرية اليهود على مريم البتول عليها السلام[١] .

وعلى هذا فلا داعى أبدا بل لا معنى للقول بأن مناداة إبراهيم لآزر : « يا أبَتِ » هى من المجاز ، وبخاصة أن النص القرآنى صريح تماما فى أنه أبوه ، لا على لسان إبراهيم فقط بل فى كلام ربنا سبحانه وتعالى أيضا حيث يقول : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر : ... ﴾[٢] ، و ﴿ إلا قولَ إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك ، وما أملك لك من الله من شىء ﴾[٣] ... إلخ ، أما أن إبراهيم قد دعا له بالغفران فلا يعنى هذا أبدا أنه كان مؤمناً ، وإلا لما قال هو نفسه عن ذلك الوالد : ﴿ إنه كان من الضالين ﴾[٤] ، ولما قال له محذرا من سوء المصير : ﴿ يا أبت ، لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عَصيًا * يا أبت ، إنى أخاف أن يَمَسَّك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليًا ﴾ ، ولما رد عليه أبوه قائلا : ﴿ أراغبٌ أنت عن آلهتى يا إبراهيم ؟ ﴾[٥] . وعلى أية حال فإن استغفار إبراهيم لأبيه رغم شركه هو كاستغفار المسلمين فى عهد النبى لأقاربهم من المشركين ، ذلك الاستغفار الذى استدعى نزول وحى ينهاهم عنه وينبههم إلى أن إبراهيم إذا كان قد استغفر لأبيه فلم يكن ذاك إلا ﴿ عن مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إياه ﴾ ، لكنه ﴿ لما تبين له أنه عدوٌ لله تبرأ

(١) لوقا / ٢ / ٤١ ـ ٤٨ ، ومتى / ١ / ١ ـ ١٧ .
(٢) الأنعام / ٧٤ .
(٣) الممتحنة / ٤ .
(٤) الشعراء / ٨٦ .
(٥) مريم / ٤٤ ـ ٤٦ .

منه ﴾[١] . بل إن النبى عليه السلام قد استغفر لابن أبى سلول المنافق ، والنفاق أشد من الكفر . وننتهى من ذلك إلى أن اسم والد إبراهيم هو « آزر » ، أما « تارح » فلا نشغل أنفسنا به ، فقد يكون مؤلفو سفر « التكوين » فى العهد القديم قد أخطأوا فيه أو يكون لقباً له ، أما أن نَقْلب الأمر ونجعل كتب اليهود مهيمنة على القرآن الكريم فكلاً وألف كلاً !

وكَمِثْل موقفه من اسم والد إبراهيم يرى المرحوم لطفى جمعة أن شعيبا ليس هو شعيبا بل يثرون بن بويب بن مدين وأنه قد ذُكِر باسم شعيب لشهرته[٢] . وهو هنا يشير إلى ما ورد فى العهد القديم من أن حَمَا موسى كان اسمه يثرون ، متابعا بذلك بعض المفسرين الذين قالوا إن الشيخ الكبير الذى سقى موسى لابنتيه ماشيتَهما وتزوج إحداهما هو نفسه شعيب ، وجاعلاً الكلمة الفصل فى حقيقة اسم ذلك الرجل للعهد القديم ، مع أن العهد القديم كما ذكرت آنفا قد اضطرب فى تسمية هذا الشيخ ثلاث مرات. والواقع أن القرآن لم يقل من قريب أو من بعيد إن حما موسى هو النبى شعيب ، ولو كان هو شعيباً لكان غريبا أشد الغرابة ألا يزيد القرآن فى التعريف به عن قوله على لسان بنتيه إنه « شيخ كبير » وألا يصرح بأنه هو النبى شعيب رغم الدور الكبير الذى قام به فى تلك الفترة القلقة المتوجسة من حياة موسى عليه السلام حين هرب من مصر إلى أرض مدين ، ولكان غريبا أيضا ألا

(١) التوبة / ١١٤ .
(٢) نظرات عصرية / ١٨٠ .

يَرِد لموسى أى ذكر فى كل المواضع القرآنية التى روت قصته . وليس هناك من صلة بين حمِى موسى والنبى شعيب سوى أن كليهما من تلك البلاد ، لكن هذا بطبيعة الحال لا يكفى للقول بأنهما شخص واحد، وبخاصة أن العهد القديم يقول عن يثرون ذاك إنه كان كاهنا ، وشتان بين كهانته ونبوة شعيب ! ولقد كان المرحوم سيد قطب يقول فى بداية أمره بأنه شعيب ثم عدل عن ذلك الرأى[1] . وقد توسعتُ فى درس هذه المسألة فى كتابى « سورة طه ـ دراسة لغوية أسلوبية مقارنة » فيُرْجَع إليه[2] .

وعن لوط يقول د. جمعة إن اليهود لا يحبونه ولا يعدونه نبيا ، وقد رسموا له فى العهد القديم صورة رديئة ، أما المستشرقون فبعضهم يثبت له النبوة مثل چورچ سيل (Sale) وبعضهم ينفيها مثل ورِى[3] (Wherry)[4] . ويقصد جمعة بالصورة الرديئة التى رسمها اليهود للوط ما جاء عنه فى سفر « التكوين » من أن بنتيه قد سقتاه خمرا وتعاورتا النوم معه وهو سكران ليلتين متعاقبتين وحبلتا منه .

وهو يضع قوله عز شأنه عن ولادة مريم لعيسى عليهما السلام : ﴿ فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة. قالت: يا ليتنى متُّ قبل هذا وكنت

(١) انظر « فى ظلال القرآن » / دار الشروق / بيروت / ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م / ٥ / ٢٦٨٧ / هـ ١ .

(٢) ط. دار النهضة العربية / ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥م / ٧٧ ـ ٧٨ .

(٣) يكتبها جمعة « هرى » . ووِرِى وسيل من مترجمى القرآن إلى الإنجليزية .

(٤) نظرات عصرية / ١٧٩ .

نَسْيًا منسيًا ﴾[1] بإزاء ما رواه العهد الجديد عن الموضوع ذاته ، متخذا منه دليلا على أن ما جاء فى الأناجيل عن الحفلات السماوية وحضور ملوك المجوس من أنحاء الأرض هو محض أساطير[2] . ومن الواضح أنه هنا قد جعل القرآن هو المعيار الذى يحاكَم إليه ما عند أهل الكتاب ، وهذا هو الموقف السليم .

ونفس الشيء يفعله فى رده على من رَمَوْا القرآن بالخطإ لأنه جعل لفرعون وزيرا اسمه هامان ، فقالوا إن هامان ليس اسما مصريا ، فكيف يكون صاحبه وزيرا فى مصر ؟ والصواب فى نظرهم هو أنه كان نديما لملك فارس (أحشويروش) الوارد ذكره فى سفر « أستير » من العهد القديم . وقد كان رد المرحوم لطفى جمعة أنه « لا يوجد ما يمنع أن يكون لفرعون وزير بهذا الاسم ، وقد يكون من بنى إسرائيل أنفسهم . وقد تعود ملوك مصر أن يأخذوا وزراء من الأجانب (نوبار باشا وغيره) . وليست التوراة[3] الموجودة الآن ولا فى زمن محمد صادقة دائما فى الوقائع والأسماء والتواريخ . فهذا نقد فى غير محله ، ومع ذلك فقد

(١) مريم / ٢٣ .

(٢) نظرات عصرية / ٢٨٩ .

(٣) يستعمل المؤلف دائما كلمة « التوراة » ، وأنا أفضل عليها كلمة « العهد القديم » ، لأن التوراة كتاب سماوى أُنزل على موسى ، أما الذى بين أيدى اليهود الآن فهو كتب كتبوها بأنفسهم ، علاوة على أنها لا تختص بموسى عليه السلام بل تحكى تاريخ بنى إسرائيل منذ أقدم عصورهم حتى آخر نبى ظهر فيهم قبيل عيسى عليه السلام .

ثبت من دراسة الآثار السورية أنه كان هناك إله اسمه هامانى أو حامانى (Hamani) اشتهرت عبادته فى حلب منذ منتصف الألف الثانى قبل الميلاد ، والصلات بين مصر وسوريا قديمة جدا ترجع إلى ملوك الدولة القديمة المعروفين أمثال زوسر وسنفرو وخوفو وغيرهم ، فلا غرابة إذن أن يكون اسم « هامان » معروفا فى مصر أيام فرعون موسى »[1]. وقد كنت أتمنى لو كان هذا موقف د. لطفى جمعة من الكتاب المقدس على الدوام ، إذن لما قال فى آزر وشعيب واسميهما ما قال . وعلى أية حال فقد احتوت هذه السطور الوجيزة على أهم ما قيل فى الرد على من يتهمون القرآن فى هذا الموضوع بالخطإ[2] .

وهو يفسر كلمة « لغوب » فى قوله جل جلاله : ﴿ ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسَّنا من لُغُوب﴾[3] فى ضوء ما افتراه كَتَبَة العهد القديم فى سفر « التكوين » على الله سبحانه من أنه خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استراح فى اليوم السابع[4]، وكأنه عز شأنه واحد من البشر الذين يتعبون ويحتاجون إلى

(١) نظرات عصرية / ٣٣٢ .

(٢) عالجت هذه المسألة بتفصيل شديد فى كتاب لى مرقوم على الحاسوب منذ عدة أعوام وصورت منه عدة نسخ وزعتها على الأصدقاء ، وعنوانه « مع الجاحظ فى رسالة الردّ على النصارى » ، وأرجو أن يُنشَر قريبا . وقد استغرقت هذه المعالجة حوالى أربعين صفحة .

(٣) ق / ٣٨ .

(٤) نظرات عصرية / ٤١٨ .

قسط من الراحة حتى يمكنهم أن يستأنفوا أعمالهم مرة أخرى بنشاط .

ونختم هذه الشواهد بما قاله تعليقا على الآيات ٢٨ ـ ٣٥ من سورة « غافر » ، وهى الآيات التى تتحدث عن مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه وينصح فرعونَ ورجالَه بألا يحاولوا قتل موسى عليه السلام ، إذ يرى مؤلفنا أنه « يمكن المقارنة بين خطاب هذا المؤمن المتكتم وبين جمالئيل (Gamaliel) ، الذى نصح بالمسالمة مع رسل المسيح (أعمال الرسل / ٥ / ٣٩)... وخطبة المؤمن المتكتم فى سورة « غافر » هى لنهى فرعون عن قتل موسى ... ونلاحظ أن خطبة هذا المؤمن قيلت فى مجلس فرعون ، أما خطبة جمالئيل فقيلت فى مجلس الشعب الإسرائيلى وبعد وفاة المسيح بعدة سنوات ، فخطبة المؤمن أهم لأنها أنقذت حياة موسى »[1]. ولسنا بحاجة إلى أن نوضح أن جمعة لا يقصد أن هذه القصة هى تلك ، بل كل ما هنالك أن موقف الرجل المؤمن فى القصتين واحد ، بيد أنه لا مناص رغم ذلك من التنبيه إلى أن فى قصة « أعمال الرسل » كثيرا من الخرافات التى لا تدخل العقل، إلى جانب تأليهها للمسيح عليه السلام[2].

ولا تقتصر مقارنات جمعة على المقارنة بين القرآن والكتاب المقدس

(١) نظرات عصرية / ٣٨٥ ـ ٣٨٦ .

(٢) وهذا هو ما يمنعنى من القول بأنها ربما كانت هى المقصودة فى آيات « أصحاب القرية » فى أوائل سورة « يس » .

بل تكررت بين القرآن وكتب الأدب العالمى ، كصنيعه عند حديثه عن صورة العالم الآخر فى كتاب الإسلام ، إذ أعطى صورة سريعة للكيفية التى تناولت بها « أوديسة » هومير و « الكوميديا الإلهية » لدانتى هذا الموضوع [(١)] . وقد مرت بنا المقارنة التى عقدها بين مَنْ ذَكَر القرآنُ أن الله قد أماته مائة عام ثم بعثه هو وحماره الذى كان قد مات معه ولم يبق منه إلا العظام وبين « ريب ڤان وينكل » بطل قصة الأديب والدبلوماسى الأمريكى واشنطن إرفنج المعروفة بهذا الاسم . كذلك يذكّر كاتبنا حديثُ القرآن الكريم عن هاروت وماروت وما قاله المفسرون من أن السحر الذى كان ذانك المَلَكان يعلّمانه للناس للتفريق بين الزوجين لا يفيد مُشْتَرِيَه فى الآخرة بل يؤذيه ، بقصة « فاوست » التى ألفها الأديب الألمانى جوته ، وهى (كما يقول) « أسطورة عالم باع قلبه للشيطان على مدى ثلاثين عاما فكانت عاقبته السوء والخزى والعذاب » ، ثم يستطرد موضحا أن هذه القصة ليست من ابتكار جوته بل إحياء لأسطورة قديمة كانت مشهورة فى العصور الوسطى [(٢)] .

أما بالنسبة لقصة « يوسف » فى السورة المسماة باسمه فقد ذَكَر أنها فتنت الكتاب والشعراء والأدباء والمصورين المسلمين فى كل زمان ومكان كالكتامى شيخ مصورى العراق فى القرن الثالث الهجرى ، الذى

(١) نظرات عصرية / ٣٩ ـ ٤٠ . وقد أعاد جمعة الإشارة إلى « كوميديا » دانتى فى هذا السياق فى ص ٢٥٤ .

(٢) ص ٨٤ ـ ٨٥ .

أبدع فى رسم يوسف وهو بالجُبّ ، وحافظ الشيرازى وفريد الدين العطار وسعدى والفردوسى وغيرهم من شعراء فارس والهند وتركيا ، الذين نظموها شعرا ، زيادة على توماس مان الأديب الألمانى المعروف الذى زار مصر فى أوائل الربع الثانى من القرن الحالى ليجمع مادة الرواية التى ألفها حول هذا الموضوع . ولم يكتف جمعة بهذا بل أضاف أن القصة القرآنية لا تدانيها فى الروعة الفنية أية قصة أخرى فى الآداب الأوربية المشهود لها بالسبق فى هذا المجال [(١)] .

وتظهر «الأوديسة» مرة أخرى فى تفسير كاتبنا للآية الثانية والتسعين من سورة «النحل» ، وهى الآية التى تشير إلى ﴿ التى نقضَتْ غزْلها من بعد قوةٍ أنكاثا ﴾ ، إذ يقول إنها هى « پينولوپ زوجة عوليس لتهرب من خُطّابها كما ورد فى « الأوديسة » للشاعر الإغريقى هوميروس ، فكانت تغزل أثناء النهار وتفكّ ما تغزله فى الليل حتى لا تنتهى من صنع ملابس الزفاف التى بدونها لن يتم زواجها من أحد الطامعين فيها، حتى جاء زوجها أوديسوس وقضى عليهم . ولفظ « پنيولوپ » مركّب من كلمتين : الأولى تعنى : نسيج أو غزل ، والثانية تعنى : يفك أو ينقض الغزل » [(٢)] . بيد أن المعنى على هذا النحو لا يستقيم ، لأن نقض الغزْل فى الآية رمز للغدر ودليل على الاضطراب والحمق وتضييع الوقت

(١) ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

(٢) ص ٢٦٧ .

والجهد عبثا ، أما فى « الأوديسة » فعلامة على الوفاء وحسن الحيلة . ثم إن العرب لم تكن تعرف « الأوديسة » ولا حتى بعد ظهور الإسلام وبلوغ الثقافة الإسلامية أَوْجَها فى العصر العباسى واتساع الاتصال بين العرب والفكر الإغريقى . وها هو ذا الطبرى زعيم المفسرين آنذاك يقول إنها امرأة حمقاء (أو خرقاء) بمكة كانت تنقض غزلها بعد أن تُبرِمه فضُرِب بها المثل [١] .

وتبقى بعض مسائل متفرقة تستلزم المناقشة قبل أن نترك هذ التفسير . وأولى هذه المسائل هى قول كاتبنا إن عقوبة آدم بطرده من الجنة « لم تكن ... على المعصية بل لأن حكمة الله فى حكم عبيده وقانون ربوبيته ومقتضى عبوديته أن ينسب لهم مخالفة لتظهر له حجة عليهم . وهذه لا تقبل الجدل لأنها من قواعد الحكم الإلهى بالنسبة لعبيده »[٢] . وكلام جمعة على هذ النحو يوحى بأن الله قد فعل مع آدم ما فعل استبدادًا منه سبحانه ليس إلا ، وحاشا لله أن يصنع صنيع المستبدين ! والقرآن واضح فى هذا الأمر ، فقد حذر الله سبحانه آدم منذ البداية من الاقتراب من الشجرة ورأى آدم بعينه مدى البغض الفتاك الذى يكنه إبليس له ، ومع ذلك فقد أصاخ السمع لهذا العدو المبين وصدّق ما قال

(١) انظر تفسير الطبرى المسمَّى « جامع البيان فى تفسير القرآن » / دار الريان للتراث/ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م / ٧ / ١١١ .

(٢) نظرات عصرية / ٦٩ .

ونسى النهى والتحذير الإلهى . فليس فى الأمر إذن شبهة لأى استبداد من جانب الله .

والثانية من هذه المسائل أنه ، رحمه الله ، قد فسر فى موضع من المواضع كُلاً من كلمتى « طه » و « يس » بأنها اسم للنبى عليه الصلاة والسلام [١] . وكان قد سبق له تفسير « طه » بأن معناها : « يا رجل » أو « يا هذا » [٢] . وقد تناولتُ هذه النقطة واستعرضت أقوال المفسرين فى معنى « طه » فى كتابى « سورة طه ـ دراسة لغوية أسلوبية مقارنة » ، ولكنى أجتزئ هنا بما قلته عن تفسيرها بـ « يا رجل » أو « يا هذا » أو بأنها اسم من أسماء الرسول عليه الصلاة والسلام . فأما القول بأن معنى الكلام هو « يا هذا » فتوجيه متكلف ، لأنهم يقولون إن « يا » قد قُلِبتْ إلى « طا » ، وكلمة « هذا » قد حذفت منها « ذا » التى هى اسم الإشارة وبقيت منها « ها » التنبيه . وبعيد جدا أن يُحْذَف اسم الإشارة ، وهو الأصل ، وتبقى « ها » التنبيه ، وهى مجرد سابقة تدخل عليه ولا تستقل بنفسها ، فضلا عن أن تدل على شىء بذاتها . ومسألة انقلاب « يا » النداء إلى « طا » غير معروفة فى العربية . ثم لو افترضنا بعد ذلك كله أن هذا التفسير صحيح ، فهل يُعْقَل أن يخاطب اللهُ سبحانه رسولَه الكريم بـ « ياهذا » ؟ إن هذا

(١) ص ٣٦٩ .

(٢) ص ٢٩٦ .

الأسلوب الندائى لا يخلو من اللامبالاه بالمنادَى والغضّ من شأنه ، وهيهات أن ينادى الله به رسوله عليه السلام ! كذلك فإننا نستبعد أن يكون « طه » (أو «ياسين») اسما للرسول ﷺ . ذلك أن أسماء الرسول وصفاته معروفة المعانى والاشتقاقات ، أما « طه » فمجهولة من هذه الناحية وتلك ، ولا نعرف أن أحداً من الصحابة قد سمى الرسول أو وصفه بهذه الكلمة . ليس ذلك فحسب ، بل إن الله سبحانه وتعالى لم ينادِ رسوله فى القرآن باسم من أسمائه ، وإنما ناداه بـ « يا أيها النبى » أو « يا أيها الرسول » ، أما « يا أيها المزمل » و « يا أيها المدثر » فالنداء فى كل منهما هو نداءٌ له بصفةٍ تصور حالته عليه السلام آنذاك لا باسمه . ثم إنه لم يحدث فى القرآن أن حُذِف حرف النداء فى خطاب الله عز شأنه لرسولنا الكريم . وأقرب التفاسير للصواب هو القول بأن هاتين الكلمتين مجرد حروف مقطعة مثل « ألم ، ألمص ، طس ، ص ، ق ، ن ... إلخ »[1] .

أما ثالثة هذه المسائل فهى قول مؤلفنا : « إن اعتقاد المسلمين بأن « البارقليط » هو النبى العربى ليس حديثا كما يتبادر إلى الذهن خصوصا بعد نشر إنجيل برنابا منذ عشرين عاما فى مصر ، وإنما هو قديم ، فقد روى جلال الدين السيوطى أنه ورد إلى مصر عالم نصرانى من الفرنجة وقال للعلماء : لى شبهة إن أزلتموها أسلمت . فعُقِد له

(١) لمزيد من التفصيل يُرْجَع إلى كتابى المذكور / ٦٣ ـ ٦٦ .

مجلس بدار الحديث الكاملية ... ، ورأس العلماء إذ ذاك الشيخ عز الدين ابن عبد السلام ، فقال له العالم النصرانى ، والناس يسمعون الجدل وقد اجتمعوا له من كل فج : أىٌّ أفضلُ عندكم : المتفقَ عليه أو المختلَف فيه؟ فقال شيخ العلماء : المتفق عليه . فقال العالم النصرانى : قد اتفقنا نحن وأنتم على نبوة عيسى بنصوص القرآن واختلفنا فى نبوة محمد ، فيلزم أن يكون عيسى أفضل من محمد . فأطرق الشيخ عز الدين ساكتا ثم رفع رأسه وقال : عيسى قال لبنى إسرائيل : ﴿ ومبشّرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾ ، فيلزمك أن تتّبعه فيما قال وتؤمن بأحمد الذى بشّر به »[1] . يقصد أن « أحمد » هو معنى « البارقليط » ، وهذا صحيح، ولكننى أُضيف إليه أن اعتقاد المسلمين فى كون « البارقليط » يعنى النبى محمدا هو أقدم من ذلك كثيرا ، فقد كتب ابن إسحاق فى « سيرته » يقول : « وقد كان فيما بلغنى عما كان وَضَعَ عيسى بن مريم فيما جاءه من الله فى الإنجيل لأهل الإنجيل من صفة رسول الله ﷺ مما أثبت يُحنّس[2] الحوارى لهم حين نسخ لهم الإنجيل عن عهد عيسى بن مريم عليه السلام فى رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم أنه قال : من أبغضنى فقد أبغض الربَّ ، ولولا أنى صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلى ما كانت لهم خطيئة ، ولكنْ مِنَ الآن بَطِروا وظنوا أنهم يعزوننى ، وأيضا للرب . ولكن لا بد من أن تتم الكلمة التى فى الناموس:

(١) ص ٤٤٩ .

(٢) أى يوحنّا .

أنهم أبغضونى مجانا ، أى باطلا. فلو قد جاء الـمُنْحَمَنَّا هذا الذى يرسله الله إليكم من عند الرب ، وروح القدس هذا الذى من عند الرب خرج ، فهو شهيد علىَّ وأنتم أيضا، لأنكم قديما كنتم معى فى هذا . قلت لكم لكيما لا تشكُّوا ». ثم يعقّب ابن إسحاق بقوله: «والـمُنْحَمَنَّا بالسريانية : محمد ، وهو بالرومية: البَرَقْلِيطِس، ﷺ»[1].

ورابعًا ، فإنى لم أكن أحب أن تفلت عبارات كالعبارات التالية من قلم كاتبنا عند حديثه عن أنبياء الله ورسله : فمثلا وصف نوحًا وهودًا وصالحا عليهم السلام بـ « الأنبياء الفاشلين » [2] ، وهو وصف لا يصح أن يُنْعَت به رسول . صحيح أنه لا يقصد الإساءة دون أدنى شك بل المقارنة بين الرسول محمد ، الذى استطاع أن يغلب قومه وينجح فى كسبهم لصف الإسلام ، وبين هؤلاء الثلاثة من إخوانه الكرام الذين لم يَصِلوا مع أقوامهم إلى مثل هذه النتيجة . لكن التحرز فى العبارة ، رغم حسن النية التام ، واجب فى مثل هذا السياق . وبالمناسبة فقد عاد جمعة بعد ذلك بنحو ثمانين صفحة وكرر كلمة « الفشل » هذه فى حديثه عن هؤلاء الرسل الثلاثة عليهم السلام [3].

ومن هذا الوادى أيضا قوله عن سليمان ، أثناء تصديه لتفسير الآيات

(١) ابن هشام / السيرة النبوية / ١ / ٢١٥ .

(٢) نظرات عصرية / ١٧٨ .

(٣) ص ٢٥٣ .

الخاصة به فى سورة « النحل » ، إن استيلاءه عليه السلام على عرش بلقيس وعلى بلقيس نفسها « لم يكن لأجل الدِّين ولا لهدايتها ، لأن سليمان ، وإن كان نبيا ، لم يكن مبعوثا لأهل سبإ بل ملكا لشعبه بنى إسرائيل ، والذى فعله هذا نوع من السياسة ، وأن سليمان نفسه (كما رأينا) كان شغوفا بالنساء وأنه خضع لهن وجعل لهن عبادة أوثانهن فى قصره (سورة « ص » / آية ٣٤) ، فلا يعقل أن تكون مسألة بلقيس لإخراجها من دينها وإدخالها فى دين اليهود إلا أن تكون المرأة نفسها ، لخضوعها لسليمان عليه الصلاة والسلام ، قد تبعت دينه بمحض إرادتها بعد أن حدثت لها الدهشة من رؤية القصر والمعبد والجيش ومظاهر القوة والثروة فى أورشليم كما حدث لكلوباطره فى رومه ... وأن كلام هدهد (آية ٢٤) عن عبادة الشمس فى سبإ ورغبته المصطنعة فى هدايتهم لم يكن إلا وسيلة أو ذريعة لأجل أن يجد سليمان وسيلة للتعدى على سبإ ، لأن مسألة الدين لم تتقدم عند ذلك خطوة واحدة ، كما قال بعض الساسة فى العصر الحديث : دولة كذا تهين رعايانا أو لا تعطينا مجالا حيويا »[1]. ولى على هذا الكلام اعتراضان :
فأولا : يردد محمد لطفى جمعة ما يقوله العهد القديم عن خضوع سليمان لنسائه وسماحه لهن بأن يعبدن الأوثان فى قصره[2]. وهذا

(١) ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩ .

(٢) لم يكتف لطفى جمعة بهذا بل ذكر فى موضع لاحق (ص ٣٧٨) أن سليمان هو الذى أحضر لهن الأصنام .

اتهام خطير لنبى من أنبياء الله لا يمكن أن يكون صحيحا ، وإلا ما كان للنبوة معنى . ولقد مضى مزيّفو العهد القديم مع افترائهم إلى آخر الشوط فادّعَوْا أن الله قد عاقب سليمان بسبب هذا . وهو نفسه موقفهم مع الأنبياء المذكورين فى العهد القديم، إذ لم يتركوا أحداً منهم تقريباً دون أن يلوثوا سمعته : فنوح شرِّيب للخمر سكِّير تنكشف سوأته وهو غائب عن الوعى مطروح على الأرض من شدة السُّكْر ، ولوط تسقيه ابنتاه خمرا وتتعاوران ارتكاب الفاحشة معه وتحبلان منه ، وإبراهيم لا يجد بأساً فى أن يديّث على امرأته إذا اقتضى الأمر ، وهارون يصنع العجل بيده ليعبده بنو إسرائيل ، وداود يزنى بامرأة قائده وجاره ويتآمر على قتله ليفوز بها دونه ، وسليمان ينظم نشيدا شهوانيا كلُّه حُرُقات جنسية على لسان فتاة تشتعل نار الشهوة فى جسدها وروحها ... إلخ . وكل هذا وأفظع منه مسجَّل فى أسفار العهد القديم ، وذلك غير ما قالوه فى حقّ الله سبحانه . وقد كان الدكتور لطفى جمعة يعرف هذا تماماً ، فكيف سها وصدّق مفتريات اليهود الأنجاس المناكيد على سليمان عليه السلام ، الذى لا يَرَوْنَ فيه إلا مجرد ملك ، إذ هم لا يؤمنون بنبوته؟ أما آية سورة « ص » التى يُحِيل إليها كاتبنا فلا تدل على شىء مما قال بتّةً ، وها هو ذا نصها : ﴿ ولقد فتنّا سليمان وألقينا على كرسيّه جسدا ثم أناب ﴾ ، فهل يوجد فيها ما يشير إلى سماحه عليه السلام لنسائه بعبادة الأوثان فى قصره ؟ لقد ذهب المفسِّرون فى هذه الآية مذاهب شتى ، لكننى أحب أن أقف أمام الآية وجها لوجه وأتساءل مرة ثانية : هل فيها ما يقوله د. جمعة عن سليمان ؟ وثانياً : يصوِّر جمعة ذلك النبىَّ الكريم بصورة دهاة الاستعماريين مصاصى دماء الشعوب الذين يفتعلون الأزمات والخصومات ترتيبا لعدوان بيّتوه من قَبْلُ فى أنفسهم بغية الاستيلاء على بلاد الآخرين ومُلْكهم . وهذا أيضاً مما لا يتوافق مع أخلاق الأنبياء .

وبالمثل لا يصحّ أن يقال عن يونس عليه السلام إنه « ألقى بنفسه فى البحر يأسًا من قومه » (١) ، لأن هذا غير صحيح ، فهو عليه السلام لم يلق بنفسه فى البحر ، إذ إن ذلك انتحار ، والرسل لا يمكن أن يفكروا فى مثل هذا التصرف بله أن يقدموا عليه . أما الذى حدث حقا فهو أنه بعد أن ركب السفينة مع غيره من المسافرين وهبّت العواصف وكان لا بد من تخفيف حمل السفينة أُجْرِيَتْ قرعة لمعرفة من يجب عليه القفز من السفينة فخرجت القرعة عليه ، وهذا مذكور فى القرآن ومعروف .

كما تقابلنا قسوة العبارة أيضاً فى قول مؤلفنا عن نوح عليه السلام: « تخونه زوجته وابنه فلا يبالى » (٢) ، فضلا عن أنها عبارة غير صحيحة. وقد بلغت شدة اهتمام نوح بأمر ابنه أن أخذ يبتهل إلى ربه فى حرارة لاهبة أن يهديه سبيل الصواب فيرعوى عن عناده ويركب معه السفينة حتى لا يكون من المُغْرَقين .

والمسألة الخامسة أن د. محمد لطفى جمعة قد فسّر النفخَ فى الصُّور

---

(١) ص ٤٦٢ .

(٢) ص ٤٦٨ .

والزلزلةَ والقارعةَ فى أكثر من موضع بانقلاب الأوضاع فى الدنيا ونشوء مجتمع جديد بقيم جديدة . يقول مثلاً فى تفسير قوله سبحانه فى سورة « المدَّثِّر » : ﴿ فإذا نُقر فى الناقور * فذلك يومئذ يومٌ عسير * على الكافرين غير يسير ﴾[1] : « والنقر فى الناقور ليس حتما النفخ فى الصُّور ليوم القيامة ، وإنما هو فى رسالة النبى إنذار بتغير الأحوال وذهاب العصر الجاهلى واستقبال العصر الجديد ، عصر الإسلام وحضارته وإصلاحه ، وإن يكن قد نُقر فى الناقور بعد ذلك بقليل فى حروب النبى فى بدر وأُحُد والأحزاب وحُنين وما سبقها وما لحقها من المغازى والملاحم »[2] . وهو نفسه ما يقوله فى « الزلزلة » ، وإن جاء على هيئة سؤال على النحو التالى : « هل هى (أى سورة « الزلزلة ») تنبؤ عن حوادث العصر الحاضر (الرابع عشر الهجرى) حيث حصلت الحروب الكبرى وأصبح أهم ما يشغل الإنسان فى هذا العالم المتقلب على عقبه تساؤل الناس وورود الأخبار عن طريق البرق والمذياع : ﴿ وقال الإنسان: ما لها ؟ * يومئذ تُحَدِّث أخبارها ﴾، ثم تتفرق الشعوب أنواعا وأصنافا: ﴿ يومئذ يَصْدُرُ الناس أشتاتا ليُرَوْا أعمالهم ﴾ ، وعن مستقبل الإنسان بعد الحرب العظمى تكون العاقبة لمن يعمل الخير : ﴿ فمن يَعْمَلْ مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يَرَه ﴾؟ أم أن هذه السورة تتحدث عن بعض مشاهد يوم القيامة كقوله تعالى فى الآية الأولى من

(1) الآيات ٨ _ ١٠ .

(2) تطورات عصرية / ٤٧٧ _ ٤٧٨ .

سورة «الحج» : ﴿ يا أيها الناس ، اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شىء عظيم ﴾ ؟[1] ونفس الازدواج فى المعنى يقول به فى تفسير «القارعة» ، إذ بعد أن يذكر قول المفسرين إنها من أسماء يوم القيامة كالحاقّة والطامّة والغاشية يضيف قائلا : « وقد تكون هى الحادثة العظيمة التى تزيل الأمم من الوجود . وقد زالت أمم كثيرة قبل ظهور الإسلام كقوم نوح وعاد وثمود وأمم أخرى خارج الجزيرة كأهل بابل وأشور ، وفى العصر الحديث زالت إمبراطوريات كبرى كدولة الروس فى حكم رومانوف قبل تقسيمها وفرنسا ... إلخ . ومن يقرأ أو يشهد أصناف الهلاك الذى أصاب الأمم الحديثة بعد الحروب فَهِمَ معنى « القارعة » : ﴿ القارعة * ما القارعة ؟ * وما أدراك ما القارعة ؟ * يوم يكون الناس كالفَرَاش المبثوث * وتكون الجبال كالعِهْن المنفوش ﴾ . وقد تكون القارعة مادية مثل انهيار سد مأرب وطوفان نوح وزلازل اليابان وكارثة بومبى ، وكانت قريش بل العرب عامة قبل الإسلام تُصاب بحوادث عظيمة مادية كالجدب بضع سنين والمجاعات . وأما الذى ينقذ الأفراد والجماعات فى زمن الكوارث فهو صنع الخير الذى يثقل عند وزن الأعمال ... وقوله فى الآية ٩ : ﴿ فأمُّه هاوية ﴾ معناه هلاكه واندثاره »[2] .

ولستُ أظن أن ثمة خطأً فى القول باحتمال النص القرآنى فى هذه

(1) ص ٥٢٠ .

(2) ص ٥٢٤ .

الآيات وأشباهها لمعنيين . وهو شيء يختلف عما لاحظته فى تفسير القاديانيين للقرآن الكريم ، إذ يؤولون مثل هذه الآيات بحيث لا تدلّ إلا على الحوادث الدنيوية فقط ، فقد بدا لى ملك غلام فريد الأحمدى مثلا فى ترجمته التفسيرية للقرآن الكريم وكأنه لا يؤمن بالحياة الآخرة ، وأن الدنيا فى نظره ممتدة بلا نهاية فى دورات متعاقبة ، وأن اليوم الذى يُنْفَخ فيه فى الصُّور هو اليوم الذى ينتصر فيه الإسلام ، وأنّ ﴿ يوم تُبَدَّلُ الأرضُ غَيْرَ الأرض والسماواتُ ﴾ هو اليوم الذى يظهر فيه عالم جديد بنظام جديد بعد انتصار الإسلام ، و ﴿ يومَ تَمُور السماء مَوْرًا * وتسير الجبال سيرا ﴾ معناه أن القوى السماوية ستقف مع الرسول عليه السلام ضد الكفار ، ووقوع الواقعة معناه القضاء نهائيا على عبادة الأصنام فى الجزيرة العربية وهزيمة قريش ، و « يوم الفصل » هو يوم فتح مكة ، وثقل الموازين معناه سيادة الأمم القوية بطائراتها وبوارجها على الأمم الضعيفة ... وهلمّ جرًا . ومع ذلك فإن له كلاماً فى مواضع أخرى من الترجمة المذكورة يُفْهَم منه أنه يؤمن بالآخرة ، وإن لم يكن على النحو الذى نؤمن نحن به [1] .

(1) Malik Ghulâm Farîd, The Holy Qur'ân , pp. 23 (n. 61), 295 (n. 863), 533 (n. 1475), 1127 (n. 2848), 1165 (n. 2956), 1393 (n. 3421)... etc. ولمزيد من التفاصيل يُرجَى الرجوع إلى كتابى « دراسة لتفسير ملك غلام فريد الأحمدى » / ٢٠ وما بعدها . ومن قبل ملك غلام فريد قال مولاى محمد على نفس الكلام تقريبا عند تفسيره هذه الآيات وأمثالها (Maulvi Muhammad Ali, The Holy Qur'ân, pp. 24 (n. 52), 521 (n. 1325), 1008 (n. 2355), 1035 (n. 2425)... etc.).

وآخر ما أريد أن أدرسه من المسائل المتفرقة هو ما لاحظته من تكرُّر إطلاق مؤلفنا أحكاماً هنا وههنا بروعة هذه الآية أو جمال تلك السورة دون تعليل أو تحليل : فمثلاً يصف الآية ٢٨٢ من سورة « البقرة » الخاصة بكتابة العقود بأنها « آية عجيبة » ثم لا يزيد . ومثل ذلك قوله : « ومن الصُّوَر البليغة قوله تعالى ... : ﴿ وهم يَحْمِلون أوزارهم على ظهورهم . ألا ساء ما يَزِرون ! ﴾ ، وقوله : « ومن روائع آياتها (أى آيات سورة « الأحزاب ») : ﴿ إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال ... ﴾ » [1] . ومن المؤكد أنه لو أَتْبعَ هذه الأحكام بحيثياتها لأفاد القارئ فائدة كبيرة ، لكنه للأسف لم يفعل مع أنه كان رجل قانون من الطراز الأول ويعرف قيمة إيراد الحيثيات .

هذا ، ويخيل إلىّ أنْ لو كان الكتاب طُبع فى أثناء حياة لطفى جمعة لأعاد النظر فى بعض الأشياء فيه مما ذكرتُه هنا وما لم أذكره . ذلك أنه تركه على هيئة مسوَّدة غير منقَّحة [2] حسبما خطر لى من خلال قراءتى له وأكده لى الأستاذ رابح ابنه .

* * *

(١) ص ١٠٢ ، ١٦١ ، ٣٥٥ ، وانظر كذلك ص ٢١٩ ، ٢٨٧ ، ٣٦٨ ، ٤٣٨ .

(٢) وكذلك كُتُبه التى تُطْبَع الآن لأول مرة بإشراف ابنه الأستاذ رابح ، وذلك من خلال دار « عالم الكتب » .

ثـورة الإسـلام وبطل الأنبياء

قلّ من الكُتّاب المسلمين المشاهير ، قدامى كانوا أو محدثين ، من ألّف فى التفسير القرآنى والسيرة النبوية معا كما صنع الدكتور محمد لطفى جمعة ، وقلّ كذلك بين كُتُب السيرة أن يبلغ طول الواحد منها ما بلغه كتاب « ثورة الإسلام وبطل الأنبياء » لمحمد لطفى جمعة ، الذى كاد أن يصل إلى ألف صفحة ومائة من القطع الكبير .

وقد صدر الجزء الأول من هذا الكتاب سنة ١٩٤٠م ، ومات صاحبه ، عليه رحمة الله ، دون أن ينشر الجزء الثانى ، لكن الأستاذ رابح لطفى جمعة أصدر الكتاب كاملا فى مجلد واحد بعد وفاة والده بست سنوات فأدّى للثقافة الإسلامية يداً غرّاء .

ومحمد لطفى جمعة واحد من جيل العمالقة : العقاد وزكى مبارك ومحمد حسين هيكل وطه حسين والزيات والمازنى وأحمد أمين وتوفيق الحكيم ... إلخ ، وبعض هؤلاء كَتَب فى السيرة النبوية وفى نفس الفترة التى صدر فيها كتاب « ثورة الإسلام » للمرة الأولى : فالدكتور طه نشر الجزء الأول من « على هامش السيرة » سنة ١٩٣٣م، وهيكل نشر «حياة محمد» سنة ١٩٣٥م ، وتوفيق الحكيم نشر مسرحيته « محمد » بعد ذلك بعام ، والعقاد نشر « عبقرية محمد » فى سنة ١٩٤٢م [١] .

---

(١) انظر د. إبراهيم عوض / محمد حسين هيكل أديبا وناقداً ومفكراً إسلاميا / مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م / ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

ولكي يتضح قيمة الإنجاز الذى قام به جمعة فى مجال السيرة النبوية يَحْسُن أن نقارن بينه وبين هذه الأعمال ، ولأن كتابَي الدكتور طه والأستاذ الحكيم عملان فنيان (روايةٌ ومسرحيةٌ على التوالى) فسوف أخرجهما من ميدان المقارنة وأُبْقِى على « حياة محمد » لهيكل و «عبقرية محمد» للعقاد . ومعروف أن العقاد عندما كتب عن عبقرية الرسول لم يقصد تدوين أحداث السيرة النبوية بدءاً من مولده صلى الله عليه وسلم أو من قبل ذلك كما يفعل بعض الكتاب ، بل كان همه أن يجلّى لنا نواحى العبقرية المحمدية المختلفة فى مجالات الدعوة والحرب والسياسة والإدارة والفصاحة والصداقة والرئاسة والزواج ... إلخ . والكتاب، من هذه الناحية ، لا يشبه « ثورة الإسلام » لا فى المنهج ولا فى الغاية ، بل يشبهه كتاب الدكتور هيكل « حياة محمد » ، وإن كان للعقاد كتاب آخر عن النبى صلى الله عليه وسلم عنوانه « مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية » [(١)] يتضمن بعض المباحث ذات الأرضية المشتركة مع كتاب الدكتور لطفى جمعة .

وأول أَوْجُه المقارنة بين كتابَيْ جمعة وهيكل هو أن المراجع التى اعتمد عليها الأول أكثر كثيراً من مراجع الثانى وأشد تنوعاً ، فضلا عن احتوائها على مراجع باللغة الألمانية ، التى لم يكن يعرفها هيكل ، وإن كان هناك بعض المراجع المشتركة بين الطرفين مثل الكتب التى وضعها

(١) صدر سنة ١٩٥٥م .

إرفنج وموير ومرجليوث ودرمنجم عن نبى الإسلام ، وكذلك « الطبقات الكبرى » لابن سعد ، و« تاريخ الطبرى » ، و « الأصنام » لابن الكلبى، و « أخبار مكة » للأزرقى ، و« زاد المعاد » لابن القيم . وسوف أختص موضوع المراجع عند لطفى جمعة بمزيد من الاهتمام فيما يُقْبِل من صفحات .

كذلك فإن « ثورة الإسلام » أضخم من حجم « حياة محمد » ، بحيث يَضْعُفه أكثر من مرة ونصف ، مع العلم بأن كتاب هيكل من الكتب الضخام فى بابه ، فما بالك بغيره مما لا يبلغ مبلغه ؟

أما من حيث الموضوعات فإنهما يتفقان فى الموضوعات الخاصة بما حدث للنبى منذ مولده إلى وفاته مع اختلاف فى طريقة التقسيم وفى نوع الاهتمام بهذه الأحداث ومداه . لكن بينما نجد لكتاب هيكل مقدمتين كتبهما للطبعتين الأولى والثانية وتحدث فيهما عن الإسلام والمسيحية والخلاف الذى بينهما وعداوة الغرب لديننا والجمود الذى ران على عقول علمائنا والكيفية التى استُقْبِل بها الكتاب عند صدوره للمرة الأولى من قِبَل المتغربين السائرين فى ركاب المستشرقين ... إلخ ، فإننا لا نجد شيئا من ذلك عند جمعة ، بل نجد مكانه بحثاً لم يطرقه هيكل عن « النبوة والوحى فى نظر الفلسفة » [(١)] .

كما أن المبحثين اللذين اختتم بهما هيكل كتابه ، وهما « الحضارة

(١) وقد عاد جمعة فدرس هذا الموضوع دراسة أكثر تفصيلاً من ص ٥٣٠ فصاعدا .

الإسلامية كما يصوّرها القرآن » و « المستشرقون والحضارة الإسلامية » ، ليس لهما ما يقابلهما عند جمعة ، مثلما لا يوجد عند هيكل ما يقابل المباحث الخاصة باللغات ودلالتها على الأجناس الإنسانية وتقسيم هذه الأجناس، وما ورد فى الكتاب المقدس وعلى ألسنة كهّان العرب من تبشير بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتناقض علماء الغرب وحيرتهم فى تفسير الوحى والنبوة مما تناوله جمعة فى كتابه . أما كتاب العقاد « مطلع النور » ففيه فصل غير صغير عن النصوص المبشرة بمجىء النبى محمد عليه السلام ، لكنه لا يقتصر على نصوص الكتاب المقدس بل يشمل أيضاً النصوص الموجودة فى كتب الفرس والهنود . وهو يعتمد فى هذا الفصل على ما كتبه العالم الهندى المسلم مولانا عبد الحق فديارتى والأستاذان أحمد ترجمان ومحمد حبيب ، إلى جانب بعض الكتّاب الأحمديين من أتباع غلام أحمد [1] .

وأمثال هذه المباحث ، وكذلك المباحث الخاصة بدراسة جغرافية بلاد العرب وطبيعة الشخصية العربية التى نلقاها عند كل من هيكل وجمعة لا وجود لها فى كتب السيرة النبوية القديمة ، بل طرأت مع طروء العصر الحديث بما صحبه من اهتمام واسع بمباحث المستشرقين وتقدم كبير فى مجال الدراسات الدينية والتاريخية والنفسية وغيرها .

ورغم أن كُلاً من الكتابين يُظْهِر حُبّ صاحبه لدينه وغيرته عليه فيبدو لى أن حماسة جمعة أشدّ حرارة ، وأسلوبه فى التعبير عنها أبسط

(١) يجد القارئ ذلك فى فصل « الطوالع والنبوءات » من الكتاب المذكور ، وهو أول الفصول بعد المقدمة .

وأكثر تلقائية ، وعباراته فى الرّد على المستشرقين أعنف ، وغيظه منهم أكبر ، كما أن الكتب التى قرأها لهم واستشهد بها وردّ على ما تحويه من مفتريات وسخائم أضخم عدداً . وهذه الحماسة الموجودة فى الكتابين، مع اختلاف فى درجتها بين أحدهما والآخر كما قلنا ، هى مما لا تعرفه كتب السيرة القديمة ، التى كانت ترصد أحداث حياة النبى صلى الله عليه وسلم والوقائع الجسام التى مرّت به وبالمسلمين والغزوات التى خاضها الإسلام ضد عدوان الوثنيين واليهود والنصارى بنبرة هادئة وكأنها عالِمٌ يرصد تجربة فى معمل ، فهو يسجّل ملاحظاته فى حيدة وموضوعية دون أن يترك مشاعره تتدخل فى عمله . والسبب فى ذلك أن قدماءنا لم يُبْتَلَوْا مثلما ابتُلينا فى العصر الحديث بشياطين المستشرقين الذين ينقضّون على النّصوص كالصقور الجارحة فيمتلخونها من سياقها أو يلوونها أو يحرّفونها بحيث تخدم مصالحهم فى الكيد للإسلام ونبيه وكتابه وتاريخه ، كما أنهم لم يكونوا بهذا الضعف المخزى ولا الذّلة المزرية اللذين نحن عليهما الآن ، فكانوا من ثم يكتبون بأعصاب مستريحةٍ واطمئنان شديد .

وقد بدأ اهتمام محمد لطفى جمعة بدراسة التاريخ الإسلامى والسيرة المحمدية قبل تأليفه كتابه الذى بين أيدينا بعشرات السنين ، إذ ذكر لنا أنه لم يألُ أى جهد فى قراءة كل ما استطاع الوصول إليه من البحوث التى كُتِبت عن النبى محمد بالعربية واللغات الأوربية التى يتقنها ، وخرج من هذه الدراسة باتضاح صورة الشخصية النبوية أمام عينيه وبشعوره برغبة عارمة فى الكتابة عنها وتجليتها أمام الشباب المسلم

المثقف بأسلوب يتفق والعقلية الحديثة ويلبّى حاجات العصر ويرد على أعقابها الحملاتِ الاستشراقية التى تستهدف نبى الإسلام ، تلك الحملات التى يكمن وراءها الغرور والحقد [١]. وقد تردد جمعة مع ذلك طويلاً ظنّا منه أن ما كُتب عن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يحتاج إلى مزيد ، لكنه كان يعود فيرى أنه لا تزال هناك جوانب ناقصة فى دراسة سيرة النبى محمد ، جوانب استطاع واحد مثل چون جنتر الصحفى الأمريكى أن يلمسها فى كتابه " Inside Asia " [٢]، حيث ذكر أنه صلى الله عليه وسلم لا ينتمى إلى التاريخ القديم بقدر ما ينتمى إلى التاريخ الحديث . ذلك أن أعماله وإنجازاته تريك بجلاء أنه رجل عصرى بكل معنى الكلمة ، فقد نبذ الدين القديم وقام بالدعوة إلى دين جديد وخاض غمار الحروب والغزوات وفَتَحَ الفتوح ، وهو ما دفع چون جنتر إلى المقارنة بينه صلى الله عليه وسلم وبين قادة الأمم فى العصور الحديثه أمثال ناپليون وچورچ واشنطون ولنكولن وغيرهم . فهذا هو الذى حسم الأمر عند كاتبنا وجعله يقدم على وضع كتابه فى السيرة النبوية [٣].

ويكرر د. لطفى جمعة فى كتابه أنه جرى فى تأليفه على طُرُق

(١) محمد لطفى جمعة / ثورة الإسلام وبطل الأنبياء / دار النهضة المصرية / ١٩٥٨م / ٢٠٢ ـ ٢٠٤ .

(٢) لم يذكر جمعة اسم الكتاب بالإنجليزية بل ترجمه إلى العربية هكذا : « أحشاء آسيا » . وربما كانت عبارة « فى داخل آسيا » أدنى إلى الصواب .

(٣) ثورة الإسلام / ٩٢٠ .

الدرس وقواعد النقد العلمى الحديثة ، فهو يرى مثلا أن من واجب كل كاتب بالعربية الإلمام بسائر ما كشف عنه علماء أوربا من البحوث الحديثة فى أصول الأجناس البشرية ونُظُم الاجتماع الإنسانى مع تمحيص الحقائق التى توصّلوا إليها ونسبة كل رأى إلى صاحبه إلى أن نستطيع الاستقلال فى بحوثنا ويكون عندنا من العلماء المؤرخين مثل ما عندهم [١]. والواقع أن كاتبنا حريص كل الحرص فى كتابه على الرجوع إلى مؤلفات العلماء الغربيين والمستشرقين منهم بخاصة، وحريص فى الوقت ذاته كل الحرص على مناقشة ما يقولون وتمحيصه وتحليله ، وتصويبه إن كان خطأ ، والاستدراك عليه والإضافة إليه إن وجد فيه نقصاً ... وهكذا . وبناءً على ذلك يقول إن فهم أية دعوة من الدعوات يستوجب معرفة صاحبها وأحواله والجماعة التى اتجه إليها بدعوته ، ومن هنا نجده يخصص بعض فصول كتابه الأولى لدراسة جزيرة العرب جغرافيا وتاريخيا واجتماعيا وأخلاقيا حتى يستطيع أن يفهم الإسلام فهما أدقّ

(١) المرجع السابق / ٢٢ ـ ٢٣ . وقد أعلن د. محمد حسين هيكل من قبل أنه يريد أن يدرس حياة الرسول عليه السلام على أساس من قواعد النقد العلمى ، التى أكد أن الكتب القديمة تفتقر إليها . ومن ثم رأيناه يَضْرِب صفحا عن ذكر المعجزات التى تنسبها بعض كتب السيرة القديمة للرسول عليه السلام (انظر كتابى « محمد حسين هيكل أديباً وناقداً ومفكراً إسلاميا » / ٢٣٤ ـ ٢٣٥ متناً وهامشاً). وقد رأينا فى الفصل السابق كيف أوّل د. محمد لطفى جمعة المعجزات التى ذكرها القرآن الكريم للأنبياء والرسل السابقين بما يجعلها أحداثا عادية لا تخرج عن قوانين الكون .

وأفضل . وهو يعتمد فى هذه الدراسة على آراء لفيف من علماء الشرق والغرب على السواء فى جميع مجالات التخصص المتصلة بموضوعه[٢] .

وانطلاقا من هذا الأساس نراه ينتقد اعتماد المؤرخين المسلمين على الأساطير وإحاطتهم إياها بجوّ من التقديس يمنعهم من إعمال عقولهم فيها فحصا ونقدا [٢] . كما يأخذ عليهم أيضاً أنهم يسوقون حياة النبى عليه السلام دون تعليل أو تفسير ، مع حصر الاهتمام فى الرواية والسماع ، على عكس ما ينبغى أن يصنعه المؤرخ الحديث الذى يعرف احتياج القارئ المعاصر إلى درس حياة النبى لا من جهة الوقائع وحدها بل بوصفه إنسانا ذا عقل وقلب وخُلُق نشأ فى بيئة معينة وزمن معلوم وليس مجرد رسول يُوحَى إليه فينفِّذ الوحى ثم ينتهى أمره عند هذا الحدّ [٣] .

وقد حاول لطفى جمعة أن يتناول نسب الرسول عليه الصلاة والسلام على طريقة النقد الحديث ، فعرض لتشكيك بعض المستشرقين فى سلسلة هذا النسب وادعائهم أنها منتحَلة لإيجاد صلة بينه وبين إبراهيم وإسماعيل كى يكون له مظهر شرف ومجد . وهو يردّ عليهم بأنهم ، لامتلاء التاريخ الأوربى القديم والحديث بالأساطير والخزعبلات ، يظنون أن تاريخ الأمة العربية مؤسس هو أيضاً على مثل هذه الخرافات ناسين أن العرب كانوا مهتمين غاية الاهتمام بأنسابهم كما نهتم نحن فى عصرنا بشهادات ميلادنا وبطاقاتنا الشخصية . أما اعتمادُ أولئك المستعربين على الحساب فى إثبات أن ما يُذْكَر عن عدنان الجدّ العشرين للنبى عليه السلام غير صحيح وقولُهم إننا إذا قدَّرنا عمر كل جيل من هذه الأجيال العشرين بثلاثين سنة كان عدنان معاصرا للسيد المسيح عليه السلام مع أن المؤرخين يذكرون أنه حارب بُخْتَنَصَّر السابق على المسيح بستمائة سنة، فالرد عليه عنده هو أن ما يقال عن مثل هذه الحروب إنما هو كلام الغربيين الذى ينبغى أن يكون ما قاله العرب فى نسب النبى هو المعيار الذى نقيسه إليه لا العكس . وإلى جانب ذلك فالقول بأن عُمْر الجيل آنذاك كان ثلاثين سنة هو قول غير مقبول لأن الأمم القديمة كانت مشهورة بطول أعمار أبطالها حتى لقد يتجاوز عمر بعضهم مائة العام . كذلك فمن العجب أن يؤمن العقل الأوربى الذى يمثله هؤلاء المستشرقون بأن بِكْرا بتْولا تحمل وتلد من غير أى اتصال جنسى طفلاً هو نصف إله ونصف إنسان يكبر ويُصْلَب ويُرْفَع إلى السماء ، ثم يرفض هذا العقل نفسه سلسلة نسب الرسول مع خلوّها تماما من تلك المعجزات وخوارق العادات [١] .

---

(١) ثورة الإسلام / ٦٠ وما بعدها على مدى عشرات الصفحات .

(٢) وقد ساق هذا الكلام على لسان أحد طلاب العلم ، وهذه طريقته فى الإشارة إلى نفسه .

(٣) ص ٢٠٩ – ٢١٠ .

(١) ص ٢٢٧ ـ ٢٣٤ .

وانطلاقا من القواعد النقدية الحديثة فى البحث يتريث كاتبنا عند ما أوردته كتب السيرة من أن مَلَكين قد أتيا النبى وهو طفل صغير فى بادية بنى سعد فشقّا صدره وغسلا قلبه ، وهى تلك الحادثة التى اتخذها بعض المستشرقين تُكَأَةً لاتهام النبى عليه السلام بأنه كان مصابا بالصَّرْع ، فيتساءل : كيف يمكننا أن نصدّق ذلك والله سبحانه قادر على تطهير قلب نبيه دون عملية جراحية تُجرَى على أيدى بعض الملائكة ؟ وكيف يمكننا أن نصدق أن أطفالاً بَدْواً لم يشاهدوا فى حياتهم إبريقا أو طستا ، فضلاً عن أن يكون الإبريق من فضة والطست من زمرد ، يستطيعون أن يصفوا هذين الإناءين بالدقة التى سجلتها تلك الكتب ؟ ثم كيف يكون محمد من المصروعين ، وأعراض الصَّرْع معروفة ، وأهمها العض على اللسان وانفراط الأنامل بحيث يقع ما كانت منطبقة عليه وانحطاط القوى العقلية بالتدريج ، ولم يُشاهَد عليه أىٌ من هذه الأعراض قط ، بل على العكس كانت عبقريته وقواه العقلية والفكرية خارقة للعادة طوال حياته ، إلى جانب أنه قد ظل عمره كله صحيح البدن فلم يمرض إلا ثلاثة عشر يوما بحُمىً طارئة ؟

وبالمثل يسخر من زعم مرجليوث بأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان انفعاليا حادّ المزاج[1] بدليل ما جاء فى بعض كتب السيرة من أنه قد عضّ الشيماء أخته من الرضاع ، وهو طفل ، عضة بقى أثرها أربعين

(١) عبارة جمعة : « هَوَوِيًا قوىّ المزاج » ، وهى ترجمة لكلمة " passionné " .

عاماً إلى أن وفدت عليه هذه الأخت فى المدينة فكشفت له عن ظهرها وأرته إياها ، قائلا إن هذه ليست عضة طفل بل عاهة مستديمة ، وأنّى لطفل صغير أن تُحْدِث عضّتُه تلك العاهة التى تبقى كل ذلك العمر الطويل ، وبخاصة أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان طوال حياته مثال اللطف والدعة ولين الجانب ولم يُعْرَف عنه أنه كان عنيفا أو عدوانيا ؟ ثم ألم يكن لدى الشيماء بعد كل هذا الزمن ما تذكّر به محمدا سوى كشف ظهرها وإبراز أثر تلك العضة ؟ ثم يعلق قائلا فى أسى : « ولكن ماذا نقول لمؤرخى العرب وكُتّاب السِّيَر وهم لا يغربلون ما يكتبون بل يحشدون الأقوال حشدا كالأشلاء فيسقط عليها العِقْبان والغربان والجوارح تنهشها وتتغذى بها ؟ وصدق من قال : لكل ساقطة لاقطة ! »[1].

وفى موضع آخر يناقش د. جمعة مناقشة تاريخية منطقيةً خبرا ساقه صاحب « السيرة الحلبية » مؤدّاه أن خديجة ، عندما نزل الوحى على محمد ، « كتبت إلى بحيرا تستفتيه فى الأمر فأجابها بكتاب عنوانه : سيدةَ قريش ، اعلمى أن الوحى ... إلخ » ، فيقول إن هذا الخبر يستلزم أن بحيرا كان لا يزال حينئذ على قيد الحياة وأن العلاقات بينه وبين النبى كانت متصلة منذ سَفْرته وهو صبى بصحبة عمّه إلى الشام حين مرّا به مع سائر أفراد القافلة فى الطريق إلى هناك ، أى منذ ثلاثين عاماً ،

(١) ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ .

وذلك إن صحّ هذا اللقاء أصلا! ثم إن الحلبيّ يذكر هذه الرواية دون أى سند ، وهو لم يذكرها إلا لتصوُّره أنها تؤيد نبوة محمد عليه السلام ، « وهذا المؤرخ الفاضل لم يكن يعلم ما يخبِّئه القدر لتاريخ محمد من عفاريت الإنس الذين يصطادون فى الماء العكر ، وما هذا الماء العكر إلا تلك السِّيَر التى اختلط فيها الحق بالباطل والصدق بالكذب والمعتدل بغير المعتدل » (١).

وهو لا يردّ الروايات الإسلامية فقط حين يرى فيها ما يسىء إلى الإسلام ونبيّه بل ردّ أيضاً ما رُوِىَ عن حكيم بن حزام ابن أخى خديجة أم المؤمنينِ مثلا من أنه زار ملك الروم هو ووفد من العرب فأراهم فى قصره صوَر عدة رجال من بينها صورة النبى عليه السلام وسألهم أيعرفون صاحب هذه الصورة ، فقالوا : « هذه صورة محمد بن عبد الله صاحبنا » ، فقال لهم : « إنها مصورة منذ أكثر من ألف سنة ، وإن صاحبكم لَنبىٌّ مرسل فاتبعوه ، ولَوَدِدْتُ أنى عبده فأَشْرَب ما يُغْسَل من قدميه » . ورغم أن حكيما كان ثقةً فإن لطفى جمعة يرفض الرواية المنسوبة إليه لأنها لم تُذْكَر إلا فى « السيرة الحلبية » ولم يروها أحد آخر ممن كانوا مع حكيم فى هذه المقابلة الملوكية ، ولو كان هذا الخبر صحيحا لاهتم به وحكاه كل رفقائه حسبما ذكر (٢).

وجريا على الأسلوب الحديث فى البحث أيضاً يجتهد د. جمعة فى

---

(١) ص ٥٢٥ .

(٢) ص ٣١٠ .

محاولة تفسير الوحى على طريقة علمية مقنعة كما يقول ، فيسوق ما قاله بعض علماء القرآن والمتصوفة والفلاسفة المسلمين فى ذلك ثم يقفّى بذكر آراء الغربيين معتمدا على بعض المعاجم الأوربية ومعاجم الكتاب المقدس ودراسات علماء النفس باتجاهاتهم المختلفة حول العبقرية وما كتبه المستشرقون عن الوحى المحمدى ، مبينا تناقض هذه الآراء وما تدل عليه من حيرة علماء الإفرنج فى تعليل الوحى والنبوة ، وممحّصا الروايات التى وردت فى كتب السيرة عن هذا الموضوع ... إلخ . وقد استغرق هذا الأمر ثلاثين صفحة تقريبا من صفحات كتابه ذات القطع الكبير (١) ، وهذا البحث من الابحاث الرائدة فى هذا المجال .

وبنفس هذه الطريقة العلمية الحديثة يدرس مؤلفنا صحيفة المدينة التى أرست قواعد العلاقات والتعامل بين طوائف سكانها المختلفين من أنصار ومهاجرين ويهود ، فيقول إنها « مشارطة لتنظيم العلاقات بين المهاجرين والقبائل العربية النازلة بالمدينة طرفا أوّلا (٢)... واليهود النازلين بها والمحاربين لهم طرفا ثانيا ، فنحن حيال وثيقة سياسية أساسية أملاها الرسول وأعطاها قوة القانون الدستورى ، لا تحكُّماً فى إرادة المتعاقدين ولا خضوعا لمشورتهم ولكن حلا لمشكلتهم وتمهيدا لسيادة أحكام الله والنظام الحكومى المدنى » . وعن أصلها الذى انبثقت عنه

---

(١) من ص ٥٣٠ إلى ص ٥٥٨ .

(٢) صحتها « أوّلَ » لأنها صفة ، ولا تنوَّن إلا إذا كانت اسما .

يقول : « إن أصل هذه الوثيقة معجز غامض لا يمكن الوصول إلى كُنْهه ومُعْضِلة لا يمكن حلّها لأننا حيال عمل تأسيسى للحياة الداخلية للمجتمع الإسلامى فى أوّل نشأته ، ولكن كل المصادر الإسلامية ضنينة بتفسير أصلها وطريقة الاهتداء إليها ، فليس لها أثر فى الحديث لأن الحديث ليس موضعها ، وهى أقرب إلى أن تكون فى تاريخ القانون أو مجموعة القوانين الإسلامية ، ولكن العرب لم يسجلوا هذا النوع من الأوراق لأنه لم تكن لديهم جريدة رسمية غير القرآن والحديث ، والقرآن نفسه هو مصدر التشريع وليس موضع التسجيل لحديث النبى أو قوانينه الوضعية . إن ابن إسحاق الذى دونها فى سيرته لم ينقلها بالرواية وإلا كان ذَكَرَ سلسلة الرواة كعادته فى أيسر الأمور ، وإذن فلا بد أن تكون هذه الوثيقة قد وصلت إلى يده مكتوبة فقدم لها بسطرين ، ورأى بسليقة المؤرخ ضرورة إثباتها ، ولم ير بثقافة المؤرخ السياسى تحرِّى أصلها ونشأتها . ولا غرابة فى أنه عثر على نسخة مكتوبة نقل عنها الوثيقة ، فهى بطبيعتها عقد أو عهد مكتوب . والدليل على وصولها مكتوبة إلى يد ابن إسحاق احتفاظُها بخواصّ النصوص المكتوبة وبقاء القديم الغامض فيها على قدمه وغموضه، ولو كانت نُقِلت روايةً لتبدّلت بعض الكلمات فى أفواه الرواة كما هى العادة فى غير القرآن والحديث . لقد وصفها كاتب الورقة ، وهو الرسول الذى أملاها ... ، بأنها « كتاب » لأنه لم يكن فى تلك البيئة لغة رسمية للسياسة والقوانين الوضعية... ، فإن صحّ هذا كانت اعترافا من جانب واحد وليس عليها شهود ، ولا دليل على صدورها إلا ما جاء فى أولها : « كتاب رسول الله الذى كتبه بين المهاجرين والأنصار وموادعة يهود » ... ولكنك لا تجد فى صلب الوثيقة أو نهايتها توقيعا من أحد ممن ورد ذكرهم فى النصّ ، فكأن الوثيقة قد صدرت تحمل صفة القانون دون حاجة إلى توقيع أطراف العقد الخاضعين لنصه ... إلخ »[1]. وبهذه الطريقة العلمية التى يوظف فيها جمعة معارفه السياسية والقانونية والتاريخية مضى يحلّل تلك الوثيقة ويقلّبها على وجوهها المختلفة ويناقش ما قيل بشأنها ويبرز أهميتها ويوضح ظروفها التى كُتِبَتْ فيها ... إلخ . وهذا الفصل هو أيضاً من الفصول الرائدة فى دراسة صحيفة المدينة ، التى اختارها كاتبنا موضوعاً لأطروحته التى حصل بها على درجة الدكتوريّة في القانون من جامعة ليون سنة ١٩١١م [2]، أى أنه قد تنبه لأهمية هذا الموضوع وأفرد له دراسة علمية كاملة منذ ذلك التاريخ المبكرّ [3].

ولعلّ هذه الطريقة العلمية هى المسؤولة أيضاً عن أنه حاول (كما يقول) أن يُنَحِّى المعجزة عن تاريخ الحروب المحمدية على قدر

(١) ص ٧٠٥ وما بعدها .

(٢) انظر ص ٢٠٥ من الكتاب .

(٣) سبق أن أصدر المستشرق الألمانى فلهاوزن دراسة عن هذا الموضوع سنة ١٨٨٩م بعنوان « دستور المدينة أيام النبى » ، وقد ذكرها جمعة بين مراجعه فى مقاله « الهجرة المحمدية أساس الحضارة الإسلامية » المنشور فى مجلة « الرسالة » (العدد ٢٤٧ بتاريخ الاثنين ٢٦ محرم ١٣٥٧هـ ـ ٢٨ مارس ١٩٣٨م) .

طاقته «لأن الجانب الظاهر فيه الكفاية من الإرهاص والإعجاز والإقناع لكل ذى عقل بغير حاجة إلى الإيمان المستور من أسرار الكون » [١].

وقد استعان محمد لطفى جمعة بحشد هائل من المراجع باللغات الأربع التى كان يتقنها ، وهى العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية ، وبعض هذه المراجع تاريخى ، وبعضها جغرافى ، وبعضها قانونى ، وبعضها فى علم النفس ، وبعضها فى علم الاجتماع ، وبعضها فى الرحلات ، وبعضها لغوى ، وبعضها أدبى ، وبعضها دينى ، وبعضها لمؤلفين قدماء ، وبعضها لمحدثين ... وهكذا . وللأسف لم يترك لنا فى آخر كتابه ثبَتًا بهذه المراجع رغم أنه قد وعد فى أحد مواضعه بأنه سيفعل ذلك . وعلى هذا فليس أمام الباحث إلا أن ينظر فى الكتاب صفحة صفحة : فى متنه فى الغالب ، وفى الهامش فى أقلّ الأحوال . ويزيد المسألة صعوبةً أن المؤلف عادة ما يشير إلى اسم المرجع وصاحبه إشارة موجزة . كما أنه قلما يورد عناوين الكتب الإفرنجية بلغتها الأصلية مكتفيًا بترجمتها إلى العربية . ومراجعه فى كتابه هذا أكثر من مراجعه فى « نظرات عصرية » إلى حد بعيد ، وبعضها مشترك بين الكتابين . وإلى القارئ الكريم هذه الطائفة منها : القرآن الكريم ، والكتاب المقدس ، و «الإكليل» للهمدانى، و «أصول القرن التاسع عشر» لهوستون شمبرلين[٢]، و « الأساس » للدكتور على العنانى، و « المزهر » للسيوطى ، و " The Religion of the Semites " لروبرتسون سميث، و « الأعمدة السبعة » للورنس ، و « المقال الأول فى تكوين اللغات » لفيلاستر ، و « قصص الأنبياء » لعبد الوهاب النجار ، و « رسالة فى الطلاق » لإسكندر دوماس الصغير ، و « حياة محمد » لشبرنجر ، و « مجمع الأمثال » للميدانى ، و «تفسير ابن كثير » ، و « فقه اللغة » لابن فارس ، و « تاريخ سومر وأكاد » لكنج [١]، و « طبقات الشعراء » لابن سلام و« صبح الأعشى » للقلقشندى ، و «ديوان الشرق والغرب » لجوته ، و « مقدمة ابن خلدون » ، و « آثار الإسلام » لكايتانى ، و « القاموس المحيط » للفيروزابادى ، و « الأغانى » للأصفهانى ، و « المفاخر والمكارم » للخوارزمى ، و « دلائل الإعجاز » للجرجانى ، و « سيرة آخر بنى سراج » لشاتوبريان[٢] ، و « النزاع والتخاصم » للمقريزى ، و « أخبار مكة » للأزرقى ، و « تاريخ الطبرى » ، وديوان امرئ القيس ، و «الإسلام» و « السنة المحمدية » لجولدتسيهر[٣]، و « تاريخ الجمهوريات الإيطالية » لسيسموندى ،

---

(١) ص ٨٣٢ _ ٨٣٣ .

(٢) وقد سمّاه فى موضع آخر « أسس القرن التاسع عشر » (ص ١٥) .

---

(١) عرض لطفى جمعة هذا الكتاب فى « مع الكتب فى سبيل المعرفة » (ص ٢٧٥ _ ٢٩٢) وسمّاه « تاريخ شمر وأكاد » .

(٢) ترجم هذه الرواية إلى العربية بعنوان « آخر بنى سراج » مع دراسة تاريخية فى غاية الأهمية تزيد على مائتى صفحة أمير البيان شكيب أرسلان رحمه الله ، وذلك فى ثمانينات القرن الماضى ، وعرضها إبراهيم اليازجى عرضا نقديا فى مجلة « البيان » بتاريخ ١٦ سبتمبر ١٨٨٧م .

(٣) يوجد عرض لهذين الكتابين فى كتاب جمعة « مع الكتب فى سبيل المعرفة » (ص ٢٩٢ _ ٣٠٧) .

و « قبيلة موءاب فى شرق الأردن » لجوسين ، و«الكامل» للمبرّد ، و « طبقات ابن سعد » ، و « المناهل » لمحمد جميل بيهم ، و « شعر العرب ونثرهم » لسايس ، و « شعر عنترة وتاريخه » لتوربك ، و « ديوان الحماسة » لأبى تمام ، و « تاريخ إحياء العلوم فى إيطاليا » لسيموندس[١] ، و « كتاب العزلة » للبستى (وهو مخطوط)، و « تسلسل الإنسان » لداروين ، و « العقد الفريد » لابن عبد ربه ، و « مباحث عربية » للدكتور بشر فارس ، و « بلوغ الأرب » للألوسى ، و « مروج الذهب » للمسعودى ، و « المحاسن والمساوئ » للبيهقى ، و « سيرة ابن هشام »، و « الفرج بعد الشدة » للتنوخى ، و « الأصنام » لابن الكلبى، و « أديان الجاهلية » لمحمد نعمان الجارم ، و « تاريخ مكة » للأزرقى ، و « الساق على الساق » للشدياق، و « تاريخ الشعوب الإسلامية ودولها » لبروكلمان (بالألمانية) [٢]، و « الشفا فى حقوق المصطفى » للقاضى عياض ، و « زاد المعاد » لابن قيّم الجوزية ، و « الإصابة » لابن حجر ، وترجمة إدوار مونتيه الفرنسية للقرآن الكريم[٣] ، وترجمة ماردروس الفرنسية أيضاً للقرآن ، و « تاريخ محمد » لمرجليوث[٤] ، و « المواهب

(١) يجد القارئ عرضا لهذا الكتاب فى « مع الكتب فى سبيل المعرفة » للطفى جمعة تحت اسم « نهضة العلوم وإحياء الفنون بإيطاليا » (ص ٢١ ـ ٢٤) .

(٢) وذلك قبل أن يترجَم إلى العربية ، لأنه ذكر أنه صدر فى نفس العام الذى ألف فيه كتابه . وقد أورد اسمه بالألمانية بعد ذكره مترجما إلى العربية (ص٢٠٦) .

(٣) يجد القارئ دراسة مفصلة لهذه الترجمة فى الفصل الثانى من الباب الأول من كتابى « المستشرقون والقرآن » .

(٤) لا أظن إلا أنه يقصد كتابه " Muhammad and the Rise of Islam ".

اللدنّية » للقسطلانى ، و « القرابة والزواج فى بلاد العرب الأقدمين » لروبرتسون سميث ، و « خلاصة السيرة المحمدية » لمحمد رشيد رضا ، و « وَفَيَات الأعيان » لابن خلكان ، و « حياة الحيوان » للدميرى ، و«أدب الكاتب» لابن قتيبة ، و « معجم البلدان » لياقوت الحموى ، و « أصول الحضارة » لآفبرى ، و « فى عهد الفراعنة » لإسكندر موريه ، و « تاريخ رومة » لمومسن ، و « تاريخ أمم الشرق القديمة » لماسبيرو ، وديوان بيرون ، و « انحلال دولة الرومان » لجِبون[١]، و «مسند أحمد» ، و « أسد الغابة » ، و « المحاسن والأضداد » للجاحظ ، و « تاريخ القرآن » لنولدكه ، و « تاريخ العالم » لوِلْز ، و « الإنجيل والصليب » لعبد الأحد داود ، و « البيان والتبيين » للجاحظ ، و « دائرة المعارف الإسلامية » للمستشرقين ، و « انحدار شمس أوروبا للمغيب » لشبنجلر[٢]، و « السيرة الحلبية » ، و « الخصائص الصغرى » للسيوطى ، و « الطوالات » للطبرانى ، و « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » و « شعراء النصرانية » للويس شيخو ، و « المغازى » للواقدى ، و « الطوطم ولامساس عند الأمم القديمة » لفرويد ، و « أحشاء أوربا » و « أحشاء آسيا » لجون جنتر ، و « ترجمة

(١) وقد ذكر اسمه أيضا بالإنجليزية .

(٢) عرض جمعة هذا الكتاب فى مؤلَّفه « مع الكتب فى سبيل المعرفة » بعنوان « انحدار الغرب » (ص ٧٣ ـ ٨٢) .

محمد » لمُوير ، و « الجنة والنار » لسويدنبرج (١) ، و « صحيح البخارى » ، و « صحيح مسلم » ، و « مقدمة التحليل النفسانى » لفرويد ، و « قاموس لاروس »، و « قاموس الكتاب المقدس »، و « شيطان سقراط » و « تعويذة باسكال » لليلوت ، و « السيكولوچية المرضية » لمورو ، و « العقل والعبقرية والجنون » لفلورنس ، و « باثولوچية العقل » لمودزلى ، و « نقد النثر » المنسوب لقدامة بن جعفر ، و « الشهاب الراصد » و « تاريخ فلاسفة الإسلام » لمحمد لطفى جمعة ، و « فى الشعر الجاهلى » لطه حسين ، و « تاريخ الأدب العربى » لنيكلسون(٢) ، و « رسائل الجاحظ » ، و « حياة محمد » لدرمنجهايم، و " Skizzen und vorarbeiten " لويلهوزن ، و « تارتوف » لموليير، و « هاملت » لشكسبير ، و « الضيف المجهول » لموريس مترلنك ، و « اللغز القاسى » لبول بورچيه ، و « رحلة ابن بطوطة » ، و « رحلة ابن جبير » ، و « وفاء الوفا » للسمهودى ، وغير ذلك ، وهو كثير . وهذا عدا المقالات المنشورة فى الصحف والمجلات . وكل المراجع الأجنبية فى هذه القائمة تقريبا قرأها لطفى جمعة إما فى لغاتها الأصلية (وهذا هو الأغلب الأعم) أو مترجمة إلى لغة أوربية أخرى (وهو قليل). وقد لاحظت أن ذكر المراجع يقل فى النصف الثانى من الكتاب،

(١) فى كتاب « مع الكتب فى سبيل المعرفة » لمحمد لطفى جمعة عرض لهذا الكتاب (ص ١٩٠ ـ ١٩٦) .

(٢) لم يكن هذا الكتاب قد تُرجِم بعد إلى العربية .

وبخاصة كلما اقتربنا من نهايته حتى إننا لنقلب حينئذ الصفحات تلو الصفحات قبل أن نعثر على إشارة إلى أى مرجع .

ومما يمتاز به هذا الكتاب استفاضة المؤلف فى الموضوع الذى يدرسه استفاضة واسعة لا نجدها عند غيره من مؤلفى السيرة . انظر مثلا إلى كلامه عن شخصية الرسول عليه السلام ، فقد استغرق اثنتى عشرة صفحة جمع فيها كل ما قيل فى وصفه صلى الله عليه وسلم مظهرا ومخبرا ، مستخلصاً دلالة ملامحه وطريقة مشيته وذوقه فى الملابس على نفسيته وأخلاقه ومدى تقليديته أو تجديده ... إلخ . وهو فى أثناء ذلك يسوق آراء المسلمين وآراء الغربيين معاً ، ويدرسها ويحللها ويستنبط منها نتائجها ودلالاتها ، ثم يخرج من هذا كله بأنه عليه السلام المثال الأعلى للإنسانية جمعاء(١) . ولكى تلمس بنفسك مدى الجهد الذى أنفقه الدكتور جمعة فى بحث هذا الموضوع أذكر لك أنه مثلا عند تعرضه لبكاء النبى اهتم أولاً أن يبين لنا كيف أنه عليه السلام كان بفطرته حزينا لأنه كان نبيا ، والأنبياء والحكماء وأمثالهم أكثر الناس هموما وأعظمهم شعوراً بصنوف البلاء التى تنتاب الإنسانية ، كما أن حياته على المستوى الشخصى كانت قليلة الأفراح . ثم ينتقل من ذلك إلى إحصاء المرات التى ذكر كُتّاب سيرته أنه بكى فيها ، قائلا إن هذا الإحصاء غير كامل ، فلا شك أنه مثلا قد بكى عند موت خديجة رضى

(١) ص ٢١٢ ـ ٢٢٤ .

الله عنها وأبى طالب عمه لما كان لهما من مكانة عظيمة فى نفسه ، وهو ما لم يذكره أولئك الكتّاب . كذلك يؤكد جمعة أن الرسول لم يكن قريب الدموع كبعض الناس ممن يبكون لأتفه شيء ، ولم يكن بكاؤه خَوَراً ولا ضعفا ، وكذلك لم يكن هيستيرى المزاج[١] ... وهكذا يشقق كاتبنا هذا الموضوع الفرعى الصغير ويقلبه على وجوهه المختلفة ويضعه تحت مكروسكوب العلم . ولست أذكر أنى وجدت أحداً غيره قد عالج تلك المسألة بمثل هذا التوسع أو تناولها هذا التناول العلمى .

كذلك فإنه، عند دراسته لأحداث حياة النبى صلى الله عليه وسلم[٢] ، قد قسمها إلى عدة مراحل : الطفولة فالشباب فالمبعث فالهجرة فالاستقرار فى المدينة . وقد استغرق الحديث عن كل واحدة من هذه المراحل عشرات الصفحات ، ومعظمها جاوز المائة صفحة ، وهو ما لا يوجد عند سواه . والسبب فى ذلك هو ، كما أشرنا ، غرامه بالاستقصاء والتغطية الشاملة لكل جوانب الموضوع وتحليله لكل ما يورده من نقول وآراء وحرصه على أن يكون له رأى فيه .

وعلى نفس الشاكلة يستغرق حديثه عن وثيقة المدينة أكثر من عشرين صفحة تناول فيها هذا الموضوع من الزاوية التاريخية والزاوية

---

(١) ص ٢١٩ ـ ٢٢١ .

(٢) بدءاً من الصفحة ٢٧٥ فصاعدا .

السياسية والزاوية القانونية فلم يترك منه شيئا إلا قلّبه وفحصه وبحثه بحثا علميا متعمقا كما سلف أن وضحنا .

على أن هذا الاستقصاء والتفصيل قد قَلاَّ فى الجزء الأخير الذى يبدأ من بعد غزوة أُحُد ، وكأن كاتبنا قد أضناه الجهد الشديد الذى أنفقه فى الفصول التى قبل ذلك .

وهو كثيرا ما يرسم للموضوع الذى يتناوله أو المنظر الذى يتأمله بعينيه أو يتخيله بذهنه صورة كاملة مستعينا فى رسم هذه الصورة بوثبات خياله. إنه مثلاً فى وصفه لمكة قبل الإسلام لا يكتفى بإيراد المعلومات الجغرافية الخاصة بموقعها وجبالها ووديانها ودرجة حرارتها بل يمضى قائلا إنها تبدو لراكب الطائرة على شكل « سلحفاةٍ رأسُها إلى الجنوب وذيلها إلى الشمال ، وقد تحلّى ظهرها المبرقش بالكعبة ودار الندوة فى الوسط ، والصفا والمروة والمسعى ومولد فاطمة عن الشمال ، وشِعْب المولد والخندمة والمدعى وأجياد عن اليمين ، وانتشرت تحت ناظريه فى شتى الأجزاء من ظهر تلك السلحفاة الضخمة ... سوق الليل وأبو قبيس والمعلاة وقيقعان وسوق الصغير والمسفلة والجبل الأحمر والماجن وجبل عمر » ، ثم يأخذ القارئَ فيجوس به خلال جبالها ووديانها ودروبها وطرقها ومداخلها ومخارجها ، ولا ينسى أن يصطحبه فى جولة سريعة فى أسواقها يُطْلِعه على ما يدور فيها من بيع وشراء وغش[١] .

---

(١) ص ٥٣ ـ ٥٨ .

ونفس الشيء نلقاه في حديثه عن رحلة آمنة بنت وهب مع ابنها إلى يثرب ، وإن كانت الصورة هنا أكثر حيوية وأحفل بالمشاعر ، فإن الحديث فيها ليس عن بلد وجبال ووديان وأسواق بل عن بشرٍ وآمال وأحزان وموت ويتم ووحشة طريق ، فنراه يتحدث عن أوقات اللهو واللعب التي قضاها الطفل مع صغار الحيّ من خؤولة أبيه هناك يطاردون الطير على سطوح الدور أو يعومون في إحدى الآبار أو البِرَك ، ذاكراً من بين هؤلاء الصبية طفلة تدعى أنيسة ، وكيف أن أمه لم تشأ أن تحمّله الهم قبل الأوان فكانت تذهب لزيارة قبر زوجها العزيز دون أن تأخذه معها ، ثم كيف ماتت أمّه فلم يجد حوله في هذه السن الغضة التي لم تكن تعرف معنى الموت وفي ذلك الطريق الغريب عليه من يؤنسه من وحشة الشعور بهذا الموت إلا أم أيمن مولاته الحبشية ، وكيف أن هذه الصدمة العنيفة لم تستطع مع ذلك أن تهزمه بل أكسبته ، رغم الحزن ، مناعة وعزما (١) .

أما الصفحات التي تشكّل فصل « التحنث في الغار » فهي قطعة أدبية من الطراز العالي في الوصف والتخيل والتحليل النفسي وشمول الرؤية (٢) ، وهي قَمِينةٌ أن تزوّد القارئ بنشوة غامرة وعميقة سواء بأسلوبها الفني البديع أو مضمونها الروحي الباذخ الثراء ، ولذلك أضع

(١) ص ٣٠٦ _ ٣٠٨ .

(٢) ص ٤٩٩ _ ٥٠٦ .

بعض فقراتها هنا تحت بصره ليطالعها بنفسه دون أن أقف حائلاً بينه وبينها :

« إذا جَنّ الليل وتراءت لك تلك الجبال تحجب الكواكب ، وطوراً تجود عليك برؤيتها كما يجود البخيل ببعض دراهمه ، وأدرت نظرك الكليل من انسداد الأفق ، رأيت أنوار مكة في الوديان القريبة من تلك السفوح الماثلة فتبدو منازلها وقصورها وآطامها وحصونها المتناثرة كالكواكب حول بناء الكعبة القائمة في وسط المسجد الحرام كأنها مركز الدائرة . ولكن مكة أو بكة أو أم القرى ، التي أسسها إبراهيم في عصر سابق على موسى وإسرائيل ، لم تتخذ عن المدن الورارفة الظلال شيئا من بهائها ورونقها ، فعاشت كجبالها وأحراشها المحيطة بها جرداء من الخضرة والأزهار والعشب والماء ، فلا خميلة فينانة ولا حديقة مخضلّة ولا ساقية دوارة ولا مسقاة جارية ، لا تسمع فيها هدير نهر ولا انسياب غدير ولا وسوسة جدول ، ولا تقع العين منها على شجرة أو ثمرة أو زهرة أو ورقة خضراء تسر الناظر أو تشرح الصدر .

وهذا شبح رجل يتسلل من بيته في شارع الحزامية ويسير في الظلام تارة وفي ظلال أشعة المساء طورا ، إذا زال زال قالعاً ، يخطو تكفيّا ويمشي هونًا ، ذريع المشية كأنما ينحط من صبَب ، إذا التفت التفت بجميع جسمه ، ليس في أعضائه ليونة ، خافض الطَّرْف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، تراه العين فيدرك العقل شجاعته وقوة بنيته وصبره على الشدائد وصدق عزيمته .

يمر السارى بالأزقة الضيقة ويصعد فى المرتفعات ويهبط المنخفض من الأرض ولا يلتفت فى طريقه إلى أحد . لقد اتسعت حياته وامتلأت أيامه وابتسمت له الأعوام وعاش عيشة ابن بلده فى عشرة الفضلاء بعيداً عن أهل اللؤم والفساد . ولكن ها هو يقصد إلى مكان لا يعلمه إلا الله ، وهو فى سوداء الليل الموحش ولكن قلبه عامر ونفسه مطمئنة ، فهو منذ نشأته لا يخاف ولا يحزن ولا يكترث للأوهام ولا يوقّر الأصنام ، وقد حرر نفسه من قيود الوثنية والطِّيَرَة فلا فأل ولا شؤم ، وقد انبثق فى نفسه ينبوع فياض بالجمال والتأمل ، وطمحت روحه إلى مثل عليا لا يطيق التفكير فى سواها . لقد كان فى طفولته وصباه مصدر الفرح لأهله، فها هو صار رجلاً ناضجاً ورب أسرة وزوجاً سعيداً يترك داره وأولاده فى جنح الظلام ويخرج ضارباً فى الأزقة بقدم ثابتة يحمل فى صدره سرا مكنونا ويشعر فى إبهام وغموض أنه حطّ عن كاهله عبء الحياة الدنيا ، ولكنه حُمِّل أمانة كبرى يرى وميضها فى لمحات صحوه ونومه ولكنه لا يدرى على التحقيق ما هى ، ويشعر أنه قد انطوى صدره على عالم كبير من المعانى السامية ولكنه يرى الهوة السحيقة بين قلبه وقلوب قومه الجفاة الغلاظ الأكباد العائشين كالأنعام فى ظلام دامس لا يحلو لهم إلا الاتجار والادخار والمعاقرة والمنادمة والزفاف وسماع القيان والسَّمَر والطواف حول البيت العتيق الحافل بالأوثان . يذكر ، وهو يسير، أنه سلخ أيام طفولته وشبابه فى السياحة والأسفار وأنه رأى بلاداً غير هذا البلد وشعباً غير هذا الشعب وطاف بأرض الشام بين وادى الأردن

وبصرى ومشارف العواصم الكبرى : بيت المقدس ودمشق وأنه رأى جبالا شامخة ولكنها خضراء مورقة ، وعرضت لعين خياله ألوان زاهية بعد الصحراء المترامية وواحات غارقة فى العشب والماء . ورأى فى تلك السياحة آثار مدن بائدة ودُوراً محفورة فى الصخور وخرائب ينعق فيها البوم كانت لأمم سالفة لم تُعِرْ للأنبياء آذاناً صاغية ، فانتقل فى طرفة عين من وحدة ضيقة تحد البصر وترده إلى وحدة فسيحة يضيع فى مداها الطَّرْف .

... ها هو محمد يسرى فى الليل المهود[1] الوسنان ، ترى عينه سكونه ، ويَمَسّ القلب سكينته ، وتكاد الأذن تسمع صوت صمته ، ونسيم الليل يسرى رفيقاً ينفح ظله ، وتبدو له فى هدوء الليل قمم الجبال : خندمة وأبى قبيس وأجياد وجبل النور. العالم الأرضى يبدو كأنه مستغرق فى أحلامه ، ولكن طرق مكة لا تنام ولا تفتر عنها الأقدام ، ففى الطرق زرافات متمهلة أو مسرعة ، متحدثة أو صامتة ، تؤم بعضها البيت الحرام ، وبعضها مجالس اللهو والغرام ، فهل رآه أحد منهم وعرفه ؟ وهل حدثت أحداً نفسُه بما ينطوى عليه قلبه ؟

الليل هاجع ، والخليقة نائمة ، ولكن هل القلوب الوالهة تهجع؟ وهل العيون الباكية تغمض؟ وهل الزفرات المرددة تسكن؟ وهل هذا القلب يغفل ؟ لقد استوى ليله ونهاره ، وعَشيّه وأبكاره ، وتركزت فيه تبعة بل تبعات لا يعلم إلا الله مداها ، وقد لا تحدثه نفسه بما يتبعها ،

(١) هكذا وردت الكلمة .

ولكنه متوجه شطر الغار كما تتوجه إبرة المغناطيس إلى القطب ، ونازعٌ إلى السر الأعظم نزوعَ الغريب إلى ولده وداره وقد ودع منذ هنيهة ولده وداره . أترى خديجة تفكر فيه وتصحبه روحها ؟ محمد يريد الخلوة فى هذا الزحام الإنسانى ، والوحدةَ فى هذا العُباب والقرارَ فى هذا المحشر ، ولذا هجر مضجعه وغادر مخدعه وخلف وراءه ولده وداره .

أقفرت الطريق واتجه محمد إلى الجبل وضاق الوادى حينا ثم اتسع فأخذ سَمْتَه صَوْبَ الشَّمال وقلبه ممتلئ بالاشتياق والسرور وعلى وجهه التهلل والبشر ، ثم مال يصعد فى السفح الذى ينتهى إلى قمة شاهقة ملساء ، قطعة واحدة من الصخر قائمة كأنها لوح عظيم تكتب عليه يد الأقدار اسم الرجل الأوحد والإنسان الكامل ، فسار مُصَعِّداً خفيفا لا يبالى الشوك والحصى ، فقد سبق له أن صعد ولم تمنعه أطراف الصخور الحديدة كأنها أروى ترتع على السفح ، سار فى طريق معلمة يبين فيها بين الحين والحين تمهيد الإنسان : هنا حجارة مرصوصة يرتقى عليها ، وهناك جدار صغير من حجارة مركومة أو مبنية تعصم الراقى المرتقى أن يزل عن الطريق . تتابع صاعداً جاهداً منحنيا على المرتقى الصعب ، وما فى نفسه من رفعة المقصد أجلّ وأرفع ، وما يبهر النفس من رهبة المكان أبهر وأروع مما يبهر عينه فى توقُّل هذا الطود العظيم ، وكأنما محمد يرتقى فى التوحيد وحكمته ، ويصعد فى جلال الحق وعظمته ، ويطمح إلى السماء لا إلى قُنّة حِرَاء . أليس مُقْدما على مشرق النور ومطلع الحق ومهبط الوحى وملتقى السماء بالأرض ؟ لكأن هذه اللمعات الكوكبية والأشعة المرتدة من هذه القمة الملساء العالية من منار الحق تتألق فى حراء

أو آى من القرآن الذى يوشك أن يهبط من السماء .

صعد ثم صعد حتى انتهى إلى صخرة فأوى إليها قليلا يستجمّ ويمسح عرقه ثم رَقِيَ تتلوى به الطريق ذات اليمين وذات الشمال . على ذروة الجبل بقية صَدْع فى الصخر . وقف على الذروة يسرِّح العين حوله بين جبال وأودية ويرى مكة وجبالها ودورها وقصورها . ترى هل حاول أن يرى موضع الكعبة؟ ربما ، أما بيته فلا . هذه قمة حِراء ، فليهبط إلى الغار نحو اليمين إلى صخرة هائلة مائلة على الجبال . وتخلَّل مسلكا ضيقا قصيراً بينها وبين السفح إلى مستوى صغير . أهذه هى الطريق التى وصفها ورقةُ أم هداه الله إليها ؟ فإذا أمامه سفح متقطع ينحدر إلى أرض سحيقة وعلى يمينه قمة حراء التى كان فوقها وعلى يساره الغار ، غار حراء العظيم : فجوة ضيقة تميل على مدخلها صخور تدعم بعضها حجارة، أما سعته فمرقد ثلاثة متجاورين ، سعة الضريح سيرقد فيه بعد خمس وعشرين سنة هو وصاحباه فى بلدٍ ناءٍ بعيد لم يزره إلا طفلا لأن والده مدفون فى أحد نواحيه ، أما ارتفاعه فقامة رجل . وفى نهايته صَدْع ترى منه الأرض والجبال إلى مكة . فلما بلغ غايته جلس .

وإلى هنا فرَّ بنفسه ، هُرِعَ إلى الله وهرب إلى ربه من ضوضاء الحياة وأكاذيبها ، من مظالم الناس ومفاسدهم ، من باطل المعتقدات وزورها ، من نفاق مكة وأوثانها وبهتانها ، فأوى إلى هذا الجبل ، إلى قلب الخليقة ولبها .

هنا طود أشم يطل على أودية ألحّ عليها الشمس المحرقة ليس بها من معنى الحياة إلا نبت ضئيل ، وليس بها من ذكرى الحياة إلا أثر السيل بعد المطر ، ووراء الأودية جبال شامخة تتداول عين الرائى ، وعلى بُعْدٍ منها مكة والكعبة وبيت أبى طالب وبيت خديجة ومولده هو وقبور ولديه وجده عبد المطلب . ولكنه ما جاء هنا ليفكر فى الحياة والموت ، ولكنه جاء ليفكر فى الواحد الأحد والفرد الصمد الذى يخرجه من الظلمات إلى النور .

بين هذه الجبال والأودية وتحت هذه السماء الصافية حقائق لا يشوبها تمويه ولا تزوير ، ولا يلحقها تبديل ولا تغيير ، ولا يَمَسّها رياء ولا نفاق . فرّ إلى هذه الحقائق لا فرار الراهب يترك العالم لينجو بنفسه ، بل كما يلجأ إلى الشاطئ من يحاول إنقاذ إخوانه الغرقى . هنا جمع محمد نفسه وفتح قلبه وناجى ربه ، وهنا تجلى الله لهذه النفس الزكية وأضاء على هذا القلب الطاهر وأفاض عليه من نوره وطهره . لله ما وعى هذا الغار من آيات ! ويا عجبا كيف ثبت على هذه الرجفات ! »[١] .

أما المثال الرابع والأخير فهو وصف جمعة دخول ضمضم الغفارى مكة مُرْسَلاً من قِبَل أبى سفيان (حينما شعر بأن المسلمين يريدون مهاجمة قافلته العائدة من الشام) ، وقد جدع أنف بعيره فأخذ يسيل منه الدم وحوّل وجهه نحو ذيل البعير ووقف غارزا رجليه فى الرّحل وهو يصيح بأهل مكة مهيبا بهم أن يدركوا قافلتهم ، « ولعله ينظم شعرا وينشد كالنادبات أو يقرع طبلا مبالغة فى التبليغ ... ، ولعله

أيضا صبغ وجهه الأغبر بالسواد أو حثا التراب على رأسه أو على استه كما كانوا يفعلون إظهارا للحزن واستثارة للشجون ، فلم تكن عشرون مثقالا [١] لهذا المسخ بالقليل ... ألم يكن ضمضم بن عمرو الغفارى أمهر ممثّل محزن فى الحجاز ؟ لقد أرانا كيف يصنع الرجل بنفسه وببعيره مسرحا متنقلا : جمل يُجْدَع أنفه فيبدو مشوها مكلوما ثم يسير بصاحبه فلا يَقْلبه ولا ينتقم منه ، ورَحْل يُقْلَب فلا يسقط راكبه وهو ناظر إلى خلفه كأنه لا يقوى على مواجهة المنكوبين مقدّما فهو معرض عنهم أسفا وحزنا ، وإنسانا [٢] يشق ثوبه فيبدو عاريا ». ثم يلتفت جمعة إلى رجال الإعلام قائلا : « أيها الصحفيون ، اطووا صحفكم ! وأيها المذيعون ، سدّوا أفواه مذياعكم وكمّموها تكميما ! ويا أسلاك البرق والمسرة ، كفى عن ذبذبتك ، فإنك مجتمعةً ومتفرقةً لن تصلى إلى بعض ما وصل إليه ضمضم بن عمرو الغفارى من جمع مظاهر الهول فى رَكْبة واحدة ! إنك لن تتجاوزى الألفاظ أو الكتابة ، ولكنه فاجعة حية تسعى على أربعة أخفاف! »[٣] .

وكما يرسم جمعة الصور الكاملة الشاملة المفعمة بالتحليل النفسى والوصف الجغرافى والتأصيل التاريخى فكثيرا ما يلجأ كذلك إلى سلاح السخرية يوجهه إلى صدور أعداء الإسلام الذين ينّكّبون عن سبيل الحق

---

(١) أُجْرَته التى أعطاها إياه أبو سفيان لقاء تبليغ الرسالة .

(٢) الصواب : « وإنسان » .

(٣) اقرأ القصة كلها فى ص ٧٩٤ وما بعدها .

المبين سابحين فى شطحات الأوهام . خذ على سبيل المثال عباراته التهكمية التالية التى يردّ بها على مايو المستشرق الفرنسى ، إذ يزعم أن القرآن من إنشاء محمد ، الذى حذق البلاغة من بيئته البدوية منذ صغره حتى أتقنها . يقول جمعة : « allons donc Mr. Moyeun! . وهى جملة تقال بالفرنسية نخاطب بها مسيو مايو ، ومعناها : هيا انصرف ياصاح ، أو فتِّشْ لك عن قطة تغمض عينها ، فإنك محدود الفكر حتى توهمت أن مكة والحجاز مدرسة ثانوية فى باريس يتقن طلابها دراسة الأدب اللاتينى أو يترسمون خطوات لا برويير وبوسويه ! حتى أنت يا مايو تجتهد وتكد فلا تخجل من إبراز بضاعتك لتكسب أجرك من محاربة النبى فى رسالته فتلتمس المحال وما وراء المحال ! »[1] .

ومثلها الكلمات الواخزة التى يعلق بها على موقف مرجليوث المستشرق البريطانى من الحباب بن المنذر صاحب الاقتراح المبارك فى اختيار الموقع الذى ينبغى أن ينزل فيه جيش المسلمين فى بدر ، إذ «يغيظ مرجليوث نجاح الحباب (فى اختيار الموقع الحربى المذكور) فلا يجد مطعنا إلا أن « الحباب » من أسماء الشيطان فلَمْ يغيره الرسول كعادته فى استبدال الأسماء الجميلة بالأسماء الرديئة . وهو فى مجال آخر ينتقد عادة تغيير الأسماء ويراها بدعة . ولو أشعلنا أصابعنا لنضىء لمرجليوث المغرض أو عملنا له البحر المحيط طحينة وجعلنا له سقف قصره

(١) ص ٤٠٣ .

من لازورد وزبرجد فلا نرضيه أبداً »[1] .

وتعليقا على صيحة أبى سفيان فى أُحُد: « أُعْلُ هُبَل ! » يقول جمعة ، فى أثناء حديثه عن فتح مكة ، إن أبا سفيان ، بعد أن أحرجته ابنته السيدة أم حبيبة أم المؤمنين ولم تمكّنه من الجلوس على فراش رسول الله حتى لا ينجّسه بشركه ، « لم يكتف بهذا الكسوف الذى لو أصاب الجبل لتصدع ، وخرج يقصد إلى الرسول فكلّمه فلم يرد عليه شيئا . أليس أبو سفيان هذا هو الذى صرخ بأعلى صوته فى موقعة أحد : « أُعْلُ هبل ! » ؟ ها هو هُبَل قد علا ، ولكنه علاك وركب قفاك وحط بكلكله على ظهرك ، فاحمله يا أبا سفيان إلى يوم القيامة ! »[2] .

ويرى القارئ كيف أن جمعة لا يجد حرجا فى استخدام الألفاظ والعبارات التى تشيع فى لغة الحياة اليومية وعلى ألسنة العامة فى التعبير عما يريده من سخرية وتهكم ، وكيف يلتفت أحيانا ناحية القارئ أو الشخصية التى يتحدث عنها ويوجه الكلام إليهما وكأنهما واقفان بين يديه يسمعانه ويفهمان ما يقول ويستطيعان الجواب .

ومن هذا اللون التهكمى أيضاً قوله يخاطب الزعيم القرشى عُتْبَة بن ربيعة ، الذى حاول أن يثْنِىَ جيش قريش قبل وقعة بدر عن الصدام مع

(١) ص ٨٠٣ .

(٢) ص ١٠١٧ .

المسلمين والرجوع بسلام إلى مكة قائلاً لهم : « أَنْشُدكم اللهَ فى هذه الوجوه التى تضىء ضياء المصابيح[١] أن تجعلوها أندادا لهذه الوجوه التى كأنها عيون الحيّات[٢] » ، إذ عقّب لطفى جمعة على ذلك قائلاً : « يا ولد يا عتبة ! باسم الله ! ما شاء الله ! ما أقوى بصرك ! وما أعجب الأشعة السينية التى رُكِّبَتْ فى حدَقَتيك ! وما أعظم خداع العين التى أرتْك ضياء المصابيح فى وجوه هؤلاء الفُسّاق المعربدين من عُبّاد الأوثان والمال وضحايا الشهوات وخُدّام الخمر والنساء . ولو كنت صادقا لصدق المثل القائل بأن القِرَدة فى عيون أمهاتها ظباء »[٣].

ويشبه هذا كلامُ جمعة عن نفسه ونَفْضُه مشاعره تحت بصر القارئ دون أية محاولة للتزويق أو البحث عن العبارة الفصيحة ، كقوله مثلا أثناء كلامه عن حادثة الإفك : « ومن أهم الأمور عند كاتب هذه الأسطر أنه وُفّق إلى كتابة هذا الكلام العاجز الضئيل حيال ما كتبه الأجلاء المتقدمون وهو على يقين وبصيرة بما يكتب وثقة واقتناع عقلى ... وقد حمانى الله أن أخط حرفا فى فترة جهالة أو ريب أو حماقة طائشة قد أكون تلوثت بها من قراءة كاتب مأفون أو سمعتها من ملحد ملعون... إلخ »[٤]، وقوله عند حديثه عن الزهد فى عَرَض الدنيا :

---

(١) يعنى وجوه قومه .

(٢) يعنى وجوه الأنصار .

(٣) ص ٨٢٦ .

(٤) ص ٤٥٧ .

« أنا أكتب هذا وأعلم أن الملايين تناقضنى وترد قولى إذا علمته وسمعته وأنها تَحُجّنى بالتمسك بالأوهام والأخيلة وأن هذا الزمن قد تولى وذهب وأنى وأمثالى نعيش فى الأجيال الماضية وأننا على الأقل نصلح لحياة الريف لا لحياة العواصم وأن جمودنا خليق بأن تُضْرَب به الأمثال ما دمنا نرى ونسمع ولا نخضع لقوانين تطور الزمان . ولكننا نرى الحق فى جانبنا وفى صفّنا ولا نريد أن ندلل عليه ارتكازا على حياة النبى لأن حياة الأنبياء ليست كحياة غيرهم من الرجال ولأن لهذا البحث مجالا آخر بل أى مجال »[١] ، وقوله تعقيبا على رأيه فى أن الرسول عليه السلام لو آثر حياة الدَّعَة على الكفاح ضد الشرك والظلم لما انتصر الإسلام ولا كانت حضارة الغرب والشرق : « لست أنا الذى أقول هذا القول ، محمد لطفى جمعة المصرى فى رجب ١٣٦٠ (أغسطس ١٩٤١) ، ولكن قاله علماء أعلام الأوربيين الذين تجمعت لديهم المراجع والمصادر والمكتبات والذين خضعوا للحق بعد أجيال من نكران من سبقوهم من أجل مِلَلهم وكُتُبهم »[٢] ، وقوله : « أَبْعَثُ على سِنَان هذا القلم العاجز على مدى ألف وأربعمائة عام أسمى التحيات وأعطرها وأسنى التسليم والتقدير إلى مقام محمد النبى الكريم بطل هذا اليوم العظيم[٣] ، وأنحنى حيال شخصه المقدّس وأنادى به بطل الأبطال فى

---

(١) ص ٤٧٠ .

(٢) ص ٧٩١ .

(٣) يقصد يوم بدر .

كل زمان ومكان لا فى كوكبنا الأرضى وحسب بل فى سائر الأكوان »[١] ، وقوله تعليقا على قبول النبى لإسلام وَحْشِىٍّ قاتل عمه وأخيه فى الرضاع حمزة بن عبد المطلب وإسداله ستار النسيان على جريمته تلك الشنعاء : « والله أنا مندهش من مكارم أخلاق هذا النبى الأعظم ... كان يجب علىَّ ألا أكون أكثر غيرة على الله ورسوله من الرسول نفسه ، ولكن قلبى لم يهاودنى قط ، فالرسول من حقه أن يعفو عمن أساء إليه ، ولكن أليس له محبون يتجاوز حبهم إياه قدرته على الصفح ؟ »[٢] .

وواضح من هذه النقول حرص مؤلفنا على إظهار أعماق مشاعره أمام القارئ وإطلاعه عليها . وتلفتنا دلالة هذا الأمر على بساطة نفسيته وتلقائيته بالإضافة إلى شدة محبته للرسول عليه السلام ، هذه المحبة التى تعلن عن نفسها بنفس الطريقة التى نراها عند بسطاء الناس إذا عبروا عن مشاعرهم . إنهم حينئذ لا يبحثون عن العبارات الفصيحة ولا يحاولون المطامنة من هذه المشاعر بل يطلقون لها العنان لتبدو كما هى داخل نفوسهم . ولا شك أن هناك فريقا من الكتاب لا يتبعون هذه الطريقة ويرون أن الأحجى بهم ألا يُعَرّوا أحاسيسهم وعواطفهم على هذا النحو ،

---

(١) ص ٨٣٨ .

(٢) ص ٨٦١ ، وهو يقصد أن وَحْشِيًا لم يكن يستحق هو وأمثاله هذا العفو النبوى النبيل .

لكننا لا نملك إلا أن نقول : ﴿ ولكلٍّ وجهةٌ هو مُوَلِّيها ﴾ ، وكلا الفريقين يستبق الخيرات ، فَلْيَسْتَبِقْها على النحو الذى يحب ، فليس عليه من بأس . وهذه الطريقة ، وكذلك مخاطبة شخصيات السيرة على النحو الذى رأينا قبيل قليل ، مما يتميز به الدكتور لطفى جمعة عن الدكتور هيكل والأستاذ العقاد ، رحمهم الله جميعا . إنهم كلهم متحمسون لدينهم ويغارون على نبيهم ، إلا أن جمعة ينفرد بهذا الأسلوب الذى وصفنا .

ومن العناصر البارزة فى أبحاث لطفى جمعة فى السيرة النبوية العنصرُ القانونى ، وهو أمر طبيعى ، إذ كان رحمه الله متخصصا فى القانون وأحرز فيه درجة الدكتورية فى أول العقد الثانى من هذا القرن كما ذكرنا قبلا . وقد سبق أن وضّحنا معالجته القانونية لوثيقة المدينة . ومما له دلالته أنه يأخذ على كتاب العرب مرورهم بهذه الوثيقة مغمضين أعينهم ، معللاً ذلك بأنهم حديثو عهد بالبحوث القانونية والاجتماعية[١] .

ومن هذه الزاوية القانونية نجده يقول إن موسى عليه السلام ، بعد أن قتل المصرى الذى كان يعتدى على أحد الإسرائيليين ، قد ترك مصر إلى مَدْيَن حيث « قضى مدة التقادم العَشْرى حتى سقطت القضية بمضى المدة القانونية » . وهو يوضح ذلك فى الهامش بأنه غاب فى مَدْيَن المدة

---

(١) ص ٢٠٥ .

التى حددتها القوانين الحديثة لسقوط المسؤولية الجنائية [1] . ولكن هناك سؤالا يضطرب فى نفسى ولا أستطيع أن أتجاهله ، وهو : هل كانت القوانين فى تلك الأزمنة تعرف ما نسميه اليوم بـ « تقادم الجريمة » ؟ وإن كانت فهل حدّدتها بعشر سنوات كما هو الحال فى قوانين عصرنا؟ الظاهر أن د. لطفى جمعة لم يُعَنِّ نفسه بالتفكير فى هذا السؤال والجواب عليه بل أخذ وجوده فى قوانين الأمم القديمة (أو على الأقل فى القانون الفرعونى) مأخذ التسليم . أيا ما يكن الأمر فليس فى القرآن الكريم أى شىء يتعلق بهذه النقطة القانونية من قريب أو بعيد ، إذ لم يُثِرْها فرعون ومن ثم لم يردّ عليها موسى ، بل كل ما قاله عليه السلام هو أنه قد فعل فَعْلَته وهو من الضالين .

ومن هذه الزاوية القانونية أيضا يأخذ على بلال بن رباح ، رضى الله عنه ، قتله أمية بن خلف وابنه بعد وقوعهما فى الأسر عقب غزوة بدر، لأن عملية قتل الأسرى (كما يقول جمعة) « مخالفة لقوانين الحرب » ، وإن كان قد بين أن بلالا كان له دلال خاص ، إذ هو أول من أسلم من الرقيق[2] . ولكننا نتساءل : هل كانت هناك آنئذ قوانين حرب دولية لا بد من أن تخضع لها كل الدول ؟ [3] ثم إن قول المؤلف

(١) ص ٣٢ . وقد ذكر المؤلف هذا الكلام أيضاً فى « نظرات عصرية » / ٣٣٦ .

(٢) ص ٤٨٢ .

(٣) الحقيقة أنه لم تكن هناك ولا حتى قوانين حرب لدولة المدينة ، إذ كانت بدر أول حرب يخوضها المسلمون ، ولم تكن أمام المسلمين إلا المعاملة بالمثل . ومع ذلك فإن معاملتهم للمشركين حين انتصروا عليهم وأصبحت الكلمة كلمتهم أنبل من معاملة هؤلاء لهم فى عزّ وقتهم ألف مرة .

إن أمية ، وإن عَذّب بلالا ، فإنه لم يقتله (يقصد أنه لم يكن ثمة داع لقتل بلال إياه) ، فالرد عليه هو أن ذلك التعذيب كان شيئا رهيبا لا يستطيع جمعة ولا غيره أن يطيقه ولو للحظات . لقد كان أمية يطرح بلالا ، رضى الله عنه ، فى رمضاء الصحراء وقت الهجير ويضع على صدره صخرة محمّاة بلهيب شمس مكة ، وما أدراك ما لهيبها ؟ وكل ذلك لماذا ؟ لأن بلالا قد أسلم ، وأميةُ يريده أن يبقى على الكفر ! وهذا فضلا عمن قُتِلوا من المسلمين على أيدى المشركين أو صودرت أموالهم وديارهم أو أُهينوا وأوذوا لا لشىء إلا لأنهم نبذوا الأوثان وآمنوا بالله الواحد الأحد . ثم ما الذى أتى بأمية من مكة ؟ ألم يخرج مع سائر مقاتلى قريش يريدون القضاء على الإسلام وأتباعه ؟ فإذا ظفر به بلال بعد ذلك كله وأخذ حقه منه بيده أفيصحّ أن نلومه ونلمزه ونَعزُوَ صنيعه إلى أحطّ البواعث وكأننا نقف مع أمية ضده؟ كذلك ليس من المقبول أن يقال إن قتْل بلال لأمية إنما كان إدلالا منه بسابقته فى الإسلام ، لأن مثل هذا الاعتبار لم يكن ليمنع الرسول من مؤاخذته به لو كان قد أخطأ، فقد رأيناه ﷺ يتبرأ من صنع خالد حين قتل فى إحدى الغزوات مَنْ أعلنوا من المشركين دخولهم فى الإسلام ظنّا منه أن ذلك مجرد خداع ونفاق ، كما رفض ﷺ شفاعةَ أسامة بن زيد (حِبِّ رسول الله وابن حِبِّه) فى حدّ من حدود الله .

أفيصح إذن أن يقول كاتبنا معرّضا ببواعث بلال فى قتل هذا الوثنى القرشى إن « حقد العبيد على السادة ، والسّود على البيض ، قديم غير مقصور على جنس أو زمن » ، وإن « بلالا رحمه الله تعجل وتنمر

وراجعته فورة الأحباش وحب الدماء » ؟ صحيح أنه أضاف قائلا عقب ذلك إنه يعذره (وإن كان لا يقرّه)[١] ، لكن هذا لا يكفى لمحو الإساءة التى أساءها له رضى الله عنه ، فلم يُعْرَف عن بلال أنه كان يحب الدماء ، ولم نسمع أنه حقد على أحد لا من السادة ولا من المسُودين .

ثم هل كان أمية من البيض حتى يضعه المرحوم جمعة فى مواجهة بلال الأسود ؟ كذلك إذا كان الوضع القانونى لبلال أنه من العبيد فقد كان بإيمانه وحبه لرسوله وتحمسه لدينه سيدا نبيلا من السادة الأماجد الأماثل، أما أمية بن خلف ، الذى كان عند قريش من سادتها، فهو عند الله من الحقراء المرذولين . الحق أن هذا أحد المواضع التى أرى أن جمعة ، رحمه الله ، قد جافاه التوفيق فيها .

وانطلاقا من التعليل القانونى أيضا يقول مؤلفنا ، رحمه الله، إن مرور جيش المسلمين فى غزوة أُحُد من أرض المربع بن قيظى (الذى اهتاج وتغيّظ وأخذ يحثو التراب فى وجوه الجند قائلا لرسول الله فى حقد صفيق : إن كنت رسول الله فإنى لا أُحِلّ لك أن تدخل حائطى[٢]) هو إحدى ضرورات الحرب التى تبيحها القوانين الدولية العامة[٣] .

وعند حديثه عن مسؤولية حُيَيّ بن أخطب عما حاق ببنى قريظة من

(١) نفس الصفحة .

(٢) الحائط هنا هو البستان .

(٣) ص ٩٤٨ .

عقاب صارم بسبب نقضهم العهد الذى كان بينهم وبين المسلمين وخيانتهم لهم فى أخطر الأوقات وأشدها حرجا حين هاجمهم الأحزاب من كل جانب ، لا ينسى جمعة مهنته كمحام فنراه يُعِدّ « ورقة اتهام ضد حُيَيّ بن أخطب » يسرد فيها جرائمه التى أوردته هو واليهود موارد البوار . وهو يذكر هذه الجرائم مسلسلة من ١ إلى ٧ [١] مثلما هو الحال فى عرائض الاتهام التى تقدم للمحاكم .

وعن اللّعان وما يقع عقبه بين الزوجين من طلاق يقول مؤلفنا إن الطلاق فى هذه الحالة « يقع بالقانون ، أى من تلقاء نفسه ، وهو ما يسميه الشراح الإفرنج بـ « قوة القانون » أو بـ « حق القانون : de Plein droit » ... »[٢] .

ومثلما رأيناه فى « نظرات عصرية فى القرآن الكريم » يجرى على سنّة المقارنة بين القرآن وبين الكتاب المقدس والآداب العالمية نجده هنا أيضا يكثر من المقارنة بين أحداث السيرة وبطلها ونظائر ذلك فى تواريخ الأمم الأخرى أو فى مؤلفات الأدب العالمى : مثال ذلك تشبيهه بئر جبير والتجاء العشاق إليه خارج مكة بغاب بولون بباريس ، وتعقيبه بعد ذلك فى إيماءة لطيفة بأن « ابن أبى ربيعة خير من يعرف »[٣] . يقصد أن

(١) ص ٩٨٧ .

(٢) ص ١٠٥٢ .

(٣) ص ٨١ .

هذا الشاعر الأموى كثيرا ما التقى بصواحبه فى مواعيد غرامية عند هذه البئر . وفى موضع آخر نراه ، بعد أن يسوق أبيات مضاض الجرهمى المشهورة التى تبدأ بقوله :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامرُ

يقول إن « هذه القصيدة تحتوى أسماء الأماكن الشهيرة بمكة ... ، وترديدها على لسان الزعيم المنفىّ يُشْعِر بصدق حسرته على وطنه ، كما يذكر فى معناه شاعر مصرى فى وقتنا هذا ضفافَ النيل والجزيرة وعين شمس ومنيل الروضة وقصورِ الزمالك ، أو كما يذكر البغدادى الرصافة والجسر وضفاف دجلة والكرخ ، وكما يذكر شاعر باريس المحروم من الدخول فيها غاب بولون وفرساى وسان كلو وبولفار سان ميشل وشانزليزيه » . ثم يعقب قائلا : « فالإنسان لا يتغير ، والأدب والتاريخ على فطرته وصبغته فى كل زمان ومكان »[1] . وهذا الشعور القوى بذلك التشابه بين البشر وأحوالهم رغم اختلاف التاريخ والجغرافيا هو الذى يدفعه فى كل فرصة تسنح إلى هذه المقارنات .

ومن ذلك قوله إن نظام الحُمْس الذى وضعه قُصَىّ جدّ الرسول عليه السلام ، ومعناه أولاد البلد وأبناء الحَرَم ... إلخ ، هو امتياز لأبناء الوطن وسكان مكة يشبه حقّ « حرية المدينة » الذى يُمْنَح فى بلاد الغرب للأضياف الشرفاء تمييزا لهم واعترافا بمكانتهم وإظهارا لشرف الانتساب

(١) ص ٩١ .

إلى البلد الذى يمنح أهلوه ذلك اللقب[1] . وبالمثل يرى جمعة أن الوثنى العربى فى سعيه للحصول على صنم لخيمته من مكة يشابه الفلاحَ الروسى فى عهد القياصرة أو المزارعَ اللاتينى فى كل العصور فى اهتمامه بشراء تماثيل للعذراء والمسيح والقديسين ووضعها فى بيته استدرارا للرحمة وللبركة[2] . وعند تعرضه للمهن التى كان يمتهنها زعماء قريش فى الجاهلية كأبى سفيان ، الذى كان زياتا ، وابن جدعان تاجر الرقيق ، وعثمان بن طلحة الخياط ، نراه يستطرد فيذكّرنا بأن فليكس فور رئيس فرنسا كان دباغا ، وفليكس يونان كان بدالا ، ومسيو مارتل كان خمارا ، وكارنجى كان ملك البترول ، ورِوكفلر ملك الحديد... وهكذا [3] . كما يذكّره ظهور إبليس فى صورة شيخ نجدى (فى الاجتماع الذى عقدته قريش للائتمار بالرسول عليه السلام ليقتلوه) بظهور الشيطان فى مسرحية « فاوست » وظهور شَبَحَىْ والدَىْ هملت فى مسرحية شكسبير [4] . وعن « الإيلاف » الذى أقامه قُصَىّ بن كلاب بين قبائل قريش يقول إن قصيا قد صنع لمكة أكثر مما صنع تيزيو لأثينا ورومولو لروما [5] . وعند كلامه عن نصيحة الرسول للمسلمين أن

(١) ص ٩٨ .
(٢) ص ١٠٢ .
(٣) ص ١٤٠ .
(٤) ص ١٤٩ .
(٥) ص ٢٤١ .

يختاروا زوجاتهم من غير أقربائهم يشير إلى أن المشاهَد فى زواج الأقارب مجيءُ النسل فى أغلب الأحوال « ذاويا ضعيفا لخلو الدم من العناصر الغريبة التى تسبب التجانس والقوة والجمال والفطنة » ، كما يشير إلى « ضعف النسل وانحطاط قواه بعد الجيل الثانى والثالث فيُولَد معظم الأولاد بعاهات دائمة فى الجسم والنفس » ، ثم يذكر فى الهامش أن ذلك قد حدث لبعض الأسر المالكة فى أوربا ومعظم الأرستقراطيات المسيحية والإسلامية [١]. وهو يقارن بين أبى سفيان فى الجاهلية وأولئك الرجال الذين عُرِفوا فى القرون المظلمة فى أوربا باسم « الكونديتورى » ، أى الذين يقودون الأشداء من شرار القوم ويجمعون المجرمين ، وكذلك مشايخ العصابات المسلحة فى الولايات المتحدة الذين يُسَمَّوْن «البوص»[٢] أو « الجانجستر » ، كما يقارن بين الزعيم القرشى وقومه وبين آل مديتشى أو بورجيا فى القرون الوسطى ، الذين اشتهروا بحب الشهوات والاستبداد والقسوة والإفراط فى التماس السيادة[٣].

وهو يسخر من مرجليوث ، الذى يتهم النبى عليه السلام بأنه استمد وحيه من أحاديث الشاربين فى الحانات وتجار الأقمشة من اليهود ، قائلا إن « هذا الرجل الذى يعيش فى القرن العشرين يتوهم أن مكة فى القرن السابع المسيحى كانت تضارع لندن بعد ثلاثة عشر قرنا بل تتفوق

(١) ص ٢٥٢ .
(٢) أغلب الظن أنه يقصد " the boss " .
(٣) ص ٣٩١ _ ٣٩٢ .

عليها مُذْ كان رواد مقاهيها وحاناتها يصلحون لتعليم الأنبياء وتخريج الرسل ، وهذه لندن وباريس وروما بكل ما فيها من المعاهد الجامعات والمقاهى والأندية وتجار اليهود والهنود لم تخرِّج نبيا واحدا . ولم نعلم أن رجلا ألف كتابا أو نظم ديوانا جمع مواده ولبابه وصاغ قوالبه وأبدع بيانه على مناضد المقاهى أو فى زوايا الحانات ، اللهم إلا أن يكون ناظما مفلوكا أو مدمنا هلوكا لا يغنى إنتاجه ولا يسمن . وحتى هؤلاء المفاليك المهاليك أمثال ألفريد دى موسيه وبول ڤرلين وأرتور ريمبو كانوا مثقفين معروفين بلون من النبوغ وميل إلى الأدب وانطباع على النظم والنثر ، وكانت لهم بيوت وكتب وأنصار ومريدون ومحبذون ، فاتخذوا من سَمَر المقاهى والحانات محرِّضا على شهوة الشعر واستحثوا بالخمر والتخدير قرائحهم الراكدة وأذهانهم الراقدة وألهبوا بسياط المرئيات ظهور جياد الخيال وأشعلوا بنيران الشهوات كوامن المواهب العليلة كمن يحرق أجزاء سفينته ليبلغ مرفأ النجاة »[١]. وحين يتحدث عن أمهات المؤمنين النبيلات يؤكد أن « النبى لم يتزوج نساءه ليلهو بهن وليجعلهن عرائس الخيال وأشباح الشهوات ، ولم يكن بيته « حريما » بالمعنى البغدادى أو الأندلسى أو التركى كما يريد بعض المستشرقين أن يَصِموه به . ولو كان ذلك كما زعموا أو وهموا لكان هو المبادر إليهن بالزينة والنعومة فى الثياب والمصوغ فيمشين كالممثلات فى هذا العصر أو كنسوة الملوك

(١) ص ٤١٠ _ ٤١١ .

وسراريهم ومحظيّات « خلفاء الشؤم » الذى أضاعوا دولة الإسلام أو خواجات السلاطين الذين بددوا ملك آل عثمان »[١] . كما يؤكد أنه عليه السلام قد « سبق ملوك أوربا بألف وثلثمائة سنة ، فقد أرغم الملوك على أن تنزل نساءهن[٢] فى أبسط الثياب إلى شوارع المدن وأزقة الأحياء الفقيرة ومصانع العمّال وأكواخهم لتراهن نساء الطبقات المتعسرة عن قرب لتطمئن إلى حياتها كل امرأة شريفة قائمة حياتها على الصبر والمجاهدة والإخلاص والعفة والقناعة ، ثم تنشر صحفهم أن كريمة الإمبراطور فلان تجيد الطبخ الرخيص ، وزوجته ذات التاج والصولجان ترقع بعض ثيابها البيتية ، وتغير غلالتها بقماش جديد احتفظت به ، وتخيط زرايرها بيدها ، وتُعِدّ وجبة الإفطار لأولادها وزوجها بيدها »[٣] ، مع الفارق طبعا ، إذ إن هؤلاء إنما يفعلن فى الغالب ما يفعلن التماسا للشهرة ومن باب الدجل السياسى ، أما أمهات المؤمنين فقد كن يعطفن من أعماق قلوبهن على الضعفاء والمساكين ويتقربن إلى الله بذلك ، بل كن يعشن عيشة التقشف والكفاف التى يعيشها الضعفاء والمساكين .

ولتأكيد أهمية فتح مكة فى تاريخ الإسلام وسيّر الدعوة المحمدية يقول مؤلفنا إنه لو لم يتم هذا الفتح لظل الرسول « صاحب دين محلىٍّ

(١) ص ٤٦٦ .

(٢) هكذا ، والصواب « نساؤهم » .

(٣) ص ٤٦٧ ـ ٤٦٨ .

مقصور على يثرب كما كان أخناتون صاحب عقيدة توحيد فى عبادة قرص الشمس ، فقد أبق إلى تل العمارنة وعبد ربه قرص الشمس ودعا إليه من دعا ولم يلبث حتى انقرضت العقيدة وأرغم كهنة آمون رع خليفته توتنخ آمن[١] على الردة والعودة إلى طيبة لتمجيد الآلهة القديمة ، لأن أخناتون كان يؤثر السلامة معتمدا على هداية العقل والقلب ، ولكن هذه خطة فاشلة قديما وحديثا ، فإن لم تدافع عن عقيدتك بالسيف فلا تفوز تلك العقيدة أبدا »[٢] . كذلك أخذ جمعة يضرب الأمثال من الأمم المختلفة ليدلل على أن الأشخاص الغرباء كثيرا ما ينجحون فى السيادة على بلادٍ غير بلادهم وناس غير ناسهم مثلما فعل محمد عليه السلام ، فقد كان مكيا ثم هاجر إلى المدينة وأصبح حاكما عليها ثم على بلاد العرب. وكذلك الحال مع العرب الذين حكموا الأندلس ، وملوك إنجلترا ذوى الأصل الألمانى ، ونابليون الكورسيكى الذى حكم فرنسا ، وهتلر النمسوى الذى وصل إلى السلطة فى ألمانيا ، وستالين الجورجى الذى صار سيد الاتحاد السوفيتى كله ، ومحمد على اليونانى الأصل الذى أسس أسرة تسلطت على مصر قرنا ونصفا تقريبا ... وهكذا[٣] .

ويحلل لطفى جمعة النفاق ونفسيات المنافقين فيتطرق إلى ذكر أبطال الأعمال المسرحية العالمية الذين جسّد فيهم مؤلفوها هذه الرذيلة

(١) يقصد توت عنخ آمون .

(٢) ص ٦٩٩ .

(٣) ص ٧٤٨ ـ ٧٤٩ .

القاتلة ، مثل تارتوف الفاسق المدَّعِى التدين فى مسرحية موليير الشهيرة ، ورجال البلاط فى « هاملت » وياجو فى «عطيل » لشكسپير ، كما يَذْكُر رجال البلاط الرومان الأوغاد فى عهد نيرون وطيبريوس ، ويهوذا الإسخريوطى الذى باع المسيح لأعدائه ، والشرطى فوشيه الذى غدر بمولاه بوناپرت[1] . وهو فى أثناء ذلك كله يُبَشِّع هذا الخُلُق المنحط ويرينا ثماره السامة والكوارث الرهيبة التى تأتى فى ذيله .

وعندما يصل فى حديثه عن غزوة بدر إلى لقاء الجيشين ويصف قلة العُدَّة والعدد التى كان عليها الجنود المسلمون ويذكر دعاء الرسول ربه أن يَحْمِلهم من حفًا ويكسوهم من عُرْى ويُشْبِعهم من جوع ويُغْنيهم من عالة يتساءل قائلا : « أليسوا روادا هؤلاء العراة الحفاة الجياع فى كل ثورة عالمية ؟ ألم يكن رجال ثورة فرنسا يطلق عليهم « من لا سراويلات لهم : les sans culottes » ؟ عجبا ! وكيف لا يكونون كذلك وفيهم المنفىّ من وطنه والمسروق المحروم على أيدى المنافقين والمشركين واليهود؟ »[2] . وبالمثل يذكِّره سقوط المطر فى هذه الغزوة وتوفيره السقيا للمسلمين ودوابهم وتسبّبه فى تلبد الرمال تحت أقدامهم بعد أن كانت تسوخ فيها وتحوُّله إلى بلاء ونقمة على الكافرين بما حدث فى موقعة واترلو ، إذ سقط المطر على جيش بوناپرت وجيوش أعدائه فغاصت

(١) ص ٧٦٨ ـ ٧٦٩ .

(٢) ص ٨٠٣ .

عجلات مدافعه فى الطين وشلّت بذلك قُوَّته الحربية ، على حين لم يكن أعداؤه يعتمدون على المدافع اعتماده عليها ، فكان المطر هنا أيضا سببا فى انتصار أحد الفريقين المتحاربين واندحار الآخر[1] . وعن دور الدعاية الحربية فى غزوة بدر واهتمام زعماء قريش بها فى صراعهم مع الإسلام وتجنيدهم الشعراء فى هذا السبيل يذكر أن الحلفاء فى الحرب العظمى الأولى قد استعملوا ألفرد هارمزورث رئيسا للپروپاجندا ، ثم توسعوا فيها هم وأعداؤهم فى الحرب العالمية الثانية توسعا كبيرا[2] . وعن « عصابة الموت » الحمراء التى تعصَّب بها أبو دجانة فى واقعة أحد يقول : « العجيب فى الأمر أن اللون الأحمر كان منذ القديم لون الموت وشعار الفدائيين ، وقد اتخذه الاشتراكيون والفوضويون فى العصور الحديثة رمزا للثورة والدم والإقبال على الموت والاستهانة بالحياة . واتخذ الألمان فرقة تلبس خُوذَة عليها جمجمة وعظام وسمَّوْا أنفسهم « فرسان الرَّدَى » ، وخُوذَتهم هذه أشبه الأشياء بعصابة أبى دجانة فى معركة أُحد »[3] .

وهكذا ينتهز د. محمد لطفى جمعة كل فرصة تسنح له للمقارنة بين أبطال الإسلام وحوادث تاريخه فى العصر النبوى ونظائر ذلك فى التواريخ القديمة والحديثة فى أوربا أو فى الأعمال الأدبية العالمية . وهذا

(١) ص ٨١٨ .

(٢) ص ٩٣٦ .

(٣) ص ٩٥١ .

يدل على ثقافة متنوعة غزيرة وذهن حاضر ونظرة شاملة ومقدرة على الربط بين أحداث التاريخ المتباعدة فى الأمم المختلفة والنفاذ إلى أوجه التشابه بين البشر المختفية تحت مظاهر الاختلاف البادية للعيان . ولا أذكر أنى قابلت عند غيره من كُتَّاب السيرة مقارنات بهذه الكثرة التى لا تُعَدُّ الأمثلة التى سقتها هنا إلا جزءا يسيرا منها . وقد رأينا مثل هذه المقارنات فى كتابه « نظرات عصرية »، لكن ليس بهذا التوسع والتتابع .

ومما له اتصال بهذه المقارنات حرص جمعة بين الحين والحين على أن يحول قيمة المبالغ النقدية فى الجاهلية والإسلام من الدراهم والدنانير إلى الجنيهات فى عهده تقريبا للأمر إلى ذهن القارئ المعاصر ، وذلك كقوله : « إن قافلة قريش التى أوقع بها جيش المهاجرين والأنصار بقيادة النبى صلى الله عليه وسلم فى موقعة بدر قُدِّرت بعشرين ألف جنيه ذهبا، أى ما يزيد على أربعين ألف دينار بتقدير النقد الحديث »[1]، وقوله : « كان الأجر الذى يتقاضاه كاهن هُبَل أو صاحب القداح مائة درهم وجزورا ، أى ما قيمته الآن ثلاثة أو أربعة جنيهات »[2] ، وقوله إن الثمن الذى بيعت به دار الندوة فى الإسلام ، وهو مائة ألف درهم ، يساوى فى عصرنا الحاضر من ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف جنيه [3]،

(١) ص ٥٨ .
(٢) ص ١٨٨ .
(٣) ص ٢٥٨ .

وقوله عن أم المؤمنين سَوْدَة بنت زمعة إنه قد « وصل إلى يدها خمسة عشر ألف درهم ، أى ستة آلاف جنيه بتقدير هذا العصر »[1] ، وقوله عن الستر والسوارين التى رآها النبى عند ابنته فاطمة فرجع فلم يدخل بيتها حتى مزقت الأول وباعت الاثنين الآخرين وتصدقت بثمنهما على أهل الصُّفَّة إن ثمنها جميعا لا يبلغ عشرين قرشا بعملة هذا الزمان[2]، وقوله عن الخمسين ألف دينار التى رصدها مشركو مكة لحرب الرسول فى أُحُد إنها « تعدل فى زماننا هذا حوالى عشرين ألف جنيه »[3]. وتقويم المبالغ النقدية فى الجاهلية والإسلام بالجنيه المصرى على هذا النحو مما ينفرد به ، فى حدود علمى ، لطفى جمعة فى تأريخه لحياة الرسول عليه السلام .

ونصل الآن إلى آراء مؤلفنا المتميزة التى وردت فى الكتاب والتى قد يحتاج بعضها إلى التريث أمامه ومناقشته : فهو مثلا يؤكد أن عرب الجاهلية لم يكونوا يعرفون شيئا عن الديمقراطية على خلافهم بعد الإسلام . وهو يضرب مثلا على ذلك حالة عنترة بن شداد ، الذى أنكره أبوه للونه الأسود ولأنه ابن أَمَة ، مما يدل على أن موقف العرب من اللون الأسود هو نفس موقف الأمريكيين الآن ، إذ لم يشفع لعنترة أنه كان

(١) ص ٤٥٠ .
(٢) ص ٤٦٩ .
(٣) ص ٩٣٦ .

شاعرا من الطراز الأول وفارساً مقداما وزعيما سياسيا ، وأنه أنقذ قبيلته من الهزيمة والهوان . وقد أرجع كاتبنا جمود قريحة عنترة الشعرية قبل اعتراف أبيه به إلى أنه كان عبدا ، والعبودية (فى نظره)حالة نفسية ترين على القلب وتطفئ ضرام العواطف ، لكنه بعد إعطائه حريته أصبح خلّقاً آخر[١] . فأما القول بمجافاة العرب للروح الديمقراطية فقد قرأت مثله للأستاذ العقاد فى كتابه « الديمقراطية فى الإسلام » ، لكن كتاب د. جمعة أسبق ، لأن العقاد أصدر كتابه فى سنة ١٩٥٢م ، على حين ألف جمعة كتابه فى السيرة وأصدر الجزء الأول منه فى أواخر الثلاثينات . ومع هذا فإن ما ذكره مؤلفنا غير كاف فى البرهنة على مجافاة العرب للديمقراطية كما نفهمها الآن وكما كان الإغريق يفهمونها قديما حسبما يقول . ذلك أن تعايش أمة ما مع اللون الأسود لا يشكّل إلا جانبا واحداً من الديمقراطية ، وإلا كانت الأمة الأمريكية أمة غير ديمقراطية ، ومثلها فى ذلك الأمة الإغريقية ، وهذا مالا يقول به أحد . ثم إن والد عنترة قد اعترف به ، وكان شافعُه عنده هو مواهبه الشخصية . على أنى لست أقصد أن أقول إن أمة العرب فى الجاهلية كانت أمة ديمقراطية أو لم تكن كذلك ، بل كل ما أحب أن أقرره هو أن الموضوع يستحق دراسة أوسع وأعمق من هذا .

وعن الزعم الذى يتهم الرسولَ الأعظم بأنه كان مصابا بالصَّرْع يقول كاتبنا إن أول من قال به هو المستشرق الألمانى تيودور نولدكه فى كتابه

(١) ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

« تاريخ القرآن »[١] . والذى أعرفه أن هذا الاتهام قديم ، وكان من أوائل من اتهموا الرسول به الكاتب البيزنطى ثيوفانيس[٢] ، ثم شاع هذا الادعاء بين الأوربيين حتى العصر الحديث .

ومن آراء جمعة التى تلفت النظر قوله إن خديجة لم تكن قد بلغت الأربعين عندما تزوجها الرسول عليه السلام ، ومن ثم لم يكن الفرق بينهما فى العمر خمسة عشر عاماً بل بضع سنين لا تزيد على الثمانى أو العشر فى أقصى تقدير[٣] . وهو رأى قال به بعض علمائنا القدامى[٤] ، ومن الممكن أن يكون صحيحاً ، وإن كان المشهور أنها كانت تكبره بخمس عشرة سنة . وقد يعضد هذا الرأى الأخير قول عائشة عنها إنها كانت « عجوزا حمراء الشدقين » ، إذ لو كان الفرق بين عمرها وعمره عليه السلام ضئيلا لكان معنى ذلك أنها ماتت قبل أن تبلغ الستين ، ومن ثم لم يصح أن توصف بالعُجُوز وحُمْرة الشدقين ، اللهم إلا إذا قيل إن عائشة قالت ما قالته على سبيل الغيرة والمبالغة للتهوين من شأن

(١) ص ٢٨٩ ، وقد سبق أن سقنا تفنيد جمعة لهذا الادعاء السخيف .

(2) Gibb, Mohammedanism, Oxford University Press,1949, p. 23 .

(٣) ثورة الإسلام / ٤٣٠ .

(٤) فمثلا أورد ابن سعد رواية عن ابن عباس أنها كانت يوم تزوجها بنت ثمان وعشرين (طبقات ابن سعد / دار التحرير / ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م/ ٨ / ١٠) . كما أورد كل من الحلبى والحافظ ابن كثير قولا بأنها كانت ابنة ثمانٍ وعشرين وقولا آخر بأنها كانت ابنة خمس وعشرين (إنسان العيون / مصطفى البابى الحلبى/ ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م / ١ / ٢٢٩ ، والبداية والنهاية / دار الفكر العربى / ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م / ١ / ٢٩٥) .

خديجة ، التى كان محمد عليه السلام يحبها حتى بعد موتها حبا شديدا ولا يطيق أن يمس أحد ذكراها بسوء ويكرم كل من كانت له بها صلة إكراما لتلك الذكرى العطرة .

ويستنفر جمعةَ استنفارا عنيفا ما يقوله بعض من تناولوا سيرة النبى عليه السلام من أن خديجة لجأت إلى إسكار أبيها ليلة خِطْبة محمد لها ودخوله بها كى تتخلص من رفضه لهذه المصاهرة . وهى رواية انقض عليها بعض المستشرقين الأوغاد كما ينقضّ الكلب على الجيفة المنتنة ظنا منهم أنها تسىء إلى الرسول عليه السلام . وقد ردّ جمعة على هذه القصة التافهة قائلا إن خويلدا والد خديجة كان قد مات قبل هذا الزواج ، وإنه لو كان لا يزال حيًا لأسعده أن يكون محمد له صِهْرا . ثم إن محمدا ليس بالرجل الذى يقبل أن يختلس زوجته على هذا النحو دون رضا أبيها . وإذا كان أعمام خديجة كلهم قد رحبوا به ترحيبا ، فما الذى يجعل أباها دونهم جميعا يرفض هذا الزواج ؟ [1] وهى ، كما ترى ، أدلة قوية تنسف هذه الرواية الغريبة التى سطرها بعض مؤرخينا القدامى بحسن نية تأثرا بالإسرائيليات غير مدركين أبعادها الخطيرة رغم ما يظهر عليها من سخف.

(١) ص ٤٣٤ _ ٤٣٦ . وفى « طبقات ابن سعد » (٨ / ٩ _ ١٠) و «تاريخ الطبرى» عن الواقدى (ط٢ / دار المعارف / ٢ / ٢٨٢) و « الروض الأُنُف » للسهيلى (ط. طه عبد الرءوف سعد / مكتبة ومطبعة ابن شقرون / ١٣٩١هـ _ ١٩٧١م / ١ / ٢١٣ _ ٢١٤) و « إنسان العيون » للحلبى (١ / ٢٢٥) و « البداية والنهاية » للحافظ ابن كثير (١ / ٢٩٦) أن أباها خويلد بن أسد مات قبل أن يتزوجها الرسول عليه السلام : وذلك يوم الفجار عند بعض ، وقبْله عند بعض آخر .

هذا ، وكلنا يعرف الحديث المنسوب للنبى عليه الصلاة والسلام والذى يقول إنه لن تقوم القيامة قبل أن يقتتل المسلمون واليهود ويختبئ اليهود خلف الشجر والحجر ، اللذين يدلان عليهم المسلمين ، إلا شجر الغرقد ، فإنه لا يتكلم ولا ينبس بما يفضح اختباءهم خلفه . ويحار الإنسان فى السبب الذى يجعل شجر الغرقد استثناءً من سائر الأشجار ، لكننا نقرأ عند كاتبنا أن هناك أسطورة يهودية تقول إن هذا الشجر الخبيث لا يدل على اليهود يوم عودة المسيح إلى الأرض [1] . ورغم ذلك فإن د. جمعة للأسف لم يقل لنا أين قرأ عن هذه الأسطورة ولا أين توجد .

وعندما يتعرض المؤلف للسبب الذى مِن أجله حاصر الرسول بنى قينقاع ثم أخلاهم عِن المدينة نراه يتهم ما يُرْوَى عن المرأة المسلمة التى كشف سوأتَها بعضُ اليهود فى سوقهم بأنه رواية مختلَقة مأخوذة بحذافيرها من حرب الفِجَار الأولى ، وهى عُقْدة يلجأ إليها المؤرخون عندما يعوزهم السبب الصَحيح لحرب من الحروب كما يقول . ثم يؤكد أن الرسول إنما حاربهم لأنهم لم يعترفوا بانتصاره المعجز فى بدر بل استهانوا به ونسبوه إلى خيبة القرشيين وعجزهم وهدّدوه من طرف خفى وقاطعوا الذين أسلموا منهم كعبد الله بن سلام وسخروا من الإسلام وشعائره وغاظهم تحريم الخمر ، إذ كانوا يتاجرون فيها فرأَوْا فى تحريمها حرماناً لهم مما كانوا يحرزونه من مكاسب واسعة ، ثم أتبعوا ذلك الغدر باللواذ بحصونهم حيث حاصرهم النبى أسبوعين استسلموا بعدهما

(١) ص ٧٣٤ .

وانتهى أمرهم إلى الجلاء عن المدينة [١]. وكل هذا جميل إلا قول المؤلف إن قصة المرأة المسلمة مختلَقة ، إذ لا دليل له على الحكم بالاختلاق . ومثل هذه الروايات لا تُرَدّ بمجرد الشك فيها لشبهها بأسباب بعض الحروب السابقة، فالحياة تكرر نفسها كثيرا ، ولا ينبغى من ثم اتخاذ هذا التكرار دليلاً على اختلاق الرواية التى تذكره .

وبالمثل يرد جمعة الرواية القائلة بأن محمد بن مسلمة وصحبه الذين قتلوا كعب الأشرف ، حين أرادوا إنزاله من حصنه ومفارقة حضن عروسه الجديدة ، كانت حيلتهم التى أغْرَوْه بها هى إيهامه بأنهم يرغبون فى شراء القوت منه مقابل أسلحة يرهنونها عنده ، لأن اليهود (كما يقول) غير متعودين على عقد صفقاتهم تحت جنح الظلام والناس نيام خشية أن يتعرضوا للخداع ، وبخاصة أن كعباً كان عروساً جديدا . إنما السبب فى رأيه هو أنهم قد أوهموه بنيّتهم فى اغتيال النبى عليه السلام ، فمثل هذا هو وحده الذين يمكن أن يخلعه من حضن عروسه[٢]. وأيّا ما يكن الأمر فالملاحظ أنه قد أغفل سَفْرة كعب إلى مكة لتحريض قريش على الانتقام من المسلمين، الذين هزموهم فى بدر وجندلوا سبعين من صناديدهم وزعمائهم وكذلك أشعاره التى يهيجهم بها وينتهش أعراض المسلمات[٣] .

ولكاتبنا تعليل لأمّية الرسول لست أستطيع أن أتذكر أنى قرأته لدى

(١) ص ٨٩٤ ـ ٨٨٧ .

(٢) ص ٩٠٤ ـ ٩٠٥ .

(٣) ولصاحب هذه السطور قصة للفتيان والفتيات بعنوان « مقتل كعب بن الأشرف » (دار الفتح / بيشاور / ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م) ذكر فيها أعمال الغدر التى قام بها هذا اليهودى الخبيث .

غيره ، إذ يقول إن هذه الأمّيّة قد أعانته على السير فى دعوته قُدُما لا يحيد ، إذ لو كان من المتعلمين المثقفين لما اختار لنفسه هذه السبيل بسبب ما كان خليقا أن يعتريه بسبب التعليم والثقافة من حيرة وتردد وتضييع للوقت فى الموازنة بين مختلف الأمور[١]. لكننا نتساءل : لقد كان عيسى مثلا يقرأ ويكتب ويطالع التوراة فلِمَ لَمْ يمنعه هذا من أن يكون نبيا رسولا وأن يصبر على لأواء الدعوة بين اليهود المشهورين بلجاجتهم وخبثهم ؟ ومثله فى ذلك موسى عليه السلام .

وبسبب اعتزاز مؤلفنا بالإسلام وغيرته الشديدة عليه نراه يفنّد دعوى من يدّعون أن عرب الجاهلية كانوا على مستوى عال من الحضارة ، إذ يشعر أن هؤلاء المدّعين إنما يريدون الحطّ من شأن الإسلام والتقليل من التأثيرات الثقافية والروحية التى أحدثها وانتقل بها العرب من الفقر والتناحر والوثنية والمذلة والخضوع للأجنبى فى بعض أجزاء بلادهم إلى العزة والغنى والوحدة والتوحيد والسيادة . وهو يرى فى هذا الإعلاء من شأن الجاهلية لونا من الشعوبية ، ولهذا نجده يهاجم من يقولون بذلك هجوما مضطرما ويسميهم أدعياء وجهّالا وملاحدة ويَسِم مزاعمهم بالسخف والمكابرة والبطلان . حتى الوفاء الذى اشتهر به الجاهليون ينفيه عنهم مؤكدا أنهم لم يعرفوه إلا بعد الإسلام ، أما قبله فقد كان الغدر من أبرز رذائلهم . أما دار الندوة فلا تزيد فى رأيه عن مجلس من المجالس القروية[٢]. لكنه ، رغم ذلك كله ورغم نقله نصّا بحذافيره لأحد

(١) ص ٩١٥ .

(٢) انظر ، فى تقليله من شأن العرب قبل الإسلام وتخطئته لمن يقولون بعكس ذلك ، ص ٦٨ ، ١٢٣ ، ١٣٠ ، ١٤٥ ، ١٦٥ ، ١٩٢ ـ ١٩٣ .

المشيدين بأوضاع العرب فى الجاهلية ، لا يسمى أحداً من هؤلاء .

ومن آراء جمعة البارزة فى هذا الكتاب رأيه السّئ فى الأمويين الذى لا يكفّ عن إبدائه فى كل مناسبة تسنح وبمنتهى العنف لا يستثنى منهم أحداً . وللعقاد رأى مشابه فى هذه الأسرة ، ويمكن الرجوع إلى كتابه « معاوية بن أبى سفيان فى الميزان » للتعرف على هذا الرأى بكل جوانبه وحيثياته ، لكن جمعة أسبق فى هذا لأن كتابه ظهر قبل كتاب العقاد بأكثر من ست عشرة سنة [١] ، كما أن أسلوبه شديد العنف .

لقد قال عن جدهم الأعلى عبد شمس إن اسمه « يدل على صابئيّتهم لأن الصابئين كانوا يتخذون أسماءهم بعبادة الأجرام السماوية والكواكب » ، كما ذكر أن أخبار أمية ابنه فى الجاهلية تدل على قلة عفته وأنه قد صنع فى الجاهلية ما لم يصنعه أحد من العرب ، إذ زوج ابنه أبا عمرو من امرأته فى حياته ، أى أنه « مارس نكاح المقْت لولده» ، وأن الزرقاء أمّهم كانت من صواحب الرايات فى الجاهلية ، وكذلك هند زوجة أبى سفيان[٢] ، وأنهم لم يكن لهم مشاركة فى حلف الفضول ، ومن ثم لم يوفّقوا إلى الخير[٣] ، وأن محالفة حرب ابن أمية للشاعر الفاتك الخليع المجرم البراض بن قيس الكنانى برهان

(١) ظهر كتاب العقاد فى ١٩٥٦م .

(٢) ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ، وانظر أيضاً قوله عن هند إنها « كانت مع زواجها من أبى سفيان لها أحاديث ومغامرات » (ص ٩٨٨) .

(٣) ص ١٤٦ .

على « ما فُطِرَتْ عليه هذه العشيرة من الأذى والإجرام »[١] .

كذلك وصف أبا سفيان بالنفاق والخوف من الخصوم[٢] ، وذكر أنه كان يهتف للروم (؟) فى حُنَيْن [٣] ، وشبّهه فى الجاهلية بزعماء المجرمين الأوربيين فى القرون الوسطى ومشايخ العصابات المسلحة فى الولايات المتحدة المعروفين باسم « البوص » و «الجانجستر»[٤] ، وأكد أنه كان خيرا للإسلام لو كان قد قُتِل عند فتح مكة بدل عفو الرسول عليه الصلاة والسلام عنه[٥] ، ووصفه بـ «القصير الأصلع السمين»[٦] وبـ « الشيخ الخبيث »[٧] ، وأكد أنه لم يخلص للإسلام بعد إسلامه[٨] ، وأشار إلى اللقب الذى اشتهرت به هند زوجته منذ لاكت كبد حمزة رضى الله عنه ، وهو « آكلة الأكباد »[٩] ، وقال إنها لم تكن ممن يَرْعَيْنَ الكرامة لأحد ولا حتى

(١) ص ١٧٤ .

(٢) ص ٤٠ .

(٣) ص ١٠٩ . ولعله قصد المشركين لكنه سها .

(٤) ص ٣٩١ ، وقد حمل المؤلف مثل هذه الحملة الشديدة على أبى سفيان فى كتابه « الأيام المبرورة فى البقاع المقدسة » فى فصل « دار الأرقم » كما سلفت الإشارة .

(٥) ص ٨٦٦ . وقد رحب أيما ترحيب باقتراح عمر حينذاك أن يضرب عنقه (ص ١٠٢٢) .

(٦) ص ٩٢٢ .

(٧) ص ١٠١٩ .

(٨) ص ١٠٢٤ ـ ١٠٢٥ .

(٩) ص ٤١٥ ، ٨٠٩ ـ ٨١٠ ، ١٠١٩ .

لنفسها [١] ، وأثبت لأصحاب رسول الله كلهم الزهد والقناعة ونفى أن يكونوا أبيقوريين إلا معاوية[٢] ، فقد استثناه منهم[٣] ، ودعا على ابنه «يزيد» أن « يزيده » الله عذابا [٤] .

ومع ذلك كله فقد أثنى على أبى سفيان وعلى موقفه فى غزوة أُحُد عندما ذكَّر بنى عبد الدار حَمَلَةَ راية المشركين بأن هزيمة المكيين فى بدر إنما جاءت من قِبَلِهم قائلا لهم : « إما أن تكفونا لواءنا [٥] وإما أن تُخَلّوا بيننا وبينه فنكفيكموه » ، يريد بذلك أن يحمّسهم ويحرضهم على الثبات فى القتال ، إذ قال جمعة رحمه الله : « وهنا يجب علينا أن نقف موقف الإعجاب من أبى سفيان ، فقد أظهر من الوطنية والحنكة وحسن التدبير ما يستحق الثناء فى ذاته ، فقد أصاب الإصابة كلها فى وصف العَلَم والراية وقال بنص صريح إن العَلَم رمز أمانىّ الأمة ، فإذا زالت زالت الأمة . وما أجدر الشرقيين باحترام هذه الكلمة ! ... إلخ » [٦] .

---

(١) ص ٩٢٦ .

(٢) ومع ذلك فإنه ، فى خطبة ألقاها أمام الملك عبد العزيز فى مكة أثناء حجّه ، قد وصفه بأنه « من أحلم ملوك الأرض » (الأيام المبرورة فى البقاع المقدسة / ١٠٧) .

(٣) ص ٩١٤ .

(٤) ص ١٠١٩ .

(٥) اللواء هو راية الحرب .

(٦) ص ٩٥٢ .

وأخيرا فكما لاحظنا قسوة عبارة جمعة فى عدّة مواضع من كتابه « نظرات عصرية فى القرآن الكريم » عن بعض الرسل والأنبياء فكذلك نلاحظ قسوة العبارة فى « ثورة الإسلام » عند حديثه عن هذا الصحابى أو ذاك ، بالإضافة إلى نبى الله داود . ونبدأ بهذا النبى الكريم عليه السلام ، الذى قال فيه مؤلفنا إنه « كان يفلق قلوب شعبه بالبكاء » ، إشارةً إلى ابتهالاته الباكية فى مزاميره [١] ، وهى عبارة لا تليق أن تستخدم فى حق نبى من أنبياء الله . إن الكلمة فى ذاتها غير مسيئة ، لكن إيحاءاتها فى اللغة العامية التى أخذها منها كاتبنا تشى بغير قليل من التهكم والضيق . وأحسب أن القلم قد جرى فى يده دون قصد منه أو أن « القافية حَكَمَتْ » كما يقولون .

وفى تعليق له على إشارة أم المؤمنين زينب بنت جحش إلى سيدتنا صفية بنت حُيَىّ أثناء حديثها مع الرسول عنها بعبارة « يهوديتك » (إيماءً إلى أصلها اليهودى قبل أن تفارق دين قومها وتُسْلِم) نراه يصف هذه الإشارة بأنها « جوابُ جافٍ غير كريم »[٢]. وما كان ينبغى أن يقول هذا عن كلام إحدى أمهات المؤمنين . إننا نحترمهن جمعاوات ولا نفرق بين إحداهن والأخرى ، ولكلٍّ من بنت جحش وصفية (رضى الله عنهما وعن سائر أمهات المؤمنين) فى قلوبنا مكانة سامية ، ولا نرى من الكياسة التدخل بينهن فى تنافسهن على كسب قلب

---

(١) ص ٧٥٤ .

(٢) ص ٤٨٢ .

الرسول وتغايرهن عليه ، وهى مشاعر طبيعية جدا لا يحق لنا ولا يليق بنا أن نصفها بما وصفها به المرحوم جمعة .

وبالمثل يعطى جمعة لنفسه حرية تتجاوز الحد المقبول فى وصف شكوى العباس بن عبد المطلب من الفقر (حينما طلب منه الرسول فى بدر أن يفتدى نفسه ومن معه من أهل بيته من الأَسْر بمائة أوقية) بقوله: « هذا كَذِب ، ولكنه ينطبق على عقلية الغنى البخيل يتظاهر بالفقر ويستميت لينجو من الدفع ، ويزعم الفاقة غير حريص على كرامته ، لأن الفقير الصادق لا يرضى بذلّ الاعتراف ... فنفسية العباس إلى أن أُسِر فى بدر (رضى الله عنه لأنه أسلم فيما بعد ، والإسلام يَجُبّ ما قبله) كانت نفسية منحطة لاصقة بالتراب ، حريصة على الذهب والفضة ، مرتابة كل الريب فى صدق وعود الله ورسوله شاكّة كل الشك فى حسن الجزاء الذى ورد فى القرآن فى عشرات الآيات ... إلخ »[1]. وقد حاول المؤلف ، كما هو واضح ، أن يقيّد هذا الوصف بالتاريخ السابق على إسلام عم الرسول ، إلا أننا بعد أقل من صفحة نقرأ السطور التالية التى تخلو من أى تقييد : « لقد أفدى[2] العباسُ نَفْسَه فى بدر وابنَ أخيه عقيلا بعد أن سال عرقه اجتهادا فى التخلص ، ودِيسَتْ كرامته تحت مناسم التأنيب والتعيير . ثم تم الفتح وأسلم كأحد وسطاء وول

(١) ص ٨٦٥ ـ ٨٦٦ .

(٢) كذا ، والصواب « فدَى » .

ستريت بنيويورك أو بوند ستريت فى لندن ولمّ ماله وانتقل إلى المدينة لا حبًا بالإسلام ولا محمد ولكن لانتقال الحركة المالية ونشاط الأسواق فيها بعد أن صارت عاصمة الإسلام »[1]. وهو حكم شديد فى مسألة رهيفة الحساسية لا يقوم على دليل ، ومن يستطيع أن يحكم على دوافع إسلام العباس ؟

وكذلك نرى أن قول د. جمعة عن حسان بن ثابت شاعر الرسول إنه « كان جبانا أقرب إلى النساء منه إلى الرجال » هو حكم شديد أيضا ولا يليق ، وبخاصة أن الرسول عليه السلام كان يحبه ويقرّبه ويشجعه على أن يردّ بأشعاره هجوم القرشيين قائلاً : « اُهْجُهم وروح القدس معك » . وهو نفسه يعترف بذلك ، إذ يقول إن إخلاصه وشعره قد حبباه إلى الرسول ﷺ[2] .

وهذه العبارات القاسية هى مما ينفرد به كِتَاب جمعة فى السيرة النبوية ، فإنى لا أذكر أن أحدا ممن قرأت لهم فى هذا الموضوع قديما أو حديثا قد أعطى لنفسه هذه الحرية أو استخدم مثل تلك الألفاظ . وإنى لأعتقد أن جمعة لو كان راجع كتابه فى السيرة وكتابه الآخر فى التفسير لحذف هذه العبارات أو لخفف منها على الأقل بما يزيل خشونتها وجفاءها ، فإن الإنسان قد تأخذه نشوة القلم وهو يكتب ،

(١) ص ٨٦٧ .

(٢) ص ٩٠٩ .

ولكنه ما إن يعيد النظر فيما سطر قلمه بعد أن تهدأ فورة التأليف حتى يشعر بأنه قد تجاوز الحد هنا أو ههنا فيمحو ما كتب أو يعدّله . ويغلب على الظن أن جمعة لم يُعِدِ النظر فيما لم يُطْبَع من كتبه بدليل أن عباراته فيها تحتاج فى بعض الأحيان إلى الصقل أو الإحكام مما يقوم به الكاتب عادة عند مراجعة ما كتب .

* * *

(تم الفراغ من هذا الكتاب فى حدائق القبة يوم الخميس ١٠ سبتمبر ١٩٩٨م)

المصادر والمراجع

* د. إبراهيم عوض / دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية ـ أضاليل وأباطيل / تحت الطبع .
* د. إبراهيم عوض / دراسة لتفسير ملك غلام فريد الأحمدى / القاهرة .
* د. إبراهيم عوض / سورة طه ـ دراسة لغوية أسلوبية مقارنة / دار النهضة العربية / ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م .
* د. إبراهيم عوض / سورة يوسف ـ دراسة أسلوبية فنية مقارنة / دار النهضة العربية / ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م .
* د. إبراهيم عوض / محمد حسين هيكل أديباً وناقداً ومفكراً إسلامياً/ مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م .
* د. إبراهيم عوض / المستشرقون والقرآن / دار الحقوق .
* د. إبراهيم عوض / مصدر القرآن ـ دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى / مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٧م .
* د. إبراهيم عوض / مقتل كعب بن الأشرف / دار الفتح / بيشاور / ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م .
* أحمد حسين الطماوى / محمد لطفى جمعة فى موكب الحياة والأدب / عالم الكتب / ١٩٩٣م .

* البخارى / صحيح البخارى بحاشية السندى / دار إحياء الكتب العربية .

* البستانى / محيط المحيط .

* د. بنت الشاطئ / القرآن والتفسير العصرى / دار المعارف (سلسلة « اقرأ » / العدد ٣٣٤) / نوفمبر ١٩٧٠م .

* الحلبى / إنسان العيون / مصطفى البابى الحلبى / ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م .

* رابح لطفى جمعة / محمد لطفى جمعة / الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة « الأعلام » / العدد ٥) / ١٩٧٥م .

* رابح لطفى جمعة / محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام / دار الوزان للطباعة والنشر / ١٩٩١م .

* رجاء النقاش / مقال « هل كانوا زنادقة ؟ » / مجلة المصور / ٢٥ مايو ١٩٩٠م .

* سامح كريّم / مقال « حالة المرأة فى التقاليد الإسلامية للدكتور منصور فهمى » / الأهرام / ١٧ يونية ١٩٨٥م .

* سامح كريّم / مقال « منصور فهمى الفيلسوف المتصوف »/ الأهرام/ ١٤ سبتمبر ١٩٨٤م .

* طبقات ابن سعد / دار التحرير / ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م .

* السهيلى / الروض الأُنُف / مكتبة ومطبعة ابن شقرون / ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م .

* سيد سابق / فقه السنة / دار الكتاب العربى / بيروت / ١٩٧١ .

* الشوكانى / نيل الأوطار / دار التراث العربى / القاهرة .

* الطبرى / تاريخ الطبرى / ط٢ / دار المعارف .

* الطبرى / جامع البيان فى تفسير القرآن / دار الريان للتراث / ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م

* عباس محمود العقاد / ألوان من القصة القصيرة فى الأدب الأمريكى / ط٢ / مكتبة الأنجلو المصرية / ١٩٦٣م .

* عباس محمود العقاد / مطالع النور / كتاب الهلال (العدد ٥٠) / مايو ١٩٥٥م

* عبد الرزاق نوفل / الله والعلم الحديث / سلسلة « مكتبة الأسرة » / ١٩٩٨م

* عبد العزيز [illegible] / مقال « إطلالة سريعة على حياة رائد لا يُعرَف عنه إلا القليل » / الأهرام / ٢٨ مايو ١٩٨٧م .

* الفيروزابادى / القاموس [illegible]

* فيكتور هوجو / [illegible] عليه بالإعدام / ترجمة لطفى سلطان / كتاب [illegible]) / فبراير ١٩٦٠م .

* القرطبى / تفسير القرطبى / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٨٧م .

* ابن كثير / البداية والنهاية / دار الفكر العربى / ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م .

* ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / عيسى البابى الحلبى .

* د. محمد حسين الذهبى / التفسير والمفسرون / دار الكتب الحديثة/ ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م .

* الشيخ محمد رشيد رضا / تاريخ الإمام الشيخ محمد عبده / مطبعة المنار / ١٩٣١م .

* محمد رشيد رضا / تفسير المنار / الهيئة المصرية العامة للكتاب .

* الشيخ محمد عبده / الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده / تحقيق د. محمد عمارة / ط٢ / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت/ ١٩٨٠م .

* محمد لطفى جمعة / مقال « إسفاف شاعر يطعن فى الكعبة / المساء / ٢٤ فبراير ١٩٣١م .

* محمد لطفى جمعة / الأيام المبرورة فى البقاع المقدسة / عالم الكتب / ١٩٩٩م .

* محمد لطفى جمعة / مقال « تغلغل العرب فى الحضارة الغربية وأسرار عظمة الشعوب الإسلامية ومستقبلها » / مجلة الرابطة العربية/ ٢٧ إبريل ١٩٣٨م .

* محمد لطفى جمعة / تاريخ فلاسفة الإسلام / مطبعة المعارف / ١٩٢٧م .

* محمد لطفى جمعة / ثورة الإسلام وبطل الأنبياء / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٥٨م .

* محمد لطفى جمعة / حياة الشرق ودوله وشعوبه وماضيه وحاضره / دار إحياء الكتب العربية / ١٩٣٢ .

* محمد لطفى جمعة / الشهاب الراصد فى الرد على كتاب طه حسين فى الشعر الجاهلى / مطبعة المقتطف والمقطم / ١٩٢٦م .

* محمد لطفى جمعة / مقال « عقوبة الإعدام » / البلاغ / ٢٨ مارس ١٩٣٠م

* محمد لطفى جمعة / مقال « قاضٍ بهائى يحارب التقاليد » / البلاغ / ١١ يوليه ١٩٢٩م

* محمد لطفى جمعة / قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد / عالم الكتب / ١٩٩٨م

* محمد لطفى جمعة / مع الكتب فى سبيل المعرفة / عالم الكتب / ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م

* محمد لطفى جمعة / نظرات عصرية فى القرآن الكريم / عالم الكتب / ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م .

* محمد لطفى جمعة / مقال « الهجرة المحمدية أساس الحضارة الإسلامية » / مجلة الرسالة / ٢٦ محرم ١٣٥٧هـ ـ ٢٨ مارس ١٩٣٨م .

* المنتخب فى تفسير القرآن الكريم باللغتين العربية والفرنسية / المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية / القاهرة / ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م .

* الإمام النووى / رياض الصالحين / مراجعة وتعليق محمد الأنور البلتاجى / دار التراث العربى / ١٩٨٠م .

* ابن هشام / السيرة النبوية / تقديم وتعليق طه عبد الرءوف سعد / مكتبة الكليات الأزهرية .

* Bouquet , Comparative Religion , Pelican Books, 1958 .

* Gibb , Mohammedanism , Oxford University Press, 1949 .

* Malik Ghulâm Farîd, The Holy Qur'ân, The London Mosque , 1981 .

* Maulvi Muhammad Ali, The Holy Qur'ân, The Islamic Review Office, Surrey , 1917 .

* Muhammad Asad, The Message of the Qur'ân, Dar al-Andalus, Gibraltar, 1980 .

* Muhammad Hamidullah , Le Saint Coran, Beyrouth, 1973 .

* Muir, The Life of Mohammad, John Grant, Edinburgh, 1912 .

* Rodinson, Mohammad (translated by Anne Carter), Penguine Books, 1977 .

* Rodwell, The Koran, Dent & Co., London , 1909 .

* Sale, The Koran, Frederic Warne & Co., London .

الفهرست